الأمير شكيب أرسلان

الإسلام والحضارات



الإسلام والحضارات

الأمير شكيب أرسلان / الإسلام والحضارات

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http ://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، أيّار ٢٠١١

الأمير شكيب أرسلان

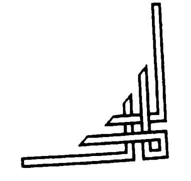
الإسلام والحضارات

الدار التقدّمية



كلمة لا بدَّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.



الدار التقدّمية

مقدّمة

لا يُخفى على المتابع لمسيرة الدار التقدّمية في نشر فكر وتراث أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، أنَّ هذا التراث العميم الفائدة قد أضاء على نواحٍ عدّة في نضال العالم العربي والإسلامي، فكان بحقّ "داعية العروبة والإسلام" الذي أبى المذَلّة والهوان والظلم، فانغمس في السياسة مواجهًا الاحتلال الغربي.

و لم يكتفِ الأمير بالسياسة منفذًا للذود عن العروبة والإسلام، بل اتّخذ نضالاً عروبيًا رديفًا، سلاحه الكلمة والرأي الحرّ، فحفظ بالكلمة لغة العرب من الخلل والاندثار، شعرًا ونثرًا واستضاء الخَلق بفكره النيّر ورأيه السديد.

وتجدنا اليوم، ونحن في عالمٍ عربيٍّ انكفأت فيه اللغة العربية، مع ما تقاسيه من جحود ونكران، نعود إلى الأمير شكيب أرسلان، في بعض ما كتب لنعيد للّغة الأمّ مكانتها، وندرأ عنها ما اعتراها من شوائب، ونحيي من ثوابتها الكثير الصلب الذي يتحدّى الزمان.

الناشر



الأزمة الحقيقية الحاضرة في الإسلام هي أزمة التعليم*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

يضرب الناس أخماسًا في أسداس في أسباب المصائب التي حلّت بالعالم الإسلامي، وأفضت به إلى هذا الانهيار الحالي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الإسلام، ولا في الكائنة الصليبية، ولا في الكائنة المغولية، ولا في غيرهما.

ويقلّبون وجوه الآراء في الأخطار المحدقة بالإسلام والأزمات المتوالية عليه، ويلتمسون منها مخرجًا وينشدون لها علاجًا وكلٌّ يدلي برأي، ويستظهر بحجّة، ويشير بعلاج، ويصف طريقة.

ومن الناس من يرى داء العالم الإسلامي في الاستعمار الأوربي، وتكالب هذه الأمم الشمالية والغربية على المال وعبادتهم للدينار، واهتمامهم عامّة ليلهم ونهارهم بالكسب وقَرْش الأموال[1] حتّى يرفّهوا به أبدانهم ويرضوا به شهواتهم ويصلحوا بها معايشهم. وإنّهم حسبما وصف ذلك الإمام يحيى صاحب اليمن، لمّا غربلوا جميع خيرات بلادهم ونخلوها وأكلوها، ولم يبقَ فيها شيء يؤكل انقلبوا على العالم الإسلامي، الذي فيه كرائم الخطط وعقائل الأموال، يحاولون أن يستغلّوها ويستثمروها وينزحوا جميع ما في آبارها ليزدادوا ثروة إلى ثروة ورفهًا إلى رفه.

ومنهم من يرى أنَّ هذا الهجوم المستمرّ من الإفرنج على بلاد الإسلام لم يكن كلّه أثر جشع دنيوي ولا طمع مادّي، وإنَّه، وإن صحبته مظاهر استعمار وطرق استغلال ومساعٍ في كسب الأموال، فإنَّ أصله الأصيل ليس بمادّي، بل هو تكملة للحروب الصليبية التي استمرّت بين الأوروبيين والمسلمين قرونًا، والفريقان فيها بين جزر ومدّ إلى أن أتيح للإفرنج الظهور في هذا العصر فهبّوا يستأنفون أعمالاً كانوا حبطوا فيها سابقًا، ويستثمرون دماء

---

* الفتح، العدد: ١٩٥، السنة الرابعة، القاهرة (١٨ ذي القعدة ١٣٤٨هـ/١٧/٤/١٩٣٠م)، ص ص.١ـ٦.

(١) قرش المال وتقرّشه: جمعه.

كانت سالت لهم من قبل هدرًا. ففرنسة مثلاً، زحفت إلى سورية إحدى عشرة زحفة صليبية، وزحفت في زمن نابليون الأول، وزحفت في زمن نابليون الثالث، وفي كلّ زحفة كان نصيبها أن تخسر المال والرجال وترجع ولو بعد حين. فلا عجب إذا حاولت الآن أن تتمكّن في أرض قصدتها ثلاث عشرة مرّة، واضطرّت أن تخرج منها كرهًا.

وإنكلترة حاول ملكها ريشارد قلب الأسد أن يستولي على بيت المقدس في القرون الوسطى فدفعه عنه الفاتح الأيّوبي، فعادت بعد سبعائمة وخمسين سنة تكمل عملاً كانت عجزت عنه في تلك القرون وخسئت عنه، وفي قلبها حسرات لم يخمد أوارها إلاَّ على يد الجنرال أللنبي. ولقد صرّح هذا المارشال بدون محاباة، أنهم بعد ثمانية قرون أبطلوا عمل صلاح الدين.

وبعضهم يقول: كلاّ ليست هناك عداوة دينية ولا حرب صليبية، فإنَّ العصبيّة النصرانية قد زالت من أوربة (وهذه من جملة أضاليل المجدّدين ودسائس المستعمرين) وقام مقامها عصبيّة المدنيّة الأوربية والثقافة الغربية[1]، فأوربة لا يهمّها نشر دينها وإنَّما يهمّها نشر ثقافتها التي هي أفضل وأنفع للنوع الإنساني من الثقافة الشرقية.

وآخرون يقولون: إنَّ هذا التكالب الغربي على العالم الإسلامي أساسه ما بين الدول الأوربية من التنافس ومن الكفاح لأجل حفظ الحياة، فكلّ من هذه الدول تخشى تفوّق جارتها عليها أو مزاحمتها لها، فتضطرّ إلى وضع يدها على قطر من الأقطار الإسلامية لتأمن سدّ الطريق على تجارتها أو لئلاّ تسبقها إلى ذلك القطر دولة أخرى تزداد بالاستيلاء عليه قوّة وبسطة وترجح عليها في ميزان السيادة وتستأثر بالسلطان الأكبر.

وكلّ يرى الضعف الذي حلّ بالإسلام ودوله وشعوبه نتيجة ما يقرّره من الأسباب التي عددناها، ويجد الأخطار المستقبلة والمهالك المستأنفة بأجمعها من إحدى هذه الجهات أو من مجموعها.

ونحن نقول: إنَّ كلّ هذه العلل صحيحة، وإنَّ كلّها واقع بالإسلام وواقع فيه الإسلام، وليس في واحدة منهنّ مبالغة في الوصف ولا زيادة على المقدار الذي وزن به الخطر، ولكنّها كلّها أقلّ خطرًا وأخفّ ضررًا من طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الإسلامية

(١) والحقيقة أنَّ هذه المدنيّة وهذه الثقافة مبنيّتان على النصرانيّة، وأنَّ النصرانيّة الأوربية هي مزيج من مبادئ سامية ويونانية ولاتينية.

والمسلمون في هذا العصر. وهي الطريقة التي ستكون نتيجتها أشدّ ويلاً على المسلمين من الاستعمار ومن الحروب الصليبية ومن الغارات الاقتصادية ومن كلّ مصيبة وداهية.

طريقة التعليم التي معناها أن ينشأ الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من القواعد العربية، وأن يطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلمًا!

فالمسلمون اليوم يشتكون من ثورة الأفكار، وفشوّ المبادئ المضرّة، كالإلحاد والإباحة وعدم الطاعة، والقول بكلّ شيء مادّي والانصراف عن كلّ شيء روحي، إلى غير ذلك ممّا ابتلى به العالم الإسلامي الحاضر، وممّا لحظه الإفرنج في ناشئة المسلمين في السنوات الأخيرة.

فقد قرأنا كثيرًا في جرائد أوربة ومجلاّتها ورحلات السائحين الأوربيين الذين طافوا في الشرق في هذ الأعوام التي عقبت الحرب، فرأيناهم مجمعين على أنَّ الإلحاد ضارب بعصاه في بلاد الإسلام اليوم، وهم يرون أنَّ هذه الحركة الفكرية عند مسلمي هذا العصر هي أشبه بالحركة التي انتشرت في أوربة في أواخر القرن الثامن عشر.

وقرأت في مجلّة هولاندية ما معناه: أنَّ هذه الحركة اللادينية في العالم الإسلامي لن تدوم لكنها الآن سارية في كلّ مكان منه.

ولمّا عاد ويليام مارتين الكاتب السويسري الشهير من سياحته في الشام والعراق بهذا الشتاء، ألقى عدّة محاضرات في جنيف صرّح فيها بأنَّ الناشئة الحديثة في العراق، حسبما لحظ في بغداد، ليست على شيء من الدين الإسلامي.

وخطب في باريز رئيس إحدى الرهبانيّات الإفرنسية التي لها مراكز في الموصل منذ مائة وخمسين سنة، وهو نفسه مقيم بالعراق منذ ٣٥ سنة، فقال:

"لقد فشا الإلحاد وكره الدين بين شبّان المسلمين فشوًا هائلاً وفسدت معه الأخلاق إلى حدّ أنّنا نحن القسوس والرهبان صرنا نفضّل المسلمين الشيوخ المتمسّكين بديانتهم على هؤلاء الشبّان الملحدين"، ثمَّ شكا هذا الراهب الكبير الضعف الزائد الذي عليه حكومة العراق بإزاء هذه الحالة الروحية السيّئة.

وجميع أهل مصر يئنّون من مظاهر عداوة الدين التي كانت تصل أحيانًا إلى مجلس النوّاب نفسه، والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بؤرة شبهات بَاسم حرّية التفكير!

وسورية نفسها منطوية أحناؤها على كثير من سلّ اللادينية الساري بسرعة، ولو كان الله ألهم إنكلترة وفرنسة أن تفيا بالوعود التي أكّدتاها للعرب، والعهود التي حرّرتاها في قضيّة استقلالهم لكان انهار الدين الإسلامي انهيارًا مدهشًا في سورية.

ولكن نكث الحلفاء في عهودهم ووعودهم وإساءتهم معاملة الشرقيين وبخاصّة المسلمين وانقلابهم من نعاج قبل الانتصار على ألمانية إلى ذئاب من بعده، وغير ذلك من سياستهم الجائرة أحدث عند المسلمين، حتّى الشبّان منهم حركة إسلامية منشؤها كره الأجنبي الغادر الناكث الماكر الذي لو كان وفى معهم لكانوا أحبّوه وكرهوا الإسلام لأجله، ولكنّه من حيث أنه نكث كرهوه وعادوا إلى الإسلام.

لا أقول هذا على الإطلاق فإنَّ الإطلاق غير جائز، ولكنّي أقول إنَّ هذا التصوير لحالة سورية الروحية مطابق جدًّا في الكثيرين.

ولقد تحقَّقت أنَّ كثيرين من شبّان المسلمين السوريين الذين كانوا لا يعرفون الصلاة ولا الصيام وكانوا يجاهرون بالمبادئ اللادينية قبل نهاية الحرب، لما رأوا ما رأوا من سياسة الإنكليز والفرنسيس بعد الحرب العامّة عادوا من كرههم لهم يصلّون ويصومون ويقيمون شعائر الإسلام. وبلغني أنَّ أناسًا كانوا يلبسون الطرابيش فقط فلاثوا من حولها عمائم.

وأنا أعتقد أنه لو فرض المحال وكان الحلفاء قد وفوا بما عاهدوا العرب عليه لكان مثل هؤلاء لبسوا من أجلهم البرانيط. إنَّ هذه الحالة الروحية قد تظهر مستغربة ولكنها صحيحة.

ولولا "الوطن القومي الصهيوني" لم يكن الاعتصام بالإسلام في فلسطين كما نراه اليوم. ولو لم تنتصر تلك الدولة الإسلامية المعهودة على اليونان وتعقد أوربة معها معاهدة لوزان لما كان ظهر فيها شيء من الإلحاد ولا من عداوة الإسلام، ولا كان جرى هذا التبديل في الأزياء وفي الحروف وفي القوانين ولا خطر ببال قادتها شيء ممّا فعلوه ويفعلونه اليوم.

نعم لا خلاف في أنه لو كانت هذه الحكومة باقية كما كانت حكومة غير معروفة، ولا عارفة مصيرها، وكان الحلفاء محتلّين بلدانها إلى اليوم، لكان زعيمها المعهود يحضر كلّ جمعة قراءة مولد ويخطب كلّ بضعة أيام خطبة ينوّه فيها بالعرب "مِلَّتْد اسْلَر مِزْ" والمصريين "مِلَّتْد اسْلَر مِزْ" ويتكلّم عن العالم الإسلامي وعن قيامه هو لأجل نصرة الدين وإنقاذ الخليفة من بين أيدي الأجانب وصيانة الخلافة، وما أشبه ذلك، ولكان لا يزال يقبّل

يدي السيِّد أحمد الشريف السنّوسي ويستقبله إلى المحطّة ولكان يبرق إليه كما أبرق إليه وهو بماردين قائلاً له ما معناه: «ابتدأت المعركة، أدركونا بقراءة البخاري الشريف»، ولكان الذي هو رئيس وزارته اليوم لا يزال يأتي إلى السيِّد السنّوسي ويركع على ركبه أمامه مدّة ساعتين ولا ينصرف إلاَّ بعد أن يلتمس منه الفاتحة.

إنَّه لمتّفق على أنَّ هكذا كان يكون لو بقي هؤلاء القوم في أرجوحة الشكّ واليقين لم يأمنوا على استقلالهم.

وليس هذا منحصرًا في هؤلاء الجماعة، بل هو ناشئة العصر من العرب أيضًا. فالإسلام لا يعودون إليه إلاَّ عند الشدائد، وهذا خلق عامّ. ولو وقعت تلك الدولة يومًا في حرب مع دولة من الدول العظام لرأيت منها إسلامًا وإيمانًا وجمعًا وموالد وختمات وأذكارًا لا تحصل في مكّة.

ما أصدق قوله تعالى: ﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا، فلمَّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأنَّ لم يَدْعُنا إلى ضرّ مسّه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾[1].

ومثله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿...دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنوكنن من الشاكرين، فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ﴾[2].

ومثله وهو لا بدّ أن يتحقَّق ويشاهده الناس بأعينهم ويتذكّروا هذه الآية: ﴿ ثمَّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون، ثمَّ إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربّهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾[3].

ومثله: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وأنأى بجانبه وإذا مسّه الشرّ فذو دعاءٍ عريض﴾[4].

وغير ذلك من الآي الكريمة التي تكرّر فيها هذا المعنى بصور متنوّعة وما تكرّر ذلك إلاَّ من كثرة هذا الخُلق في الخَلق ومن أنهم لا يعرفون الله إلاَّ تحت الحمل وإذا أزيح عن ظهورهم بطروا وأرِنوا وأول شيء جاء ببالهم هو الإلحاد أو الجحود.

---

(١) سورة يونس، رقم ١٠، الآية: ١٢.
(٢) سورة يونس، رقم ١٠، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النحل، رقم ١٦، الآية: ٥٣ ـ ٥٤.
(٤) سورة فصلت، رقم ٤١، الآية: ٥١.

ولننظر في العلّة الأصلية لهذا التهافت على الكفر بمجرّد إصابة أقلّ خير أو شيم أدنى وميض نجاح، فنجدها عند الناشئة الذين لم يكن لهم نصيب من التعليم الإسلامي فبناؤهم منه ضعيف ينهار من أول عاصف.

ماذا تأمل من الشاب الذي أرسله أبوه إلى أوربة وهو ابن ١٤ سنة لا يعرف شيئًا من عقيدة قومه ولا من البراهين التي يقوم عليها الإسلام: فوصل إلى هناك "خامًا" كما يقال، وحشا دماغه في أوربة بكلّ ما يحقّر الإسلام ويصغّره ويزدريه، وقيل له إنَّ ما عليه أمّته من التأخّر والجمود والضعف إنَّما هو بأجمعه أثر الإسلام، أفيكون من العجب بعد هذا أن تنشأ عند هذا الفوج الجديد "الإسلامي" هذه الكراهية للدين الإسلامي، وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية؟

كلاَّ، بل العجب كلّ العجب أن يكون الأمر بخلاف ذلك. وإن خرج من جميع هؤلاء الشبّان مسلم واحد فعلاً فيكون المنطق معدومًا من الدنيا. ولا ننكر أنَّنا رأينا نزرًا من هؤلاء الشبّان متديّنين أو متباعدين عن الإلحاد في الدين، ولكنَّنا علمنا أنهم قبل أن سافروا إلى أوربة كانوا على شيء من علم العقيدة، أو كان أهلهم ذوي تربية إسلامية متينة بحيث رسخت فيهم منذ الصغر فلم تؤثّر فيها قرفة أوربة.

فالخطأ إذا ليس خطأ أوربة التي تريد أن تبثّ تعاليمها ممَّا هو طبيعي، والتي لو وجد فيها الميل إلى الإنصاف لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام الذي لا يصل إليها عنه العلم إلاَّ مقلوبًا. وإنَّما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسة وإنكلترة وألمانية وبلجيكا وسويسرة وأوستريا، ... إلخ، وتظنّ أنها ربّت فيهم رجالاً للمستأنف، الحقيقة أنها أرسلتهم -إلاَّ الأقلّ- غير مجهّزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم أن يذبّوا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرّضين لكلّ خطر كما رأيناهم.

والخطأ الذي هو أكبر منه هو خطأ الوالدين الذين يرسلون أولادهم إلى أوربة اقتداءً بغيرهم ممَّن يرسلون أولادهم إلى أوربة، وهم لا يبالون كيف يكون مصيرهم، ولا يسألون هل أولادهم أكفّاء لتحمّل صدمة أوربة أم لا؟

إنَّ التعليم في أوربة لازم، بل ضروري، ولا سيَّما العلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة وغيرها من العلوم، ولكن تلقّينا هذه العلوم في أوربا لا

يستلزم أن ننسلخ من عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا وأذواقنا ومشخّصاتنا القوميّة ومقوّماتنا الاجتماعية. وقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقّوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوربيين وسبقوهم في كثير منها ولبثوا على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب، ولا نعلم لماذا نحن وحدنا الذين إذا حصّلوا العلم في أوربة وجب أن نرتدي جميع أثواب مدنيّة أوربة بلا استثناء؛ وإن لم نفعل ذلك كان تعليمنا ناقصًا وغير وافٍ بالحاجة! ولا نعلم لماذا أوربة نفسها رقت هذا الرقيّ كلّه ولم تزل صبغتها مسيحية ولم يضرّها ذلك في رقيّها شيئًا.

وأغرب الغرائب أنك تجد بين هؤلاء الآباء الذين يرمون بأفلاذ أكبادهم في أوربة، بدون تفكّر ولا تدبّر، آباء مسلمين حقّ الإسلام مؤمنين جدّ الإيمان قائمين بالفروض والسنن والطاعات كلّها، لا تجد في أحوالهم الشخصية عوجًا ولا أمتًا ولا يريدون أن يكون أولادهم إلاَّ كما كانوا هم من جهة التقوى والآداب والفضائل. ومع هذا فإنَّ هؤلاء الآباء أنفسهم يعتقدون أنَّ مستقبل أولادهم متوقّف على إرسالهم إلى التحصيل في أوربة وتجدهم تلتهب في قلوبهم نار الغيرة من ذهاب ابن فلان وابن فلان إلى برلين أو باريز أو لندن فلا يهمّهم بعدها شيء إلاَّ أن يرسلوا أولادهم إلى حيث أرسل غيرهم أولادهم حتَّى يفتخر الواحد منهم بأنَّ له ولدًا تعلّم في باريز، وهناك السعادة العظمى والفوز الأكبر، فهو يرسل ابنه إلى أوربة ولو علمه خاليًا أملس من العقيدة ومن العربية ولا يبالي على أيّ جنبيه وقع الأمر.

يصلّي ويصوم وقد يزكّي وربَّما قد حجّ بيت الله ولا يطيق أن يسمع كلمة سوء في الإسلام ويرخّص روحه في سبيل دينه، ولا يبالي بإرسال ابنه إلى أوربة، وهو بعد مثل العجينة أن يخرج ابنه مارقًا من الإسلام مروق السهم من الرمية. إنَّ هذا لمن المتناقضات التي لا يفهمها العقل.

وأغرب منه أنَّ أولادًا من أولاد هؤلاء يعودون على آبائهم من أوربة وقد امتلأت أدمغتهم احتقار المدنيّة الشرقية والثقافة الإسلامية ويهزأون بآبائهم ويزدرون بأهلهم ويجادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ويقولون لهم في وجوههم. إنَّ هذه العقائد إن هي إلاَّ خرافات وأساطير، ويكون قصارى جواب الأب لابنه: نحن هكذا ولدنا وهكذا نشأنا وهكذا نموت، وأمَّا أنتم فاَعملوا ماشئتم!

هذه هي سياسة هذا المسلم المصلّي الصائم المزكّي في عائلته، وهذا مقدار اكتراثه لمستقبل ابنه! ولعمري ماذا تنفعه صلاته وماذا يفيده نسكه بعد هذا؟ وهو يزجّ ابنه في الكفر والإلحاد وإنكار الأديان ويرسله إلى الديار الغربية أعزل من الاعتقاد عن برهان فيكون كمن أرسل ابنه إلى الحرب بلا سلاح ولا سنان.

فإذا كان هذا عدم اكتراث الآباء المسلمين المتديّنين لمستقبل أولادهم، فكيف يكون شأن الآباء الذين هم من الأصل غير مبالين بالدين، ولا هم من المعتقدين؟ لا جرم أنَّ الواحد من هؤلاء يرسل ولده إلى أوربة عمدًا على أمل أن يكسب هناك من الثقافة المادّية ما يجعل إلحاده مبنيًّا على علم ودليل، بدلاً من أن يكون فطريًّا كإلحاد أبيه.

وجميع هؤلاء الآباء لا يرون لأبنائهم مستقبلاً إلاَّ في الذهاب إلى إحدى العواصم الأوربية والتحصيل فيها كيفما كان منقلبه في الآخر. ولو تأمّلوا في حقائق الأمور لعلموا أنَّ إتقان فلاحة وإحكام صنعة، والتفنُّن في تجارة، هي أفيد لأصحابها من تحصيل علوم لا يعرفون ماذا يعملون بها، وهم يرون البلاد الشرقية عيالاً في جميع المصنوعات على الأوربيين، وأنها لا تصدّر إلى أوربة من محصول زراعتها ما يساوي واحدًا حتَّى تشتري منها ما يساوي ثلاثة بالأقل.

وإنَّ الشرق مستعبَد للغرب، إن لم يكن من جهة السياسة فمن جهة الاقتصاد. أفلا ينظرون إلى حالة تركيا المالية اليوم؟ أفلا يرون ماذا أضرّ بها التفرنج في اقتصاديّاتها، إذ أرادت أن تقتدي بأوربة في الزيّ والزينة، وهي لا تملك ما يملكه الإفرنج من الثروة.

ولقد كنت أصادف من مصر ومن الشام بعض شبّان يحصّلون في أوربا الميكانيكيّات أو الكهرباء أو فنّ النساجة أو صنعة أخرى فيسرّني ذلك أكثر من الذين يحصّلون مجرّد العلوم واللغات لا لأنَّ العلوم واللغات لا تفيد المجتمع، بل لوجوب الموازنة بين أركان العمران التي منها الصناعة والزراعة والتجارة ومن حيث أنَّنا نقتدي بالأوربيين في كلّ شيء أفلا اقتدينا بهم في توزيع المعارف على النسبة اللازمة لترقية البلاد؟

ولا أريد أن أطلق القول وأحكم على جميع الذين حصّلوا العلوم في أوربة بفساد العقيدة، بل هناك من الناشئة من استفاد وعاد إلى بلاده فأفاد، وبقيت مباديه طاهرة، وإنَّما أريد أن أقول إنَّ إرسال الولد إلى أوربة قبل أن يبلغ أشدّه معناه إرساله لينشأ تنشئة أوربية

ليس فيها شيء من الإسلام ومباديه، فإذا عاد هذا الولد إلى أهله شابًّا عاد إمَّا عدوًّا لقومه أو محتقرًا لهم، ونشأ هذا التنافر الذي نراه الآن في الأوساط الإسلامية بين الفوج القديم أو المتمسّك بالقديم، وبين الفوج الجديد والذاهب إلى نبذ كلّ قديم.

وسيزداد هذا التنافر تدريجًا إلى أن ينتقل من الأفكار إلى الأيدي فتسيل الدماء وتضطرب الدهماء ويكون من الخطوب ما هو فوق الحساب.

وقد يقال إنَّ تركيا وقع فيها الانقلاب رأسًا على عقب، وما جرى شيء ممَّا تقول. والجواب لا يقدر أحد أن يقول إنَّ الأمر انتهى في تركيا وإنَّ الأمور ركزت على ما نراها عليه اليوم. ولكن الذي أسكت الأتراك أكثر من الرضى بالانقلاب الاجتماعي الحالي إنَّما هو الخوف من الفتنة الداخلية واهتبال الإفرنج هذه الغرّة للرجوع إلى البلاد؛ فتحمّل الأتراك كلّ ما فرض عليهم مؤخّرًا، تفاديًا من الاستعباد للأجنبي الذي كانوا ذاقوا مرارته، وحبًّا بالراحة والسكينة بعد هذه الحروب المستمرّة المتّصلة التي أتت على حرثهم ونسلهم. فرأوا الصبر على هذا أحجى وقالوا لا بدّ من الفرج.

والخلاصة أنَّنا من فوضى التعليم في خطر عظيم، وأنه من عدم تجانس التعليم ستكون من العالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنائه أنفسهم أشدّ خطرًا من غارات الإفرنج واحتلالاتهم التي لا بدّ من أن يتقلّص ظلّها بالصبر والثبات واغتنام الأوقات. ولن ننجح ولن نفلح إلاّ إذا اقتدينا بالأمم الأوربية الراقية، التي مع تبحّرها في جميع العلوم الطبيعية والاشتغال إلى الدرجة القصوى بالمادّة، لا تزال بانية ثقافتها على ديانة مضى عليها أكثر من ١٩ قرنًا، وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرنًا، ولم يمنعها الولوع بهذا الجديد من الاحتفاظ بذلك القديم.

لوزان، ٤ ذي القعدة ١٣٤٨هـ/٣ نيسان ١٩٣٠م

شكيب أرسلان



مسألة إخراج البربر من الإسلام*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

بعض جرائد سورية التي هالها هذا الخبر أرادت أن تخفّف وقعه على قرّائها المسلمين فقالت: وعسى أن تكون هذه المسألة بسيطة، وأن لا يكون لها هذه الخطورة!

وليس أرغب منّا في أن تكون هذه المسألة بسيطة، ولا أشوق منّا إلى الخلاص من هذا الشرّ المستطير الذي كنّا أوّل من نبّه عليه في «حواشي حاضر العالم الإسلامي» منذ سنوات.

ثمَّ لمّا باشرت جمهوريّة فرنسة بصورة رسمية هذا العمل الغريب، الذي لم يقدم عليه ولا لويس التاسع المسمّى بمار لويس، على حين كونها تدّعي التجرّد من الصبغة الدينية والتحقّق بالصبغة المدنيّة اللادينية ونبذ السياسة الكنسية، أسرعنا إلى نشر ذلك مع النكير العظيم في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» في العدد الثالث منها أي منذ أربعة أشهر، وأملنا أن يكون لنذيرنا أثر في الأندية الإفرنسية، وأن تعود فرنسة عمّا يسجّل عليها أسوأ حالة تلطّخت بها دولة متمدّنة في هذا العصر.

إلاَّ أنَّ طمع الفرنسيس في تنصير البربر غلب فيهم على كلّ حكمة، وأضلّهم سبيل الرشاد.

فمع الأسف نقول: إنَّ المسألة ليست بسيطة، وإنَّها إلى حدّ هذه الساعة لا تزال في دور الخطورة القصوى.

وهذه القضيّة لا يقتصر الاعتداء فيها على الإسلام البربر، بل يشمل العالم الإسلامي كلّه.

وفي العدد القادم من «لا ناسيون آراب» مقالة وافية لنا بالموضوع، فنرجو من الجرائد العربية التي فيها المترجمون البارعون من اللغة الإفرنسية أن لا تغفل هذه المقالة، لأنَّ الوفد السوري لا يقدر أن يعمل كلّ شيء بنفسه، ولا أن يكتب بالإفرنسي ويترجم إلى العربي،

* الفتح، العدد: ٢٢٠، السنة الخامسة، القاهرة (١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ/١٠/٩/١٩٣٠م)، ص ص. ١ ـ ٣.

وهو الذي عليه من تحرير الاحتجاجات وتقديم اللوائح والتقريرات إلى جمعيّة الأمم ومطالعة الصحف وتنميق الكتب الخاصّة والمقالات العامّة ما لا يكاد يحصى ولا يعلمه إلاّ من يعانيه، والوفد مضطرّ أن يقوم بكلّ ذلك بنفسه إذ ليس لديه أعوان ولا نواميس يعتمد عليهم.

وبالاختصار نقول في هذه الفادحة النازلة بالإسلام بأفظع شكل:

أولاً - إنَّ إلغاء فرنسة الشريعة الإسلامية من بين البربر اعتداء محض على الإسلام في كلّ الدنيا، لأنَّ البرابر مسلمون.

ثانيًا - إنَّ ادّعاء الفرنسيس كون البرابر هم الذين طلبوا ذلك هو غير صحيح، لأنَّ البرابر هم في مقدّمة الثائرين على هذا الأمر.

ثالثًا - لا يصعب على فرنسة والحكم في يدها أن تأخذ استدعاء كهذا من بعض جهلاء البرابر أو من أفراد لا يؤبه بهم، لكن الأمّة البربرية على كلّ حال لا ترضى بإلغاء الشريعة الإسلامية من بينها.

رابعًا - إنَّ ادّعاء الفرنسيس أنَّ سلطان المغرب هو الذي أصدر الظهير بذلك هو غير صحيح أيضًا، لأنَّ السلطان حدْثٌ لا يعرف شيئًا وهو مغلوب على أمره، والأمّة المغربية لم تعلم شيئًا من أمر مبايعته. على أنه لو فرضنا أنها بايعته فهذه المبايعة قد سقطت - من الوجهة الإسلامية - بمخالفة السلطان لأحكام الدين الإسلامي ورضاه بإخراج ثلاثة أرباع رعاياه من الإسلام.

خامسًا - فرنسة في معاهدة الحماية التي ضربتها على المغرب تعهّدت باحترام الدين الإسلامي وشعائره ومقرّراته. فهذا العمل نقض صريح لهذا العهد.

سادسًا - ما معنى منع فرنسة لمشايخ الدين الإسلامي والوعّاظ والفقهاء من الاختلاط بالبربر؟ وما معنى إجازة ذلك للقسوس والمبشّرين؟

سابعًا - ما معنى توقيف فرنسة بناء المساجد عند البربر ومباشرة القسوس بناء الكنائس بمساعدة فرنسا؟ فهل البربر مسيحيّون حتّى تبنى لهم كنائس؟

ثامنًا - عندنا معلومات خصوصية أنَّ لبعض المراكز الكاثوليكية العليا مدخلاً خفيًّا بهذا الأمر... وأنه قد جرى الوعد بإرسال بعثات مبشّرين وبناء مدارس وكنائس وبذل ملايين.

تاسعًا ـ لا يقوم أهل المغرب هذه القيامة عربهم وبربرهم ويختارون العذاب والنفي والسجن والجلد بالسياط إلى غير ذلك لو لم يكونوا رأوا بأعينهم الإعتداء على دينهم، وشاهدوا الخطر الذي أحدق بهم.

عاشرًا ـ لم يصدر من فرنسة حتّى هذه الساعة أدنى بلاغ ينفي هذه القضيّة.

حادي عشر ـ إنَّه لا يمكن قصور درجة الفوضى في مملكة فيها قوانين مختلفة متناقضة بين أمّة مختلطة متساكنة متشابكة متداخلة تداخل العرب والبربر.

ثاني عشر ـ إذا جاز لفرنسة أن تلغي الشريعة القرآنية من بين البربر وهم مسلمون، فما يمنعها من أن تلغيها من بين العرب أنفسهم ولو بعد بعض عشرة سنة؟

ثالث عشر ـ أكثر المسلمين اليوم هم تحت حكم الدول الاستعمارية. فإذا سمح المسلمون لفرنسة أن تمدّ يدها لدينهم وتلغيه من بين أمّة منهم لم تتردّد سائر الدول الاستعمارية أن تحذو حذو فرنسة في ذلك. فإنكلترة وهولاندة وإيطالية والروسية ورومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا واليونان وبلجيكا وأمريكا وسيام والصين كلّها عندها رعايا مسلمون، فلا يبعد حينئذٍ أن يأتي وقت تعلن فيه بعض هذه الدول ـ إن لم يكن كلّها ـ أنَّ الدين الإسلامي ممنوعٌ في ممالكها... فماذا يصنع المسلمون يومئذٍ؟

رابع عشر ـ قد تخاذل المسلمون وتواكلوا في أمر دنياهم فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الذلّ الذي صار يزداد كلّ يوم بطبيعة الحال، لأنَّ الشيء متى بدأ لا ينفكّ يزداد ويجرّ بعضه بعضًا. فهل يتخاذل المسلمون ويتواكلون في أمر دينهم أيضًا كما تخاذلوا في أمر دنياهم؟ إذًا يخسرون دينهم كما خسروا ممالكهم وبلدانهم! فهذا ينبغي أن يعلموه من الآن، لأنهم صائرون إليه إذا سكتوا.

خامس عشر ـ ليس لفرنسة أن تزعم أنَّ هذه مسألة داخلية تعني حكومتها وحدها. فحرّية الأديان مصونة بالقانون الدولي العامّ، وكلّ مسلم في الدنيا له الحقّ أن يتدخّل في هذه المسألة.

سادس عشر ـ عندما نقول إنَّه ليس في أوربة حكومة لادينية حقيقية وإنَّها كلّها تعزّز الديانة المسيحية التي هي ديانة جميع أوربة على اختلافها فينبغي للناس أن يصدّقونا وأن

يعرفوا أنَّ الذين يتشدّقون لهم بخلاف ذلك من «المسلمين الجغرافيين» هم خائنون مائنون وأعداء للمّتهم يريدون لها الشرّ لا غير.

سابع عشر ـ لا تنتقد دولة من دول أوربة في تمسّكها بنصرانيّتها، حتّى أننا لا ننتقد فرنسا نفسها على ما تفعله الآن من الوجهة الإفرنسية. هذه أمٌّ عاقلة حكيمة رشيدة شريفة أمينة لدينها ولقوميّتها سائرة على خطّة من ذلك لا تحيد عنها، ولكنّا ننتقد «المسلمين» الذين يكابرون في هذه المحسوسات، ويجتهدون في صرف أنظار المسلمين عن هذه الحقائق الملموسة، ونقول إنَّ هؤلاء هم أسقط البشر أيًّا كانوا وأيّان كانوا.

جنيف، ٤ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ/٢٧ أيلول ١٩٣٠م

شكيب أرسلان



الاحتجاج على فرنسة من أجل مسألة البربر*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

أرى الاحتجاجات كثيرة وشديدة على الحكومة الإفرنسية في خطّتها العدائية للدين الإسلامي في المغرب واستخدامها بعض المارقين التاعسين من أهل تلك البلاد مثل المقرّي والبغدادي وأضرابهما في موضوع مرتّب مدبّر من قبل وموجّه لإخراج أمّة البربر من الإسلام.

إلاّ أني قلّما رأيت احتجاجًا من هذه الاحتجاجات الكثيرة واصلاً إلى المجتمع الدولي أو عائدًا بالتأثير الذي يرجو أصحابه منه.

فإخواننا في الديار المصرية أو العراق أو فلسطين أو سورية أو أندونيسيا أو غيرها يوجّهون احتجاجاتهم أمًّا إلى الجرائد العربية أو إلى حكوماتهم المحلّية وقليلاً إلى سفراء فرنسة أو قناصلها.

فالاحتجاج إلى الجرائد العربية صرخة في وادٍ، لأنَّ الأوربيين لا يقرأون الجرائد العربية، والاحتجاج لدى الحكومات الإسلامية ضعيفٌ أيضًا، لأنَّ مشكلاتها السياسية قد تحول دون تعرّض هذه الحكومات إلىدولة مهيبة الجانب كدولة فرنسة، حتّى لو كانت المسألة دينية ومن حقّ كلّ مسلم في الأرض.

ولا أقول إنَّه لم يوجد حكومات إسلامية سألت فرنسة عمَّا يجري في المغرب ولكنّي أقول: لا ينبغي إلقاء الحملة كلّها عليها. فالدولة العثمانية التي كانت مضطلعة بالخلافة الإسلامية في القرون الأخيرة قد انقرضت وحلّ محلّها من يريدون هدم الإسلام من قواعده. والدول الإسلامية الباقية يحيط بها من المشكلات ما يمنع تأثير وساطتها لو تدخّلت في الأمر.

عندما كانت الدولة العثمانية في عنفوان شبابها كانت تحمي الإسلام في الخارج يرهب الأوربيون مداخلتها.

---

* الفتح، العدد: ٢٢٦، السنة الخامسة، القاهرة (٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ/٢٠/١١/١٩٣٠م)، ص ص. ١ ـ ٣.

نعم قصّرت الدولة العثمانية، وقصّرت مثلها الدولة المصرية تقصيرًا لا يزال يسجّل عليهما بسوء الأحدوثة إلى اليوم، عندما حوصرت غرناطة واضطرّ أهلها للتسليم سنة ٨٩٧ هجرية. ولكن ملكَي الإسبانيول فرديناند وإيزابلاّ كانا أرسلا وفودًا إلى الشرق من دهاة القسوس، أقنعوا دول الإسلام بأنَّ أهل غرناطة لو خضعوا لحكم الأكثريّة الإسبانيولية لن يصيبهم أدنى أذى، وستبقى ولاتهم من أنفسهم، وستظلّ الشريعة الإسلامية جارية أحكامها كما كانت من قبل، وستبقى لهم أملاكهم وأوقافهم ومساجدهم ومدارسهم لا يعارضهم فيها معارض ولا ينازعهم فيها منازع، إلى غير ذلك من العهود التي أخذها ملوك إسبانية على أنفسهم (نظير العهد الذي أخذته فرنسا على نفسها في المعاهدة التي احتلّت بها المغرب وبسطت حمايتها عليه سنة ١٩١٠ وتعهّدت فيها باحترام الدين الإسلامي وشعائره ومؤسّساته) بإزاء المسلمين جميعًا، ويردّوا بذلك الحرارة التي كانت تتأجّج في صدور مسلمي المشرق من أجل إخوانهم في الأندلس.

وإنَّ ملوك الإسبانيول بعد أن أعملوا هذه الحيل والدسائس التي خدعوا بها مسلمي الشرق الأقوياء يومئذٍ ومسلمي الأندلس أنفسهم وهوّنوا عليهم التسليم، وقيّض الله لهم مقريًّا وبغداديًّا وخونة آخرين، كما قيّض للفرنسيين الآن في المغرب فزّينوا لأهل غرناطة تسليم بلدتهم والثقة بالمعاهدة التي يعرضها عليهم ملوك إسبانية، وأزلقوهم كبًّا على وجوههم بدارهم معدودات قبضوها ومنافع خسيسة باعوا من أجلها دينهم ودنياهم. وما مضى على التسليم إلاَّ زمن قصير حتَّى نقض الطاغية تلك العهود عروة عروة، وندم المسلمون على تصديقهم لكلام يوسف بن كماشة وعبد الملك وغيرهما من الذين كانوا يعملون في مراضي فرديناند وإيزابلاّ، كما يعمل شيخ السوء المقري اليوم، ويعمل زميله في بيع أمّته المسمّى بالبغدادي باشا فاس في مراضي فرنسة التي أعلنت عنهم رضاها التامّ وقلّدهم رئيس جمهوريّتها الأوسمة العالية وأولاهم النعم الجسام.

أمَّا الدولة العثمانية والدولة المصرية فأدركتا، ويا للأسف، ولكن بعد خراب البصرة أنَّ التعهّدات التي كان يتعهّد بها فرديناند وإيزابلاّ إنَّما كانت خداعًا ومخاتلة وصرفًا لتلك الدول عن إرسال أساطيلها لنجدة مسلمي الأندلس، ريثما يكون انطوى بساط غرناطة، وندم العثمانيون والمصريون على تفريطهم في أمر الأندلس ولات ساعة مندم.

ومنذ ذلك الوقت أخذ الأسطول العثماني يجتاح سواحل إسبانية ويوقع بأهل تلك الديار ولا سيَّما بعد أن برز خير الدين بربروس واستولى على الجزائر. فطالما أرسل بربروس وخلفاؤه في الجزائر الإمدادات إلى ثوّار المسلمين في جبال البشرات المشرفة على البحر، وبذلك تمكّنوا من تلك المقاومة الشديدة التي استمرّت نحوًا من مائة سنة.

ولمّا اشتدّ الخناق بمسلمي الأندلس من الحرق بالنار واستباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ما تجاوز كلّ حدّ أو يتنصّروا باطنًا ظاهرًا، ذهب منهم وفد خفية يرأسه الشيخ عبد العزيز القرشي، فضربوا في الأرض حتَّى وصلوا إلى بغداد عاصمة يوغوسلافيا الآن وكانت من ممالك السلطنة العثمانية فقابلوا فيها مراد باشا الصدر الأعظم في زمان السلطان با يزيد خان، وحكوا له كلّ ما هو واقع بهم من المظالم ومن القتل والحرق بالنار وغير ذلك من أعمال ديوان التفتيش، وذكروا له أنَّ قسمًا من المسلمين وهم الذين كانوا في شمالي إسبانية ارتحلوا إلى فرنسة تخلّصًا من تلك الفظائع ـ وقد قبلتهم فرنسة على شرط أن يتحوّلوا كاثوليكيين وأمر ملك فرنسا بذلك محفوظ ـ وأنَّ الآخرين يعافون من العذاب في الأندلس ما لا يستطاع وصفه. فأرسل السلطان با يزيد إلى ملك فرنسة يطلب منه إخراج المسلمين الذين في بلاده إلى بلاد الإسلام وحملهم في السفن على نفقة الدولة العثمانية. ففي الحال أخرجهم تلبيةً لطلب السلطان ولم يبقَ منهم إلاَّ النزر الذي اختار التفرنس ـ ولهم أعقاب إلى اليوم يعرفون أصلهم العربي ـ ولمَّا شعر فيليب الثالث ملك إسبانية باكتراث سلطان بني عثمان لهذا الأمر، خشي سطوة الدولة العثمانية، وعقد مجلسًا مؤلَّفًا من أعيان دولته تشاوروا في هذا الخطب، وأجمعوا أخيرًا للسلامة من بطش الدولة العثمانية أن يخرجوا جميع المسلمين الذين ببلادهم بدون استثناء، مع أنهم قبل ذلك كانوا قرّروا تنصيرهم ظاهرًا باطنًا طوعًا وكرهًا. وهكذا أخرجوا آخر مرّة من كان بقي من المسلمين في إسبانية وكانوا ستّمائة ألف نسمة. وقد روى تفصيل هذا الخبر الشيخ محمَّد بن الرفيع الأندلسي المتوفّي سنة ١٠٥٢ للهجرة، وكان هو من جملة الجلاة وذلك في كتابه الأنوار النبوية في آباء خير البريّة.

فالآن ليس للإسلام دول كهذه ترتجف من بطشها الدول الأوربية، حتّى إذا قالت لها أحداهنّ قولاً اضطربت هذه له. والذنب في ذلك على المسلمين أنفسهم في تخاذلهم وتواكلهم وإهمالهم روابط الأخوّة التي هم مأمورون بها شرعًا، وانتظارهم العدل والنصفة

من أعدائهم بحجّة أنه قيل لهم إنَّ هؤلاء الأعداء تمدّنوا وتهذّبوا وصاروا أحرارًا، ولم يبقَ عندهم فرق بين المسلم وغير المسلم!!! فيا للعضيهة ويا للأكذوبة الكبيرة.

فإذا نصر المسلمون الحكومات المستقلّة الباقية لهم وشدّوا أزرها وظاهروها فعند ذلك تعود لها كلمة عالية ويحسب الأوربيون حسابها.

وأمّا إذ لبثوا متخاذلين متواكلين سمّاعين للكذب معتمدين على إنصاف أعدائهم لهم، مصدّقين خرافات بعض المفسدين من أنفسهم بأنَّ أوربة لا تبالي بالدين وأنها أصبحت «لاييك» أو «لاييق»[1] على رأي أنقرة فلينتظروا المصائب وما قصّة إخراج البربر من الإسلام إلاَّ مقدّمة وجيزة لها... لا خاتمة.

وأمّا الاحتجاجات فيجب أن تقدّم إلى جمعيّة الأمم في جنيف وإلى الدول العظام وإلى الحكومة الفرنسوية نفسها وإلى مجلسي النوّاب والشيوخ فيها. ولست أقول إنَّ الدول العظام أو عصبة الأمم ستقيم القيامة في هذا الأمر على فرنسة. كلاّ، هذا لا ينبغي أن ننتظره منهنّ. ولكنّي أقول إنَّ المقصود بنشر هذه الاحتجاجات هو الفضيحة والتشهير بهذا العمل الشنيع ألا وهو المساس بحرّية الأديان.

فالفضيحة لا يتمّ منها إلاَّ قسم يسير بالاقتصارعلى النشر والتجريس في الصحف العربية.

فالواجب لإتمام الفضيحة تكرار الاشتكاء وموالاة الإبراق لجمعيّة الأمم بدون انقطاع، وإلى الدول كلّها وإلى نفس دولة فرنسة ونوّابها وشيوخها.

فإنَّ هذا الخطب لا يزاح إلاَّ بالصراخ المستمرّ الذي يصمّ الآذان حتّى لا تبقى فرنسة قادرة أن تتجاهله ولا غيرها أن يتصامّ عنه.

والسلاح الذي هو أمضى منه هو سلاح المقاطعة في الأخذ والعطاء حتّى لا يبقى معاملة لمسلم مع إفرنسي ما دام الظهير البربري غير ملغى.

إنَّ سلاح المقاطعة التجارية هو اليوم أمضى سيف وأهول قنبرة[2] يخشاها الأوربي الذي يعبد المال من دون الله.

---

(١) لاييق: مدارس غير دينية (علمانيّة).

(٢) المُراد قنبلة.

أفلا ترون الهنود كيف أنهم بمقاطعتهم للبضائع الإنكليزية اقتسروا بريطانيا العظمى على عقد مؤتمر كبير للنظر في نظام جديد للهند؟

هذا ومقاطعتهم لتجارة الإنكليز ناقصة. فكيف لو كانت تامّة؟

ومتى وصلت مقاطعة المسلمين لتجارة الفرنسيين إلى الحدّ الذي يشعر هؤلاء ضرره ويحسّون شواظه رأيتهم ألغوا الظهير البربري، وطردوا القسوس الذين بثّوهم في بلاد البربر، وردّوا المسيو سان على عقبه، وتزلّفوا إلى المسلمين في أكثر من مسألة وشادوا المساجد وحفظوا لها أوقافها، وتركوا تشييد الكنائس من أوقاف المسلمين وتلقّوا إرادة المسلمين بالقبول واحترموا الإسلام وعظّموا، وصلّوا على نبيّه وسلّموا.

أمَّا إذا لم يكن عندنا عمل وقول مقرون بالفعل فلا ينبغي أن ننتظر شيئًا.

فهل أنتم فاعلون؟

جنيف، ٢٨ جمادى الآخر ١٣٤٩هـ/٢٠ ت٢ ١٩٣٠م

شكيب أرسلان



أمضى سلاح يقدر أن يقاتل به المسلمون في هذا العصر*

تأمّل أيّها المسلم المقالة الحكيمة البديعة الفذّة في بابها التي دبّجها يراع حضرة الأستاذ صاحب الفتح تحت عنوان «موقف المسلمين الحاضر» في العدد الأخير من «الفتح» المبين وراجع مطالعتها، واطبع عملك عليها ما استطعت، واتّخذها في حياتك دستورًا وثِقْ بأنك بذلك تنجح وتفلح، وبأنك بذلك تردّ الأجنبي عن بلادك وتخرجه من أرضك، ولا تظنّ هذا القول مبالغة.

اجعل نصب عينك جملة صاحب الفتح هذه «لا تدع القرش الواحد ينتقل من ملكيّة أبناء ملّتك إلى ملكيّة أعدائك مهما كلّفك ذلك من عناء تستطيعه. إخراج القرش من ملكيّة أبناء ملّتك إلى ملكيّة الغربيين له معنى واحد وهو تمكين الغرب من أن يزيد قوّته على حسابنا، وأن يزيد موقفه رسوخًا في أوطاننا عن رضى منّا واختيار».

إنّ حرصك على أن لا تخرج أقلّ شيء - حتّى القرش الواحد - من ملكيّة الإسلام إلى ملكيّة الغربيين إذا كان هذا تامًّا يجتمع منه للإسلام في آخر السنة ألوف. فإذا عمل كلّ مسلم مثل عملك هذا اجتمع للإسلام ملايين ومليارات لا يقدر العقل أن يتصوّرها، وحرم من هذه المليارات ذلك الأوربي الذي يصنع بها البوارج ليقذف بها العساكر على ديارك، والطيّارات ليرمي منها بالديناميت على أطفالك وغير ذلك.

إذا كنت تريد أن تجاهد حقًّا، وإذا كنت تريد الاستقلال عن الأوربي فعلاً، وإذا كنت قد مللت هذه الحياة التي قد صارت كلّها ذلاً فطرق الجهاد كثيرة وهي أمامك، وأيسرها «جهاد القرش» هذا إذا وطّنت نفسك عليه. وهو إذا عمّ أعظمها تأثيرًا وأسمّها سلاحًا.

شكيب أرسلان

---

* الفتح، القاهرة، العدد: ٢٢٧ (١٩٣٠/١١/٢٧)، ص.٢.

الحملة اللاتينية الحاضرة على الإسلام*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

إنَّ بعض الذين يتعاطون السياسة من المسلمين قد يلجأون بعض الأحيان في معالجة الضعف الذي حلّ بهذه الأمّة إلى الاستعانة ببعض الدول الأوربية على بعض، منخدعين بظواهر الاختلافات التي تطرأ فيما بينهنَّ فيحسبون أنهم يتمكّنون من استثمار هذه المنافسات وهذه المنازعات في مصلحة الإسلام وفي تخفيف أوجاعه الحاضرة.

ولا شيء أبعد عن الحقيقة من هذا الأمل. فقد دلّت التجاريب وأثبتت الحوادث أنَّ هؤلاء القوم يختلفون في كلّ شيء إلاَّ في عداوة الإسلام.

فالإسلام عندهم هو العدوّ العامّ قوي أم ضعف ودنا أم بعد وعليهم أن يكونوا أبدًا عليه أبدًا. وإذا كنت تراهم لا يزحفون إليه اليوم صفًّا واحدًا كما زحفوا في القرون الوسطى فلا لكونهم لا يتكاملون عليه جميعًا، بل لكونه لم يعد لهم كفوًا في القوّة التي تضطرّهم أن يقفوا جميعًا صفًّا واحدًا في وجهه.

مع هذا، لأول حادث يحدث ويرون من الإسلام شيئًا من الخطر الراهن تجدهم فزعوا إلى صليبيّتهم الأولى كما جرى في حرب الريف التي تضافرت فيها فرنسة وإسبانية على محمَّد عبد الكريم وتركتا كلّ ما بينها من ذحول وأحقاد؛ وما زالتا توجفان عليه بخيلها ورجلها، وتزحفان بمئات ألوف من العساكر إلى أن اضطرّ إلى الاستسلام. ولو كانت فرنسة وإسبانية لم تنالا من ابن عبد الكريم وطرًا أوكانت مضت سنوات ولم تتمكّنا من ناصيته لكنّا رأينا إنكلترة بنفسها تنزل إلى الميدان وتضمّ جيشها إلى جيوشهما، وكنّا رأينا إيطالية تنجدهم أيضًا بجيش من عندها، وكنّا رأينا دولاً أوربية أخرى نازلة إلى هذا الميدان بلا أدنى حياء ولا رياء، ومن لم يكن مساعدًا منهم بيده كان مساعدًا بقلمه أو بلسانه، أو بالأقلّ بضميره، لأنَّ الأصل في الأمور عندهم هو محاربة الإسلام وإذلاله، وما جاء من الطوارئ

---

* الفتح، العدد: ٢٣٦، السنة الخامسة، القاهرة (١٠ رمضان ١٣٤٩هـ/١٩٣١/١/٢٩م)، ص ص. ١ ـ ٣.

على خلاف هذه القاعدة، فهو عارض لا يعتدّ به وله دائرة محدودة لا يتعدّاها، ويكون مربوطًا بشروط إذا زالت زال ذلك العارض بزوالها.

ومن أغرب ما شهدته بعيني من عداوتهم وتخوّفهم مغبّة ظهوره أنه لمَّا نبذ أنور باشا إلى البولشفيك وقاتلهم في بخارى واستولى مدّة سنة على هاتيك البلاد، وكاد ينهض فيها بالمسلمين كان هوى الإنكليز في هذه المسألة مع البلاشفة وكانوا يؤثرون أن يظهر هؤلاء على أنور، ولا يظهر هو عليهم برغم كلّ ما بين الإنكليز والبلاشفة من العداوة، ممّا ثبت به أنه خطر الإسلام هو عندهم أعظم من خطر البلشفة، وأنهم قد يجدون مذاق فوز البلشفة أقلّ مرارة في أفواههم من فوز الإسلام. وهذه هو المثل الأقصى في العداوة.

والآن تجد الدول اللاتينية الثلاث فرنسة وإيطالية وإسبانية متمالئات على الإسلام يهتضمنه من كلّ ناحية برغم ما بينهنَّ من خلاف.

فرنسة قد عملت عملها في مسألة البربر ولم تزل مصرّة على سياستها البربرية التي تستعدّ لها من زمن طويل، وهي فَرنْسَةُ هذا الشعب وتنصيره. وقد خاطبت الحكومة الإسبانية سرًّا ولم تلبث أن ظهرت نتيجة تكافل هاتين الدولتين في الضغط الذي شرعت به إسبانية في منطقة الريف بعدم الإذن لأحد بالسفر إلى خارج المنطقة الإسبانيولية وبوضع العراقيل في طريق التعليم الديني الإسلامي وبغير ذلك من التدابير والأوامر القهرية التي جاءت فيها إسبانية ملبّية لداعي فرنسة.

قالت فرنسة لإسبانية: أفلو لم نتّحد معًا يدًا واحدة على ابن عبد الكريم أكنّا خلصنا منه نحن الفريقين نحن وإيّاكم؟ كلاّ. إذًا نحن وإيّاكم تحت خطر الطرد من المغرب ما كنّا غير متألّبين يدًا واحدة على هؤلاء القوم.

فلهذا نجد الإسبان برغم عدم ميلهم للفرنسيس يلبّون مطالب هؤلاء في تضييق الخناق على أهل الريف بعد أن كنّا أملنا أنَّ إسبانية تسلك نحوهم طريق التودّد، وأنه يحصل من الوئام بين الفريقين ما يفيد الجميع.

فأبت إسبانية مع الأسف إلاَّ أن تنكأ القروح القديمة، وأن تنكأها بدون فائدة لأنَّ بلاد الريف ليست لتدرّ في يوم من الأيام بالخيرات على إسبانية، وكلّ ما تنفقه إسبانية فيها لا

تستردّ منه «بسيطة» واحدة وعليه يكون إغضاب الإسبانيول لأهل الريف عملاً غير معقول ولا مقبول لا يخرج عن حبّ الانتقام أو عن حبّ مجاراة فرنسة.

وكذلك عمل الجنرال الطلياني في برقة من إجلاء ٨٠ ألف من عرب الجبل الأخضر إلى صحراء سرت وحصرهم ضمن أسلاك شائكة في معطشة مجدبة، يهلكون فيها من قلّة الماء والكلأ، حتّى يبيدهم بهذه الوسيلة ويحلّ محلّهم المستعمرين الطليان ممّا قد نبّهنا إلى فظاعته في مجلّتنا الإفرنسية العبارة «لا ناسيون آراب». وممّا قلنا فيه للطليان إنَّ هذا لن يبيد الأمّة العربية، بل يزيد عليها حنق العالم العربي والعالم الإسلامي، ويضرّها في علاقاتها الاقتصادية والسياسية.

وقد اتّصل بنا مؤخّرًا من سياسي أوربي جرى حديث بينه وبين أحد قوّاد الطليان في إحدى مستعمراتهم أنَّ خطّتهم في طرابلس الغرب هي أيضًا فصل البربر عن العرب، وقتل اللغة العربية، وحمل البربر على التنصّر.

ولم يبقَ شكّ في صدق هذه الروايات التي قد تكاثرت من جهة وأيّدتها الشواهد الفعلية من جهة أخرى. فإذا كانت الجمهوريّة الإفرنسية اللادينية نفسها سائرة على هذه الخطّة، فماذا نقول في الحكم الفاشيستي الكاثوليكي الذي مبدأوه تأييد الكنيسة والكثلكة.

إذًا الدول اللاتينية الثلاث حاملة على الإسلام، كدين بعد أن حملت عليه كدنيا. وطالما أعلنّا وكرَّرنا أنه من لم تكن له دنيا لم يكن له دين، وأنَّ من لم يكن له سلطان فليس له قرآن.

ولقائل أن يقول: جيّد. إلاَّ أننا ينبغي أن نعلم الوسائل التي تمكّننا بها معالجة هذا الداء؟

فأقول له: هل وقفت الآن على حقيقة الداء؟ هل اعتقدت بعد أن رأيت بعينك وسمعت بأذنك أنَّ أوربة لا سيَّما بعد انقراض الدولة العثمانية ماشية على خطّة دينية تنصيرية في بلاد الإسلام تتوخّى بها التدريج؟

هل أيقنت أنَّ الحكومات الإسلامية الباقية على الاستقلال هي مستحقّة لأشدّ المؤاخذة في إهمالها التعليم الإسلامي وتبرّؤها من الدعاية الدينية؟ هل عرفت أنَّ ملاحدة العالم الإسلامي وأولئك «المسلمين الجغرافيين» يكذبون عليك أفظع الكذب ويضلّلونك أشنع التضليل، عندما يقولون لك أنَّ الدول الأوربية قد نبذت الدين المسيحي وأنها لا تقيم له

وزنًا أو أنها قد فصلت الدين عن السياسة، ولذلك قد فازت هذا الفوز العظيم، وأنَّ المسلمين إنَّما تأخّروا وتقهقروا من جرّاء استمساكهم بدينهم وتلاوتهم لقرآنهم.

هل تبيّن لك أنّ هؤلاء الدعاة الكذّابين إنَّما كان مقصدهم هدم الدين الإسلامي من حيث هو فجاءوا المسألة من باب أنَّ فصل الدين عن السياسة إنّما هي طريقة أوربية عصرية لم تعرف أوربة النجاح إلاّ بها.

أفهذا الذي تراه وتسمعه من أعمال الحكومات الأوربية هو فصل الدين عن السياسة أيها القارئ المسلم؟

لا أقول لك أنَّ معالجة هذه الحالة أمر سهل بعد أن أعضل الداء، وقدُم الضلال وتراكم التمويه وعظم المراء، وكان عدوّ الإسلام فيه من الداخل أنكى من عدوّه في الخارج.

ولكنّي أقول لك أنَّ هذه الحالة أيضًا مع شدّتها لا يستحيل تلافيها ولا يعزّ وضع الهناء موضع النُّقْب فيها على شرط أن تعرف حقيقة المرض وأن تدري من أين مصدره، وعند ذلك تتمكّن مع الصبر والثبات والسير إلى الأمام من حفظ دينك ودنياك وعقيدتك وكرامتك ومادّتك ومعناك، وذلك لأنَّ الشرط الأول لتأثير الدواء هو تشخيص الداء، وليس في أمراض الأمم مرض لا يقبل المعالجة.

برلين، ٢٥ شعبان ١٣٤٩هـ/١٥ ك٢ ١٩٣١م

شكيب أرسلان



فظائع الطليان في طرابلس الغرب★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

العالم الإسلامي لاهٍ لا يعلم شيئًا عمّا هو جارٍ في طرابلس من فظائع وحوش الطليان الذين جاءوا بزعمهم يمدّنونها.

نعم سمع الناس أنَّ إيطالية ساقت ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر ووضعتهم في صحراء سرت ونزعت من أيديهم أراضيهم بحجّة أنها تريد استعمارها بواسطة الطليان الذين يحسنون القيام عليها أكثر من العرب.

نعم سمعوا أنَّ الجيش الطلياني احتلّ واحة الكفْرة وأنه قتل عددًا من العرب الذين كانوا يدافعون عن أوطانهم.

ولقدِ تباهت جرائد إيطالية بخبر: أنَّ الجيش الطلياني قبض على مائة امرأة من نساء الزعماء هناك.

وسألنا الطليان في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» عن وجه هذا التباهي بالقبض على النساء؟

وكنّا لمعرفتنا بأخلاق هذا الجنس متوقّعين أن يكونوا أجروا من الفظائع ما يليق بهم. ولكنّنا ما ظننا أن يكونوا وصلوا من هذا الأمر إلى الحدّ الذي وصلوا إليه. فإنَّ تاريخ الإنسانية، بل تاريخ البربرية، بل تاريخ الهمجية لم يسجّل إلى الآن أفظع ولا أدنى ولا أوحش مماّ فعله الطليان هذه المرّة في طرابلس وبرقة.

لقد انجلت الأخبار بصورة لا تقبل أدنى مكابرة ومن الكتابات الواردة من الأشخاص الذين كانوا حاضرين وأتاح لهم تأخّر الأجل أن ينجوا من القتل عمّا يأتي ملخّصًا:

١ـ زحف الإيطاليون على الكفْرة تتقدّمهم الطيّارات فإخذت هذه ترمي قنابرها على البيوت، فقتلت عددًا كبيرًا من النساء والأطفال والعاجزين، ثمَّ لمّا احتلّ الطليان الكفرة

★ الفتح، العدد ٢٤٦، السنة الخامسة، القاهرة(٢١ ذي القعدة ١٣٤٩هـ/٩/٤/١٩٣١م)، ص ص.١ـ ٥.

متغلّبين على العرب المساكين بتفوّق أسلحتهم وبقلّة السلاح بأيدي العرب، أباحوا القتل في الكفرة ثلاثة أيام ارتكبوا في خلالها ما لا يخطر على بال أحد. فإنهم لم يتركوا قتلاً ولا تمثيلاً ولا فحشًا ولا هتكًا إلاّ ارتكبوه وقد قتلوا الشيوخ أفظع القتلات وبقروا بطون النساء. وقد بلغ عدد العائلات التي أصيبت بالتمثيل والتشنيع وهتك الأعراض (٧٠) عائلة هي عائلات الأشراف في الكفْرة، وقد جعلوا زاوية السنّوسي الكبيرة المسمّاة بـ«التاج» خمارة سكروا فيها سكر المجانين، وشربوا نخب إفناء مسلمي طرابلس وبرقة، وداسوا على المصاحف الشريفة وألقوها بين سنابك الخيل، وأشعلوها تحت القدور لطبخ الطعام للجنود. وقد قتل من أهل الكفرة في المعركة ٢٠٠ شهيد (هنيئًا لهم على أنهم ماتوا ولم يشاهدوا ما حلّ بعائلاتهم) وهم يدافعون عن بيوتهم وأعراضهم، ومن زعمائهم الشيخ صالح العابدية، الحاج سليمان أبو مطاري، الشيخ غيث أبو قنديل، الشيخ سليمان الشريف، الشيخ محمَّد أبو يونس، الشيخ أبو شنه، ابن أخيه الشيخ عمر، الشيخ حامد الهامه، الشيخ عبد السلام أبو سريويل، الشيخ محمَّد المشنوق، ابن أخيه علي بن حسين، الشيخ محمَّد العربي، الشيخ محمَّد أبو سجاده، الشيخ أحم الفاندي الجولي، الشيخ خليفة الدلاية.

٢ـ رواية أخرى عن كيفيّة احتلال هؤلاء الوحوش الأنذال للكفرة، ممَّن شهد الواقعة أيضًا بعينه: قبل أن دخل الطليان الكفرة بدأت الطيّارات تقذف بالقنابر على المنازل وبها النساء والأطفال والعجزة فأهلكت خلقًا كثيرًا. ثمَّ لمّا دخلوا أباحوا الواحة ثلاثة أيام إباحة تامّة فسرحوا الخيل والبغال والإبل التي تحمل الجند والذخيرة في البساتين وخرّبوها وأخذوا جميع ما وجدوا من بقر وغنم مؤونة للجنود بدون مقابل، ثمَّ جمعوا كلّ أثاث البيوت وحلى النساء وجرّدوهنّ من كلّ ما وجدوه من رقابهنّ وأيديهنّ وآذانهنّ. وكلّ هذا شيء هيّن في جانب ما هتكوه من أعراض السيّدات، ولم يفرّقوا بين كبيرة وصغيرة. ولمّا جاء بعض الضعفاء من الشيوخ إلى القائد الكبير يترجّونه أن يضع حدًّا لهذه الحالة، أمر بقتلهم بحجّة أنهم خائنون فذبحوهم ذبح الشياه. وقصارى القول إنَّ الطليان عملوا أعمالاً في استيلائهم على الكفرة لا يظنّ أنها عملت في القرون الوسطى ولا في زمن آخر حتّى اليوم.

٣ـ قضيّة الثمانين ألف عربي الذين نزعوا من أيديهم بلاد الجبل الأخضر أجمل بلاد الدنيا وأرسلوهم إلى بادية سرت القاحلة هي أنهم أرادوا استعمار كلّ الجبل الأخضر، ووضع مستعمرين فيه طليان بدون معارض، فرأوا أنه لا بدّ لهم من إقصاء هؤلاء العرب

إلى مسافة تبعد نحو عشرة أيام عن الجبل الأخضر فاختاروا لهم صحراء سرت وحصروهم في منطقة معيّنة ضيّقة يقلّ فيها الماء والكلأ، فأخذت مواشيهم تموت من الجوع والعطش، ثمَّ تسلّم الطليان ما بقي من المواشي وعيّنوا لكلّ واحد من هؤلاء العرب فرنكين كلّ يوم ينبغي أن يعيش بهما مع عائلته بالغة ما بلغت. فأمّا الحلي الذي كان عند النساء فقد نهبه الجند الطلياني كلّه، فحالة الفقر التي أصبح فيها هؤلاء المساكين تذيب الجلاميد، يلتحفون السماء ويفترشون الغبراء. ولمّا ساقوهم من الجبل الأخضر إلى سرت كانت الجنود الطليانية في الطريق تنزل بهم كلّ هوان وتذيقهم كلّ عذاب، ومن أقعده التعب منهم كان الجنود يرمونه بالرصاص ويتركونه يتخبّط بدمه.

٤ـ إنَّ الرجال البالغين من سنّ ١٥ إلى سنّ ٤٠ قد أخذهم الطليان وأدخلوهم في الجيش بصورة إجبارية. أمّا الأولاد الصغار من سنّ ٣ إلى سنّ ١٤ فقد أخذتهم الحكومة الطليانية من والديهم قسرًا وحملتهم إلى إيطالية بحجّة تعليمهم، والحقيقة لأجل تنصيرهم. فإنَّ الكلام على تنصير الطرابلسيين تدريجًا دائر كثيرًا في رومة. ومراد الطليان الفاشيست إفناء العنصر الإسلامي من طرابلس وبرقة. فإذا أصبحت برقة طليانية خالصة وجارتها طرابلس طليانية خالصة وقعت مصر من هذا الجوار في أشدّ الخطر، ولم تنفعها بعد ذلك النعرة الفرعونية... ولا وقاها بعد ذلك سياسة بعض المتفلسفين من أهلها أنَّ مصر ليس لها شغل بالعالم الإسلامي، وأنَّ مصر ليست بلادًا عربية... فإنَّ هذا لا يمنع الطليان من اجتياحها ومن أن يرتكبوا فيها هذه الفظائع التي يرتكبونها الآن في طرابلس بعينها.

ولو تذكّر أهل مصر والعرب والمسلمون أجمع لين الطليان عندما دخلوا طرابلس، وتعهّداتهم للعرب بأنهم إنَّما يريدون ليكونوا وإيّاهم إخوانًا وينقذوهم من ظلم الترك. ثمَّ إعلانهم لطرابلس الاستقلال الداخلي "Autonomie" كما يعلم كلّ أحد، ثمَّ معاهدتهم التي عقدوها مع السيِّد إدريس السنّوسي الذي اعترفوا به أميرًا على برقة ـ وصدّق هو أنهم سيفون بعهدهم معه ـ وما أجروه بعد ذلك من النكث بكلّ ما تعهّدوا به، ومن طردهم إدريس السنّوسي ثمَّ من سفكهم الدماء الغزيرة، إلى أن انتهى الأمر هذه السنة بأن يطردوا عرب الجبل الأخضر جَرْدًا من ديارهم وأن يغتصبوا أراضيهم، وبعد ذلك أولادهم وبناتهم وأن يعمدوا إلى تعميدهم، بحجّة تعليمهم في إيطالية. نعم، لو تذكّر المسلمون ذلك لعلموا جناية المضلّلين من متفلسفتهم الذين لا يزالون يقولون لهم: إنَّ أوربة عندها العدل، وإنَّ

أوربة عندها الحرّية، وإنَّ الدول الأوربية لا تتدخّل في الأمور الدينية، وإنَّ المسلمين قد أسقطوا أنفسهم بكثرة استمساكهم بدينهم، وغير ذلك من الأباطيل التي في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة تأتينا أوربة المتمدّنة بأدلّة متعدّدة على بطلانها. ولعلم المسلمون أنَّ هذا المصير مصير جميعهم إذا فقدوا القوّة الحربية والاستقلال السياسي، وأنَّ أمثولة طرابلس صائرة إليهم جميعًا إن لم يستقلّوا.

ونعود إلى قضيّة هؤلاء الأولاد الذين ـ ذكورًا وإناثًا ـ انتزعهم الطليان من أيدي والديهم، فقد كان هؤلاء هم وأولادهم يبكون ويستغيثون، وكانت ساعات تفتّت الأكباد والأصوات ملأت الفضاء، وما من مغيث. فلقد مثلت إيطالية في هذا القرن العشرين، المسمّى بعصر النور، وما هو إلاَّ عصر الفجور، أفحش وقائع الأندلس التي وقعت في القرن الخامس عشر:

يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حيل بينهما ... كما تفرَّق أرواحٌ وأبدانُ

٥ـ لم يكتفِ وحوش إيطالية بارتكاب هذه الفظائع وبفصل الأولاد عن آبائهم وأمّهاتهم، بل أرغموا البنات البالغات على التزوّج بضبّاطهم وجنودهم وساقوا منهنَّ عددًا إلى مواخير الزنا في المدن، لا احتياجًا منهم للزواني من أمّتهم أكثر من أن تُعَدّ، بل إذلالاً للمسلمين وتشفيًّا وانتقامًا.

٦ـ زجّ الطليان في أعماق السجون مشايخ القبائل وألحقوا بهم من الإهانات ما لا يوصف، وقتلوا الشيخ سعدًا من مشايخ عائلة الفوائد ومعه ١٥ شخصًا شرّ قتله: أركبوهم الطيّارات وأخذوا يرمونهم منها عن علو ٤٠٠ متر بمشهد من أهلهم وذويهم. وكلّما هوى منهم شخص يأخذ الضبّاط والجنود بالتصفيق والضحك والسخرية وينادونهم بأعلى أصواتهم فليأتِ محمَّد ذلك البدوي نبيّكم الذي أغراكم بالجهاد ويخلّصكم من أيدينا.

٧ـ إنَّ الصحافي الدانمركي الرحّالة الشهير (كنود هليمو) الذي أسلم وساح في طرابلس وبرقة شاهد بعينه ما ترتكبه الحكومة الإيطالية من الفظائع، ومن جملة ما حدّث به قال: بينما أنا أسير في تلك الصحاري وجدت نفسي أمام مشهد من أفظع المشاهد: عشرين عربيًّا يرسفون في القيود ويساقون إلى المشانق ولم يكونوا محكومًا عليهم بالإعدام من محكمة أو ديوان عرفي، بل كان ذلك بمجرّد إرادة ضابط لا يشاركه في حكمه

أحد. ومن الغريب أنهم كانوا يسألون كلاً منهم قبل موته: ماذا يريد؟ فأجابهم أحدهم: تسألونني ماذا أريد؟ أريد أن لا أشنق حتّى أعيش وأخدم وطني. ثمَّ شنقوا كلّهم بين سخرية الجنود وقهقهتهم.

٨ـ بثّت إيطاليا ـ مثل فرنسا ـ المبشّرين للتنصير. ولكنّها امتازت عن فرنسة بأنها أخذت أطفال الأهالي جبرًا، وأنَّ فرنسة لم تصل بعد إلى هذا الحدّ، لأنَّ الفاشيست يعتقدون كلّ شيء مباحًا إذا أمكن بالقوّة. وفي فرنسة حزب لا يزال يقيم للحرّية وزنًا. وإنَّما الحزب الكاثوليكي الإفرنسي يرجو تنصير البربر تدريجًا بعد رفع التعليم الإسلامي من بينهم. نعم، إنَّ رفعَ التعليم الإسلامي من بين البربر مخالف لعهود فرنسة للمغرب ومخالف للحرّية. إلاَّ أنَّ فرنسة توكّأت في هذه الدسيسة على خيانة كثيرين من المسلمين، مثل المقري وأمثاله ممَّن أمضوا الظهير المعهود الذي تدرّأت فرنسة من ورائه. أمَّا إيطالية فسارت إلى الموضوع رأسًا بدون أن تمشي الضرّاء مثل فرنسة: اغتصبت الأطفال من أيدي آبائهم وأمّهاتهم وأخذتهم إلى إيطالية لأجل تربيتهم في النصرانية. ثمَّ إنَّها لم تهمل جانب تبشير الأهالي الكبار بالإنجيل وبثّ الدعاة وبناء الكنائس، فقد ابتنت في غريان كنيسة، وفي مصراطة كنيسة، على حين ليس في هاتين البلدتين مسيحي واحد. وهذا قد فعلت فرنسة مثله في بلاد البربر.

إنَّ نيّة إيطالية حمل الطرابلسيين على النصرانية تدريجًا غير خافية. ومن نحو شهرين جمعتني الأقدار برجل من سفراء إحدى الدول المسيحية، فصرّح لي بقوله إنَّه تحدّث مع أحد رجال حكومة إيطالية فقال له هكذا: إنَّنا نأمل كثيرًا تنصير الجنس البربري من أهل طرابلس. وأغرب الأمور أنهم في الوقت نفسه يزعمون أنهم مطلقون الحرّية الدينية لأهالي طرابلس بما لايتمتّع به سكّان مستعمرة من المستعمرات! أفاغتصاب الأطفال رغمًا من أيدي آبائهم وأمّهاتهم وأخذهم إلى إيطالية يقال له حرّية دينية أم دنيويّة؟

وبالاختصار سياسة إيطالية في طرابلس الغرب وبرقة سياسة اصطلام واستئصال لمسلمي هاتيك الديار، حتّى يخلو لها الجوّ وتجعل تلك البلاد طليانية، وموسوليني قد كرّر هذا القول في خطبه مرارًا، ومؤخّرًا بعد احتلال الكفرة صرّح بأنه سيوطّن مليونين إلى ثلاثة ملايين إيطالي في طرابلس وبرقة، وكثيرون من رجال إيطالية السياسيين والصحفيين يعلنون ذلك لا سيَّما في هذه الأيام.

ومن أيام قرأت في الجرائد الأمر الذي أمضاه ملك إيطالية بنزع «أملاك القبائل السنّوسية»، فالقبائل السنّوسية هي جميع قبائل الجبل الأخضر.

ليتبّه القارئ: كانت قد ضبطت إيطالية قبلاً الزوايا السنّوسية وأوقافها. أمّا الآن فليس المقصود الزوايا والأوقاف، بل المضبوط المغتصَب من أيدي أهله هو جميع أراضي الأهالي المنتسبين إلى الطريقة السنّوسية. وهم جميع أهالي برقة الذين هم جميعًا سنّوسين. وما هذه إلاّ حيلة اتّخذتها إيطالية لابتزاز أملاك الأهالي بأجمعهم وإعطائهم للطليان. وأمّا هؤلاء الأهالي فإنَّها تدريجًا تسعى في إبادتهم حتّى لا يبقى في طرابلس عنصر غير العنصر الطلياني المسيحي الكاثوليكي.

والكلمات التي يلقيها بعض رجال إيطالية بعض الأوقات والجنرال الفلاني والمارشال الفلاني كلّها أكاذيب منمَّقة وأباطيل ملفّقة تخديرًا لأعصاب المسلمين مؤقّتًا إلى أن تكون فعلت سياستها في استئصال الإسلام من برقة وطرابلس فعلها.

ولقد اعترفت الحكومة الإيطالية هذه المدّة بأنها وضعت يدها على ملايين من الهكتارات من أراضي طرابلس وبرقة. فمن أين جاءت بهذه الملايين من الهكتارات؟ فإنَّها لم تشترها ولا هي ادّعت أنها اشترتها. إذًا هي مغصوبة من الأهالي بكلّ ما في كلمة الغصب من معنى.

وبالاختصار أنَّ برقة وطرابلس كانتا رومانيّتين ويجب أن تعودا رومانيّتين كما بدأتا. هذه نيّة الفاستشت لا يجمجمون بها.

وقول بعضهم وهو الماشال بادوليو، وإلى طرابلس، إنَّ إرجاعهما رومانيّتين كما كانتا لا يمنع بقاء العنصر العربي فيهما «يتقدّم ضمن دائرة عاداته وأوضاعه خلافًا لما هو شائع من أننا نقصد استئصالهم بالقوّة» هذا كذاب وخداع وتسكين مؤقّت نظير الكلام الذي كانوا يقولونه لأهل طرابلس وبرقة في أول الحرب الطرابلسية والعهود التي قطعوها للأمير السنّوسي ولو يفوا منها بحرف واحد.

أفبعد أن كذبوا بتعهّداتهم التي هي تحت الخطّ والأمضاء والختم من جانب دولتهم نفسها، يسوغ لنا أن نصدّق كلام قائد منهم في خطبة في سوق تجارة بطرابلس؟

وأمَّا الفظائع والشنائع التي ارتكبوها في هذه المدّة بنوع خاصّ فهي ممّا لم يسبق له مثيل حتَّى في القرون الوسطى.

ونحن نعلم أنه بعد أن تشيع هذه الأخبار ويحتجّ عليها المسلمون سيقابلها الطليان بالتكذيب بحسب عادة الدول الاستعمارية. ولكن هذا التكذيب لا ينفع ولن ينفع. فالوقائع التي سردناها كلّها صحيحة، لا بل هي نبذة ممّا هو جارٍ هناك لا كلّ ما هو جار. ولقد جاءتنا من مصادر شتّى من جملتها اللجنة الطرابلسية البرقاوية في الشام.

فلما حصل عندنا برد اليقين بأنَّ كلّ ما شاع عن فظائع الطليان في تلك البلاد هو صحيح، وأنَّ أولئك الوحوش الذين احتلّوا الكفرة قد اغتصبوا أعراض السيِّدات الشريفات وافتضّوا الأبكار إلى حدّ البنات الصغار، فضلاً عن قتل الرجال وذبح الشيوخ كالأغنام وإهانة المقدّسات الإسلامية ودوس المصاحف بالأقدام إلخ...، لم نجد بدًّا من أن ننبذ إلى هؤلاء القوم على سواء.

فنحن لسنا من «المسلمين الجغرافيين» ولله الحمد، أي أننا لا نستحيي لا بالدين الإسلامي ولا بالعرق العربي ولا بالوطن الشرقي.

وإذا اعتدى معتد على هذه الأصول التي نرجع إليها أو على أحدها، لا سيَّما بالشكل الفظيع المخالف لكلّ شروط الإنسانية الذي أقدمت عليه إيطالية، فإنَّنا نقاوم هذا المعتدي الذميم بكلّ ما نقدر عليه.

ولن تقدر إيطالية أن تحتجّ أنَّ هؤلاء إنَّما هم عصاة وأنها هي لها الحقّ في تأديبهم كرعيّة ثائرة على حكومتها. كلاّ. هذه الأعمال بأسرها تقريبًا غير جائزة في تأديب العصاة ولا سيَّما إذا كان القائم بها جيش دولة تزعم أنها متمدّنة! فيا للفضيحة إذا كان هذا هو التمدّن.

ولنا في تفنيد كونهم عصاة! مقالة ثانية يثبت منها أنَّ السلطان العثماني في معاهدة الصلح مع إيطالية سنة ١٩١٢ لم ينزل عن سيادته على طرابلس وبرقة لإيطالية، وإنَّما نزل عنها للأهالي أنفسهم، وغاية ما فعل أنه نصحهم أن يسعوا بالوئام مع إيطالية. والمعاهدة موجودة. إذًا الأهالي المحاربون هناك ليسوا في القانون الدولي ممّن يدخل تحت حكم «رعية ثائرة».

بقيت النتيجة

فأنا لست بهذه المقالة أستجيش المسلمين على الطليان الساكنين بينهم.

حاشا وكلاّ.

نحن لسنا بأنذال مثل غيرنا حتَّى نظهر قوّتنا وبطئنا بمن نعلم أنه أضعف منّا. ولا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا عن أخلاقهم في هذا الموضوع ولكنّي أقترح الأمور الآتية:

١ـ أن تحتجّ جمعية الشبّان المسلمين في كلّ محلّ على فظائع إيطالية في طرابلس وبرقة بأقوى لهجة ممكنة، ببرقيّات إلى جمعيّة الأمم تنشرها الجرائد.

٢ـ جميع المدن والقصبات الإسلامية التي تجول في عروق أهلها دماء الحمية ينبغي أن تبرق البرقيّات نفسها إلى جمعيّة الأمم وأنَ تنشر برقيّاتها في الجرائد.

٣- جمعيّة الرابطة الشرقية بمصر لا عذر لها بعدم الاحتجاج إلى جمعيّة الأمم بالطريقة نفسها.

٤- جميع الجمعيّات الإسلامية العربية والشرقية في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب والهند والجاوى وغيرها يجب أن تقوم بالواجب نفسه.

٥- عقد اجتماعات في المدن الإسلامية تتلى فيها الخطب بتشريح هذه الفظائع ويحصل الهتاف بسقوط الظالمين.

٦- مقاطعة المسلمين للبضائع الطليانية والبواخر الطليانية وكل شيء اسمه طلياني وقطع كلّ علاقة مع هذه الأمّة. وتأليف لجان خاصّة في كلّ بلدة لمقاطعة الطليان بصورة باتّة.

٧- طبع النشرات الحاوية أخبار هذه الفظائع الطليانية الجارية بحقّ مسلمي طرابلس وبرقة، وترجمتها بالإنكليزية والألمانية والإفرنسية والإيطالية، وتوزيع ألوف منها في أوربة وجميع العالم. وتعليق كلّ مسلم نشرة في بيته على الحائط حتّى يتذكّرها دائمًا ولا ينساها لأنَّ المسلمين ينسون سريعًا.

أيّها المسلمون لا تقولوا: هذا حصل في طرابلس فربّما لا يحصل في غيرها. إنَّ أهالي طرابلس هم من أشرف المسلمين، وقد أصيبوا بهذه المعرّات والمضرّات في أعراضهم ودمائهم وأملاكهم، في دينهم الذي هو دينكم، وإنَّ هذا البثق لمفض إليكم أينما كنتم إن لم تدافعوا عن أنفسكم ولم تظهروا أنكم أحياء ترزقون.

أيّها المسلمون: لا تقدرون في حالتكم الحاضرة أن تذودوا عن حوضكم بسلاحكم. فذودوا على الأقلّ بأقلامكم وبإرادتكم وبثباتكم بمقاطعة هذه الأمّة التي أهانتكم في أقدس شيء لديكم وأعزّ قوم عليكم.

لوزان، ١٢ذي القعدة ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٣/٣١م — شكيب أرسلان



فظائع إيطالية في طرابلس الغرب*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

سبق لنا مقالة في فظائع الطليان بحقّ إخواننا مسلمي طرابلس الغرب، ولم تكن هذه المقالة تستوفي جميع ما فعلته إيطالية هناك من ضروب الظلم والإرهاق وفنون العسف والاستبداد، ولن يفي بذلك مقالة ولا مقالات ولا كتاب مجلّد ولا مجلّدات، لأنه شيء كثير متّصل مستمر منذ ٢٠ عامًا على نسق واحد لا يتوقّف إلاّ بالقوّة فقط. وإنَّما أراد أن نضيف إلى ما في مقالتنا السابقة حوادث أخرى تزيد القرّاء تصوّرًا بالحالة التي عليها مسلمو طرابلس الغرب.

جاءنا من الجمعيّة الطرابلسية البرقاوية في تقرير طويل ما يلي ملخّصًا:

١- إنَّ الحكومة الإيطالية نزعت من أيدي الأهالي في هذه السنة مائتي ألف هكتار من الأرض غصبًا بدون مقابل أعطت منها مائة ألف هكتار للمستعمرين الطليان. وهي تنتظر مستعمرين آخرين لتسليمهم الباقي. ولقد أرسلت إلى الطليان المهاجرين إلى الأرجنتين بأن يبيعوا أراضيهم هناك ويأتوا إلى طرابلس حيث يأخذون أراضي مجّانًا. ومقصد موسوليني تحويل طرابلس إلى بلاد إيطالية محضة بكلّ معانيها (ولقد صرّح بذلك في خطبه الأخيرة في رومة) وقد بدأ الطليان الذين في الأرجنتين يحضرون إلى طرابلس.

٢- سنة ١٩٢٤ انتزعت الحكومة الإيطالية من أيدي الأهالي ٤٢٠ ألف هكتار من الأرض بدون مقابل. وفي بعض الأحيان كان تعويضها على الأهالي بأن تدفع على المائة هكتار - أي مليون متر مربّع - في أحسن البقاع ستّة آلاف فرنك طلياني أي ١٢٠٠ فرنك ذهب. وكان الطليان عدا ذلك يغصبون كلّ ما يجدون أمامهم من المواشي والأموال ولا يسمعون لأحد شكوى أصلاً.

٣- أمّا من جهة سفك الدماء ظلمًا وعدوانًا فشيء يفوق تصوّر البشر: كان الرحّالة الدانمركي الشهير "كنود هلمبو" الذي دان بالإسلام قد ذهب إلى طرابلس فحدّث في أحد

* الفتح، العدد: ٢٤٩، السنة الخامسة، القاهرة(١٩ ذي الحجّة ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٥/٧م)، ص ص.١ـ ٤.

أخباره التي نشرها قال: بينما أنا أسير في إحدى البوادي إذ وجدت نفسي أمام مشهد من أفظع المشاهد: عشرون عربيًّا يرسفون في القيود ويقادون إلى الموت حيث نصبت أعواد المشانق. وهناك شنقوهم بين سخرية الجنود الطليان واستغاثة الأهالي الذين كانوا يقولون: ويلٌ للظالمين! وما أدهشني إلاّ ما عرفته أنَّ شنق هؤلاء العرب لم يكن بحكم محكمة ولا ديوان حرب، بل مجرّد إرادة ضابط.

٤- مضى على احتلال إيطالية طرابلس وبرقة عشرون سنة وأعمدة المشانق لا تزال منصوبة في كثير من البلدان، وقد قتل إلى الآن شنقًا ورميًا بالرصاص أكثر من ٢٠ ألف شخص كلّهم قتلوا صبرًا لا في حرب ولا في معركة.

٥- سنة ١٩٢٣ عندما احتلّت إيطالية الجفارة ومسلاتة وظليتن ومصراطة قبضت على نحو ألف شخص من الأهالي الخاضعين العُزل من السلاح بدون أدنى سبب سوى الانتقام من المسلمين، وقتلت هؤلاء الألف شخص رميًا بالرصاص بعد أن جمعت نساءهم وأطفالهم ليشاهدوا كيفيّة قتلهم، فكان يومًا يذيب الجماد من شدّة ما ارتفع فيه من البكاء والعويل. وأغرب من هذا أنَّ الحكومة الإيطالية شنقت عشر نسوة من أهالي الجفارة، وقبل شنقهنَّ جرّدتهنَّ من ثيابهنَّ وبقين معلّقات عاريات ممَّا يستر العورة عدّة أيام. فهذه هي عدالة إيطالية، وهذه هي أيضًا آدابها، وهذه هي مدنيّتها!

٦- كثيرًا ما تعلن الحكومة العفو عن الأهالي والأمان فيصدّق الناس إعلانها ويحضرون أملاً بأنَّ دولة كبيرة لا تعلن شيئًا وتكذب فيه، فإذا بها بعد استسلام هؤلاء تقبض عليهم غدرًا وتفتك بهم. وهكذا قتلت من رؤساء القبائل خليفة بن عسكر، والشيخ عبيده الصرماني، وأحمد الباشا، وابراهيم بن عباد، والهادي كعبار وابنه محمَّد كعبار، والشيخ أحمد الحجاوي، والشيخ علي الشويخ، والشيخ عبد السلام بن عامر، والشيخ التريكى، والشيخ شرف الدين العمامي، والشيخ أحمد بن حسن بن المنتصر، والشيخ محمّد العوراني، والشيخ محمّد عبد العال، وغيرهم من الشيوخ الكبار والزعماء أعدمتهم إيطالية الحياة وصادرت أملاكهم وأموالهم بعد أن أبلغتهم العفو بصورة رسمية وأمنوا بكلمتها.

٧- سنة ١٩٢٣ قبضت الحكومة الإيطالية على الشيخ صالح العوامي من أجلّ علماء الدين الإسلامي وأتقى الأتقياء وهو في التسعين من عمره وزجّته في السجن ببنغازي، وهناك

أخذوا يضربونه بالعصي حتّى مات، ودفنت جثّته بمحلّ مجهول. وقد فعلت مثل ذلك بكثير من رجال الدين.

٨- يوجد في هذه الساعة في أعماق السجون بطرابلس وبرقة وإيطالية نحو أربعة آلاف مسلم طرابلسي وبعضهم لا يعلم ما ذنبه. ومن هؤلاء جماعة من المفكّرين والنبهاء والأدباء مثل عبد السلام البصيري الذي ذنبه أنه انتدب ترجمانًا للوفد الطرابلسي الذي ذهب إلى رومة لطلب الإنصاف سنة ١٩٢٢، ومنهم عبد الله الشريف؛ ومنهم عثمان بن غرسه، ومنهم عبد الرحمن زبيده، ومنهم محمّد الشيباني السعداوي، وغيرهم.

٩- أمَّا إهانة إيطالية للدين الإسلامي عمدًا وعلنًا - ولا يخجلون أن يدّعوا في جرائدهم احترامهم للإسلام - فلا تقلّ عن غصبهم للأملاك وسفكهم للدماء، فقد أصدروا الأوامر مرارًا بإجبار الخطباء في الجوامع على الدعاء لملك إيطالية حتّى عدل الناس عن شهود الجمع بهذا السبب. هذا مبلغ الحرّية الدينية التي أمتعوا بها أهالي طرابلس!

١٠- كثيرًا ما دخل ضبّاطهم وجنودهم الجوامع في أثناء صلاة الناس جماعات وسخروا بالدين الإسلامي ورفسوا الكتب بأرجلهم واضطرّوا الناس لترك الصلاة. وإنَّ قومندان موقع طبرق هو نفسه داس القرآن الشريف برجله أمام جمهور من العرب وقال لهم: إنَّكم معاشر المسلمين لا تصيرون بشرًا ما دام هذا الكتاب بين أيديكم...

وقد هدموا قبّة القائد الكبير والصحابي الجليل رويفع الأنصاري في الجبل الأخضر وربطوا بمقامه الدواب. ثمَّ إنَّهم بثّوا المبشّرين والقسوس بين الأهالي. وشرعوا ببناء الكنائس في الأماكن التي ليس فيها مسيحي واحد ومن جملتها غريان ومصراطة.

١١- أمَّا استباحة الأعراض فهذه تفوق كلّ شيء، ولا ينتظر غير هذا من أناس لا يقيمون لهذا الأمر وزنًا كبيرًا. فقد أخذوا عائلات كثيرين ممّن قتلوهم، وكما قتلوا الرجال ظلمًا أخذوا البنات والنساء غصبًا وأجبروهنَّ على ترك دينهنَّ وأدمجوهنَّ في العنصر الإيطالي. هذا عدا البنات الأبكار من المخدّرات سلائل العائلات الشريفة اللائي افترسوهنّ غصبًا واللائي لا نريد ذكر أسماء عائلاتهنّ حتّى لا تتجدّد آلام تلك العائلات. وهذه المرّة بعد أن فعلوا كلّ أفعالهم عند احتلال الكفْرة وأنزلوا المعرّات بنحو سبعين عائلة من أشراف أسر المسلمين أجبروا بعض بناتهم على التزوّج بالضبّاط تحت التهديد بالقتل.

هذا قليل من كثير ممّا فعله ويفعله الطليان في طرابلس وسيفعلون أضعافه في مسلمي ذلك القطر البائس التاعس إذا بقي العالم الإسلامي كالمشلول لا يبدي حراكًا أمام هذه الفظائع والفجائع بأجمعها.

ولسنا نعيد ذكرى فظائعهم الماضية لأول الاحتلال و(واقعة المنشية) التي ذبحوا فيها سبعة آلاف مسلم مع نسائهم وأطفالهم ذبح الشياه انتقامًا لعسكرهم الذي كسره ذلك اليوم مجاهدو العرب ولا ذكر الخمسمائة عربي الذين قتلوه صبرًا في (قصر سرت) انتقامًا لكسرة جيشهم في (وقعة القرضابية). ولا الأعمال الوحشية الأولى التي طال عليها العهد وهي شيء لا يكاد يحصى ولا يحصر وإنَّما نذكر ما هم فيه الآن وما نراه يزداد يومًا عن يوم.

وهذه كلّها أفعال كان يجري مثلها أو ما يشابهها في القرون الوسطى، أمَّا في هذا العصر فلم نعهد أنَّ أحدًا أقدم على ما يماثلها ولاأعرق الأقوام في الهمجيّة.

ومن الغريب أنَّ إيطالية تضع نفسها في مقدّمة الأمم الراقية اليوم، حتّى أنها لا ترضى بالأوّلية لأحد.

ومن الغريب أنها طامحة لاسترداد كلّ ما كان في حوزة رومة العظمى!

ومن الغريب أنها تزعم نشر ثقافتها في الشرق وتكثر علاقاتها التجارية والأدبية مع العرب. وتارةً تعقد معاهدة مع الإمام يحيى وتحاول التدخّل في اليمن، وطورًا تكثر من العلاقة مع الأمير عبد الله بشرقي الأردن، وأحيانًا تعلّق آمالها بسورية وتجتهد بإقناع السوريين أنها إن تحوّل لها الانتداب على سورية تكون خيرًا لهم من فرنسة. ولا يزال في ذهنها أنها لا بدّ أن تأخذ تونس من يد فرنسة!

أفبمثل هذه الفظائع التي تقشعرّ لها الجلود ويذوب لها الجلمود ويعدّها كلّ مسلم على وجه الأرض إهانة له، لا لمسلم طرابلس وحده في عرضه ودينه وملكه وشرفه تطمح إيطالية إلى نشر آدابها وبضائعها وزيادة علائقها في العالم العربي والعالم الإسلامي وتزاحم في ذلك سائر الدول المستعمرة؟!

ولعلّ الطليان يكذّبون هذه الأخبار ويلوذون بالإنكار بحسب عادتهم. ولكن هذه الإنكارات أصبحت لا تفيد شيئًا لأنَّ التواتر أيدها، ولأنَّ قسمًا منها مثل الاستيلاء على مئات ألوف من الهكتارات قد ثبت رسميًا ونشرته جرائد إيطالية. كما أنَّ إجلاء الثمانين ألف عربي عن الجبل الأخضر وحصرهم في فلاة سرت هذا قد اعترفت به الجرائد الإيطالية.

وكذلك القبض على عقائل أشراف الكفرة قد ذكرته الجرائد الإيطالية.

ومن المعلوم أنَّ النساء لسن محاربات حتّى يقبض عليهنّ العدوّ كأسرى، فظاهر أنَّ مراد الجرائد الإيطالية ومراد قلم التبليغات العسكرية أن تفهم الجمهور أنَّ ضبّاط الجيش الطلياني قتلوا زعماء الكفرة واستباحوا نساءهم وبناتهم.

هذا لا يقبل الجدال وليس فيه إشكال.

وطرابلس الغرب ليست في الفلك بل هي في الأرض، وتونس جارتها من المغرب ومصر جارتها من الشرق، وفي طرابلس غرباء وأجانب فكلّ ما يجري هناك معروف.

وربّما قالوا: إنَّ هذه هي حالة حرب وإنَّ الحرب يحصل فيها كثير من هذه الأمور ولن تخلو حرب من فظائع.

والجواب: كلاّ. إنَّ للحروب حقوقًا وحدودًا معيّنة في كتب حقوق الدول وحقوق الأمم، وكلّ ما أوردناه من الفظائع غير جائز في القوانين الدولية. ولا سمعنا بفظائع حربية بلغت هذا الحدّ.

ومن حيث أنَّ السنيور موسوليني يزعم أنَّ طرابلس وبرقة صارتا طليانيّتين تمامًا، فنحن نقول لحضرته:

إنّه بحسب القانون الداخلي الطلياني: العرض مصون وحرّية الأديان مصونة والملك الشخصي مصون. والاستملاك أيضًا له شروط ليس بابه مفتوحًا على مصراعيه.

وبحسب القانون الداخلي الطلياني الأولاد إلى سنّ الواحدة والعشرين يبقون قاصرين تحت وصاية والديهم (المادّة ٢٤٠)، والوالد يمثّل أولاده في جميع الحقوق المدنيّة (مادّة ٢٢٤)، وعليه لا تقدر الحكومة أن تأخذ أولاد الطرابلسيين والبرقيين من حجور والديهم وترسلهم إلى إيطالية برغم أهلهم حتّى تخرجهم من صبغة الإسلام.

هذا مخالف لقانون إيطالية نفسه فضلاً عن مخالفته للشرع الإسلامي وعن مخالفته للحقوق الدولية العامّة ولحقوق الأمم.

ثمّ إنَّ تركيا لمّا تصالحت مع إيطالية سنة ١٩١٢ لم تترك سيادتها لإيطالية، بل تركت أهالي طرابلس وبرقة أحرارًا يختارون ما يشاءون؛ وهذه المعاهدة مشهورة.

ثمَّ إنَّه على فرض أنهم صاروا رعيّة لإيطالية فليس لأيّة دولة متغلّبة على بلاد أن تعد أعراض أهلها وأملاكهم ملكًا لها تتصرّف به كيف شاءت كما أنه ليس لها أن تعترضهم في عقائدهم وإقامة شعائرهم الدينية.

وإن فعلت كان حقًّا على جميع الإنسانية أن تعترض عليها وأن تعارضها.

وزد على كلّ هذا أنَّ إيطالية موقّعة على معاهدة فرساي سنة ١٩١٩، وهذه المعاهدة مفتتحة بالتوصية الشديدة برعاية الحقوق البشرية العامّة التي ينبغي أن تتقيّد بها جميع الحكومات العالمية.

وفي الفقرة الثالثة عشرة من مقدّمة معاهدة ڤرساي مذكورة نصًّا قضيّة حماية الأطفال والمراهقين والنساء.

وقد أطبق علماء الحقوق في أوربة على أنَّ سلطان الدولة لا يمكن أن يجري فيما يخالف الحقّ العامّ المقدّس، وإنَّ شخصًا لا يقدر أن يملك شخصًا.

فكيف التفتنا وجدنا إيطالية الفاشيستية قد نبذت ظهريًّا هذه الحقوق العامّة المقدّسة، وتصرّفت بإزاء مسلمي طرابلس الغرب تصرُّف دولة غير مقيّدة بشيء، كأنه ليس لهؤلاء المسلمين وجود في الدنيا.

ولعلّ الفاشيستيين يظنّون أنَّ هذه الأعمال توقع الرعب في قلوب الأهالي فلا يعودون إلى الثورة. وهذا خطأ محض، فإنَّ الظلم والعدوان هما من أكبر عوامل الثورة، وإن عاقبتهما وخيمة على أصحابهما إن لم يكن عاجلاً فآجلاً. وما استصلح عدو يمثّل العدل. وبرغم هذه النصائح لا أرى الفاشيستيين راجعين عن خطّتهم هذه، لأني عارف جيّدًا بمبادئهم وبعقليّتهم كلّها. ولا أرى علاجًا لهذه الحالة سوى تشكيل لجان في كلّ قطر من الأقطار الإسلامية للاحتجاج على إيطالية بشدّة ولمقاطعة كلّ شخص طلياني وكلّ شيء طلياني، إلى أن تسير إيطالية في طرابلس بحسب القواعد الإنسانية العامّة.

وبالنهاية أقول: كلّ يوم يظهر لنا من بعد ١٣٥٠ سنة صدق القرآن الكريم ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذِمّة﴾.

لوزان، ٢٥ ذي القعدة ١٣٤٩هـ/٣١/٤/١٩٣١م

شكيب أرسلان

الإسلام في ماداغسكر*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قرأت في «الفتح» عن همم العلاّمة الواعظ الرحّالة المخلص مولانا محمّد عبد العليم الصديقي الهندي ـ أكثر الله من أمثاله ـ وكيف أنه يجوب الأقطار ويرشد المسلمين وينشر الدين، وأنه اهتدى على يده أناس كثيرون، وأنه لمّا ذهب إلى جزيرة ماداغسكر وجد أنّ أكثر أهالي تلك الجزيرة لا دين لهم، غير أنهم يقومون ببعض المراسم التي تدلّ على أنهم كانوا مسلمين مثل الختان وغيره. فحمدت الله على أن وجد في المسلمين رجل واحد يجوب الأقطار النائية ويهتمّ بأمر الإسلام وتثبيت أبنائه فيه والسؤال عمّا كان من إسلام قد ذهب بالجهل وبالتخاذل ومن مؤمنين وقعوا تحت سلطة المستعمرين وفي أحابيل المبشّرين.

غير أني وجدت لازمًا تذكير المسلمين بأنَّ جزيرة مادغسكر كان فيها مسلمون كثيرون، وأنه برغم الجهل والإهمال وضياع الدين، وقعود المسلمين عن تعاهد بعضهم بعضًا، وتكالب الاستعمار، وأخذه على المسلمين أفواه الطرق، وبثّه المبشّرين فيما بينهم، لا يزال في ماداغسكر مسلمون إلى الآن منهم من الأهالي الأصليين ومنهم من الغرباء والطرّاء. ولقد عقدنا في الجزء الأول من حاضر العالم الإسلامي فصلاً خاصًّا عن الإسلام في ماداغسكر وجزائر القومور أخذ ستًّا وعشرين صفحة بالحرف الرفيع، فلا يمكننا أن ننقله إلى «الفتح» لعدم اتّساع المحلّ الفصل كهذا لو نشرناه تباعًا في «الفتح» لاقتضى تقسيمه على عشرين عددًا بالأقلّ. وقد كان اعتمادنا في كثير ممَّا نقلناه على كتاب عن الإسلام في ماداغسكر للمسيو غابرييل فرّان الإفرنسي الذي كان بمعيّة الوزير المقيم من قبل فرنسا في ماداغسكر والذي هو من أعضاء الجمعيّة الأسيوية في باريز. وقد قال فرّان في مقدّمة كتابه ما يلي: إنَّ تأليفنا هذا ثلاثة أقسام، أولها يتكلّم عن مسلمي ماداغسكر وجزائر القومور، والثاني عن القبائل الإسلامية الساكنة في الساحل الشمالي الغربي من ماداغسكر وفي الجزر الأربع نجزيجا وموحلى وأنجدان ومايوط الصغيرة، والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها بأصلها من السواحلي

---

* الفتح، العدد: ٢٦١، السنة السادسة، القاهرة (١٥ ربيع الأول ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٧/٣١م)، ص ص. ١ ـ ٣.

أو العربي ونضمّ إلى ذلك متن لغة من كلام ماداغسكر الخاصّ بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلي أو عربي.

ثمَّ إنَّه ذكر أنَّ الذين دخلوا ماداغسكر من الطرّاء - سواء كانوا ممّن جاءوها جُرْد العصا مثل أمّة الهوفا، أو ممّن قدموا إليها زرافات ووحدانا مثل العرب - قد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم. وأمّا العرب فلم يظهر تأثيرهم إلاّ في قبيلة الأنتامورونا التي أسلمت ولكن إسلامًا ضعيفًا، وأناس منها رجعوا إلى كثير من عقائدهم الأصليّة التي لا تزال بعض القبائل متمسّكة بها وقد يجد الإنسان آثارها حتّى بين المتنصرين.

وقال المسيو فِرّان: إنَّ قبيلة الأنتامورونا المسلمة تسكن في الساحل الجنوبي الشرقي من ماداغسكر، وإنَّ عاصمة هذه القبيلة هي مدينة ماتينانا على ضفّة النهر المسمّى بأسمها، وإنّه يوجد فروع كثيرة من الأنتامورونا مستقلّة بعضها عن بعض لكنّها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الآناكارا. فالآناكارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدّم على الجميع ولا يتزوّج بعضهم إلاَّ من بعض فكأنهم قريش الأنتامورونا، ومنهم ملوك القبيلة كلّها. وهم أمناء الديانة وفي أيديهم إدارة الجوامع التي يفرضون لأجلها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملّتهم. ويزعم الأنتامورورنا أنَّ أصلهم من مكّة ويحفظون كتبًا خطّية عربية متناهية في القدم وألوانهم نحاسية وأبصارهم حادّة وشعورهم جعدة، وهم أشدّ الماداغسكريين اعتقادًا بالخرافات لكنّهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر الماداغسكريين إلى تعليم أولادهم كما قرَّر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتاتيب عندهم. والقانون الذي هم ملتزموه هو أنَّ كلّ إنسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب بالعربي ليكون أهلاً لتقلّد منصب وليصحّ له الزواج. وإلى الزمن الذي أدخل فيه مبشّرو الإنجليز استعمال الحروف اللاتينية في تاناناربف عاصمة ماداغسكر كانت جميع الكتابات الرسمية في قصور ملوك الهوفا تكتب بالأحرف العربية وكان أمناء السرّ من قبيلة الأنتامورونا المسلمة.

ويقول الأب لافِسْيير: إنَّ الأنتامورونا أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب يبالغون في مراعاتها وهم يتزوّجون بأكثر من واحدة، وتسمّى المرأة الأولى "فاديب" ومعناه الزوجة الكبرى.

وقال المسيو فرّان: إنَّ الأنتامورونا رجالاً ونساءً لا يختلفون في أزيائهم عن سائر أهالي ماداغسكر، وبالرغم من دعواهم شدّة التمسّك بالإسلام تراهم يشربون المسكرات

ويصنعون هم بأنفسهم المسكر المسمّى بالروم من عصير قصب السكّر مع إضافة قشر شجر يسمّى أنبولوا يعجّل التخمير.

قال وكان الأنتامورونا قبل أن دانوا بالإسلام في أدنى درجات الجهل. قال وليس في ماداغسكر تواريخ ـ عن أصل أهالي تلك الجزيرة ـ تتجاوز القرن السادس عشر فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدًّا إلاَّ ما كان عند الأنتامورونا بسبب وجود الكتابة العربية عندهم.

وذكر المسيو فرّان أشياء مثيرة عنهم تدلّ على أنهم يخلطون الإسلام بالوثنيّة، قال: وهم مثل العرب يستعملون غالبًا جملاً عربية هي دائمًا على شفاه المسلمين مثل "إن شاء الله" و"بسم الله"، ويبدأون كتاباتهم كلّها بجملة "الحمد لله وحده". ويكتبون "بسم الله الرحمن الرحيم" "لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله" ولا يبدأون بعمل إلاّ بعد تلاوة هذه الجملة. وهم يحافظون على الصلوات ويمتنعون من أكل الحيوانات النجسة ويختنون أطفالهم. ومن العادات الإسلامية عند الآناكارا الذين فيهم بيت الملك أنهم يتلون أمام كلّ عمل دعاء يناسبه، مثلاً إذا أرادوا ذبح حيوان قالوا: "اللّهمّ اجعل لحمه صالحًا اللّهمّ اجعل أجسادنا تنعم به" وما أشبه ذلك. وإذا مات الإنسان منهم جعلوا على جبينه وبطنه وعنقه أوراقًا كتبوا عليها أدعية. وقال أحدهم: هذه عادة قديمة جدًّا عندنا جاءتنا من مكّة والمدينة. ويقولون للمدينة أحيانًا "مدينازي" وأحيانًا "مديناتي" ويقولون لمكّة والمدينة المدينتين. ويزعم الآناكارا أنهم من ذرّية علي رضي الله عنه. ومن شاء أن يطّلع على ما يشفي في هذا الموضوع فليراجع حواشينا في "حاضر العالم الإسلامي" ـ كما تقدّم الكلام عليه ـ ولا سبيل لإعادته الآن.

وهناك مسائل كثيرة ينبغي للمسلمين أن يطّلعوا عليها، ولكن المسلمين مع الأسف في سبات عميق يريدون أن يبلغوا مبالغ الأمم وهم يتظلّمون ويشتكون استبداد الإفرنج بهم وينادون أين النصرة التي وعدنا الله إيّاها على رسله وصرّح بها في قرآنه؟ ولا يعملون هم شيئًا ممّا يعمله الإفرنج ولا جزءًا من ألف ولا جزءًا من مليون ممَّا يعمله أولئك، ثمَّ يعجبون كيف أنَّ الناهض تسلّط على القاعد وكيف أنَّ الباذل ترأّس على الباخل. والعجب كلّ العجب أن تكون الحال عكس ذلك.

لقد نشرت "الفتح" كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) وهو الكتاب الذي ينبغي أن يوجد في جميع بيوت المسلمين شرقًا وغربًا، وأن يقرأ في المدارس والمساجد وأن تحفظه الصغار غيبًا وأن تتدارسه الكبار دائمًا، وقد جاء فيه أشياء كثيرة ممّا ينويه الأوروبيون بحقّ

المسلمين ومن مجهوداتهم لإخراج المسلمين عن الإسلام، وأهمّ جميع تلك الحقائق هو عظمة الأرقام الورادة في ذلك الكتاب عن مقدار التبرّعات السنوية التي يتبرّع بها الإفرنج من كلّ أمّة بدون استثناء لأجل تنصير المسلمين، فإنها تبلغ في السنة مئات ملايين من الجنيهات لا من الفرنكات. فليتأمّل المسلمون وليتبصّروا.

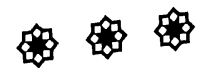
فهل خطر في بال مسلم من هؤلاء الأربعمائة مليون المبثوثين على وجه الأرض ـ غنيًّا كان أو متوسّطًا ـ أن يبذل قرشًا واحدًا في سبيل إرشاد مسلمي ماداغسكر أو مسلمي الفيلبين مثلاً وتثبيتهم في حجر الملّة بعد أن غلب عليهم الجهل بدينهم حتّى عادوا مسلمين بالاَسم فقط، وحتّى أنَّ مسلمي ماداغسكر لا تعرفهم فرنسا مسلمين بصورة رسمية وتحاجّهم وتناقشهم وتقول لهم: إنَّ ما أنتم عليه ليس بالإسلام فلا يمكنني أن أعدّكم مسلمين؟

قد جاءني عدّة كتب من بعض أدباء سوريين في الفيلبين وكلّها تشير إلى ما عليه مسلمو تلك الجزر من الجهل والانحطاط وأنَّ المبشّرين منتشرون فيما بينهم، وقد اصطادوا كثيرين منهم، وقد جاءني من أديب مفكّر مقيم هناك كتاب يقول لي فيه: إنَّ إسلام الفيلبين حاله مؤذنة بالانقراض التامّ، وإنَّه لا يظنّ كونه يعيش أكثر من خمسين سنة بعد، إلاّ إذا تدارك المسلمون هذا الخطب وأرسلوا لهم معلّمين ووعاظًا يمسكون بحجزاتهم عن السقوط ويفتحون لهم مدارس إسلامية، ويأخذون من شبّانهم إلى مصر والشام والهند من يتفقّهون في الدين، ويعودون إلى قومهم فينشرونه فيهم.

فهل حدّث مسلم نفسه بهذا الأمر، وما يجب أن يعلمه لتدارك هذا الخطب؟ كلاّ، بل كلّ أحد ينتظر العالم الإسلامي وينسى أنَّ العالم الإسلامي يبتدئ به. فإذا كان هو قائمًا بواجباته كان العالم الإسلامي قائمًا بواجباته. فأمّا إذا كان أيّ فرد من أفراد المسلمين قاعدًا عن القيام بواجباته منتظرًا أن يقوم غيره بتلك الواجبات فلا يأمل أن يقوم بواجب الإسلام أحد ولا يجوز حينئذٍ أن يقال إنَّ هناك حاجة في الدنيا تسمّى العالم الإسلامي.

لوزان، ٣ ربيع الأول ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٧/١٩م

شكيب أرسلان



المسلمون والهنادك والمشكلة الهندية *

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

سبق لي أن قرأت رسالة في «الفتح» واردة من الهند لحضرة الأستاذ العلاّمة الشيخ محمّد تقيّ الدين الهلالي الذي يعلم ما يقول، كانت فيها أشياء خطيرة حالاً، مؤذنة بشرور مستطيرة استقبالاً، ممّا يتعلّق بالنزاع الواقع بين المسلمين والهنادك أي البراهمة والمجوس. فأردتُ أن أكتب في هذا المقام مقالاً أُبدي فيه وجهة نظري في هذا الشأن ولكن النوازل المتراكمة من كلّ جهة على العالم الإسلامي عاقت عن الخوض حينئذٍ في حديث الهند، فإنّ الإنسان أصبح لا يدري من أيّ جهة يريد أن يتّقي الضربة. ومع هذا فمن حيث أنه سينعقد مؤتمر الهند في لندن، وأنّ الزعيم الأكبر غاندي قد قرّر الشخوص إليه، وستكون لذلك المؤتمر قرارات كبار، وتشيع أنباء وأخبار، فقد رأيت أن أفضي إلى قرّاء «الفتح» بما يعنّ لي في موضوع الهند.

لا جدال في أنّ اتّفاق المسلمين مع الهنود غير المسلمين هو من أجلّ الأماني التي تجول في صدور جميع الشرقيين، وأنه يجب على زعماء الفريقين ومفكّريهم ورجال الحلّ والعقد فيهم أن لا يبقوا في قوس البحث منزعًا وأن يجيلوا جميع قداح النظر حتّى يصلوا إلى الغاية المنشودة التي هي الاتّفاق فيمنا بينهم، ويضعوا بها أساس تحرير بلادهم من سيطرة الأجانب. هذا الأمر محبوب لذاته ومحبوب لنتائجه في سائر البلاد الشرقية التي غلب عليها الإفرنج، لأنّ الاستعمار كما لا يخفى سلسلة إذا انفصمت إحدى حلقاتها انتثرت بأجمعها تدريجًا، فكيف لا يؤثر تحرير الهند في سائر البلاد الرازحة تحت ثقل الاستعمار والهند هي الحلقة الكبرى من تلك السلسلة وهي بعد ذلك سبب البلاء على البلدان التي إنّما سقطت في هذه السيطرة الأجنبية بسبب وجودها على طريق الهند.

إلاّ أنّ تحرير الهند أمامه عقبات في أقصى درجة من الصعوبة: منها ما هو من الخارج، ومنها ما هو من الداخل. فأمّا الذي من الخارج فهو معلوم وهو مقاومة إنجلترا لاستقلال

* الفتح، العدد: ٢٦٧، السنة السادسة، القاهرة (٢٧ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٩/١٣م)، ص ص. ١ ـ ٥.

الهند بجميع الطرق الممكنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية وغيرها. وهذه المقاومة قد تغلّب الهنود على نصفها إن لم نقل على ثلثيها بفضل صبرهم وثباتهم وبتأثير سلاح المقاطعة الرهيف الذي فعل ما لا تفعله السيوف. وأمّا الذي من الداخل-وهو اختلاف سكّان الهند بعضهم مع بعض - فلم نجد أهل الهند توصّلوا فيه إلى حلّ يستريح له البال.

أولا توجد علامات كثيرة على اختلاف النظر بين ملوك الممالك المستقلّة أو شبه المستقلّة في الهند ورجالات الهند الوطنيين الذين تقضي مبادئهم الوطنية بتوحيد إرادة الهند وإزالة امتيازات الأمراء. فهذه مسألة لا نعلم إلى أيّ نقطة وصلوا فيها؟ هل رضي الأمراء باندماجهم في الحكومة الهندية العامّة ونزلوا عن امتيازاتهم واستقلالهم بإماراتهم، أم لا يزالون متمسّكين بها كما كانوا من قبل رافضين للاندماج التامّ؟ أم مالوا إلى قبول الوحدة الهندية مع استبقاء استقلالهم الصوري وقرارهم على الخضوع لمجلس نوّاب عامّ أشبه بنظام ألمانيا أو بالولايات المتّحدة الأميركية. وهو شكل آخر مختلف عن النظام الألماني بأشياء ومشابه له في أشياء. هذه مسائل سنرى قريبًا كيف يقرّ قرارهم عليها ولن تنحلّ في ما بينهم بدون ضوضاء.

ولكن المعضلة الكبرى هي معضلة الأقلّيات وأهمّ هذه الأقلّيات هي ثلاث: الأقلّية الإسلامية، وأقلّية السيك، وأقلّية الهنود التابعين للبراهمة والمنحطّون عن طبقة البراهمة. فهذه الأقلّيات تريد من الأكثريّة تأمينًا على مستقبلها يضمن لها حقوقها وعدم استبداد الأكثريّة بها. فالسيك هم بضعة ملايين لكنّهم أشدّاء ذوو شمم وإباء وقوّة شكيمة فلا يخضعون بالسهولة. وطبقة الباريا التابعة للبراهمة يقال إنّها نحوٌ من أربعين مليون نسمة، وقد أصبحت اليوم تأبى أن يعاملها البراهمة ساداتها الأوّلون كما كانوا يعاملونها من قبل، فهي تريد أيضًا تأمينًا.

وأمّا الأقلّية الكبرى فهي المسلمون. ومنذ اثنتي عشرة سنة كان المسلمون بالإحصاء الرسمي ثلاثة وسبعين مليونًا فلا شكّ أنهم الآن يزيدون على خمسة وسبعين مليونًا، وقيل إنّهم يبلغون الثمانين. وكيف كانت الحال فهم الربع أو يزيدون قليلاً على الربع بالنسبة إلى مجموع السكان. ونظرًا لأنّ الحكم كان قبل دخول الإنكليز إلى الهند في يد الإسلام، وكانت السلطنة الكبرى في دلهي سلطنة إسلامية كما لا يخفى، فالمسلمون في الهند لهم مكانة سياسية واجتماعية عظيمة بنفسها وبماضي الإسلام في الهند وبمجاورة الهند لكثير من

أقطار العالم الإسلامي. فجزيرة العرب والصومال وزنجبار من جهة الغرب، وفارس وأفغانستان من جهة الشمال، والبلاد الأندونيسية من جهة الشرق. هذا زائدًا إلى أنَّ في مملكة صيام وفي جميع بلاد الصين أقلّيات مهمّة من المسلمين.

فالمسلمون يخشون إذا استقلّت الهند تمام الاستقلال أن يستبدّ به الهنادك استبدادًا قد ينسيهم استبداد الإنكليز. ويخشون أيضًا أنَّ الهنادك يتعرّضون في المستقبل إذا صار الأمر إلى يدهم للدين الإسلامي ويسنّون القوانين والأنظمة التي يرمون بها إلى ملاشاتهم نظير ما تصنعه فرنسا في المغرب وإيطاليا في طرابلس. ولا يخفّف وقع الاستبداد في قوم أن يكون صدوره من أبناء وطنهم. بل الشاعر يقول:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً

على المرء من وقع الحسام المهنَّدِ

فالإنكليز قد هدموا ملك الإسلام في الهند واستبدّوا بالمسلمين وبسائر الهنود ونشروا دينهم بقدر ما استطاعت أيديهم، ولكنّه لا ينكر أنهم لبثوا يراعون الظواهر ويحافظون على مبدأ الحرّية الدينية ويقيمون المسلمين على شريعتهم القرآنية. فإذا جاء الهنادك في يوم من الأيام بأكثريّتهم المقرّرة إلى موقع الحكم وسنّوا أنظمةً من شأنها خضد شوكة الإسلام السياسية أو ملاشاة عقيدته الدينية فلا يهون ذلك على مسلمي الهند بحجّة أنَّ هذا العمل صادر عن هنود مثلهم. فالوطنيّة لا تخفّف الألم ولا تسقط الحقوق ولا تهوّن وقع التحامل. فالظلم ظلم أيًّا كان فاعله. وربّما قيل إنَّ الهنود لن يفعلوا ذلك بالمسلمين وإنّه ليس بمعقول أن يُقدموا على ما يمسّ عقيدة أبناء وطنهم أو شيئًا من أوضاعهم. والجواب أنَّ السياسة ليس فيها شيء يقال فيه إنّه لن يكون وإنّه غير معقول. ومن في الدنيا كان يقول إنَّ فرنسا تسنّ للبربر نظامًا تقصد به إخراجهم من الإسلام؟ فإذا كانت فرنسا الراقية العالية في درجة التمدّن تفعل هذا وتصرّ عليه ولا تبالي، فكيف يأمن مسلمو الهند سوء نيّة الهنادك بحقّ دينهم وهم ليسوا كالفرنسيين؟ ومن الهنادك أناس كثيرون يعلنون بلا حياء أنَّ مسلمي الهند كانوا منهم، وقد دخلوا في الإسلام بعد فتح المسلمين للهند، فينبغي أن يرجعوا إلى أصلهم البرهمي. فهذا الكلام قد سمع منه المسلمون في الهند كثيرًا وهم منه في حسبان عظيم. فكيف ينامون عليه ولا يطلبون التأمين على حقوقهم في المستقبل الذي يصير فيه زمام الهند بأيدي أهلها.

هذا من جهة الدين. فأمّا من جهة الدنيا فهناك حقوق شرعية وإدارية وسياسية ومنافع اقتصادية ومرافق معاشيّة وممالك وإمارات وكراسي حكم وغيرها يخشى أن تستبدّ به الأكثريّة الهندية ولا تسمع فيه للمسلمين مقالاً حينما لا يقدر المسلمون أن يلجأوا إلى إنجلترة أو إلى غيرها. فلا يبقى أمام الفريقين سوى التناحر والتماسك بالأيدي والتجاذب بالشعور والتعاضّ بالأسنان فضلاً عن التضارب بالسيوف والتطاعن بالحراب. ونحن نرى هذه الوقائع الآن والإنجليز حاكمون وقادرون أن يفصلوا بين الفريقين، فكيف تكون الحالة إذا ارتفعت عن الهند يد الإنجليز وصار الهنادك خصمًا وحكمًا معًا؟ لا جرم أنَّ رجالات المسلمين، وفي مقدّمتهم شوكت علي، هم على حقّ فيما يتنجزونه الهنادك من التأمينات على حقوقهم لأجل المستقبل فالأمر جلل. وقد يأتي يوم إذا لم يتحوّط به المسلمون لمستقبلهم أشدّ التحوّط يعضّون فيه أناملهم ندمًا، فأمّا الزعم بأنَّ الأكثريّة الهندوكية لن تهتضم حقوق الأقلّية المسلمة أو غيرها فلن يقول به عاقل ولا يجوز أن يسمع منه كلمة واحدة إذ يكون سماعها ضياع وقت. فإنَّ الأقلّيات في كلّ الدنيا هي تحت خطر الهضم لذلك نجدها حتّى في أشدّ الممالك رقيًّا متّحدة بإزاء الأكثريّة. هل يريد الناس مملكة أعلى درجة من ألمانيا؟ ففي ألمانيا الكاثوليك متّحدون حزبًا واحدًا بمبدأ أنهم كاثوليك لا غير. وحزب الوسط في المجلس مؤلّف منهم. نكتفي بهذا الشاهد عن غيره لأنّنا لو استقصينا الشواهد فلا تنتهي بمقالة ولا باثنتين ولا بثلاث. إذن المسلمون في الهند غير مخطئين في قولهم للهنادك: أمّا وقد أصبح مأمولاً استقلال الهند، وأنتم على كلّ حال أكثريّة البلاد، فنحبّ أن نعرف من الآن على أيّ جنب يمكننا أن ننام؟ فإن أعطيتمونا التأمينات اللازمة لنا فنحن وإيّاكم يد واحدة وجميعنا هنود نسعى في تحرير الهند. وإن أبيتم أن تعطونا التأمينات التي نبتغيها فما يكون ذلك منكم إلاَّ دليلاً على كونكم مستعدّين للتحامل علينا واهتضامنا حقوقنا وإذلالنا في ديننا ودنيانا، فنحن إلى هذا الحدّ لا نمشي معكم، بل نؤذنكم من الآن بمقاومة شديدة.

وسمعت أنَّ الهنادك يجيبون على هذا الكلام بأنهم لا يريدون أن يكون في الهند صبغة ملّية أو طائفية كما يقال، بل تكون الصبغة وطنية محضة. فإذا قرّرت الأكثريّة الهندية في المستقبل شيئًا فيكون نافذًا لكونه قرارًا وطنيًّا ولا شكّ أنَّ الروح الوطنية ستكون هي الغالبة فلا خوف على العقائد والأديان، ولا على حقوق الأقلّيات لأنه لن يكون هناك

أقلّيات وأكثريّات، بل تكون أمّة كلّها هندية وطنية إذا اختلفت آراؤها كانت الأكثريّة والأقلّية تابعة للآراء في المسألة المبحوث فيها، لا تابعة للملل والنحل.

وهذا كلام لطيف الظاهر لكنّه خبيث الباطن، بل هذا كلام عريق في الوهم لا يرجع عند العمل إلى أدنى نصاب صحيح. ولو كان منه شيء يحسن السكوت عليه، لكان ظهر تصداقه في أوروبة حيث توجد أقلّيات وأكثريّات. فالألمان كما قلنا هم أرقى شعوب أوروبا وجميعهم ألمان في الجنس واللغة، ولم يمنع ذلك أن يؤلف الكاثوليك منهم وهم الثلث حزبًا مستقلاً برأسه للدفاع عن كثلكته. ومثل ذلك في هولاندة ومثل ذلك في إرلاندة وهلمّ جرًا. فلن يقدر الهنود البراهمة أن يدّعوا التبريز على الألمان والهولانديين وسائر الأوروبيين في ميدان الوطنية والمساواة الجنسية. فلو كان هذا الكلام مقبولاً لكان البروتستانت في ألمانيا أقنعوا الكاثوليك بأنه ما دام الجميع ألمانًا، فلا حاجة إلى اتّحاد الأقلّية الكاثوليكية حزبًا بوجه الأكثريّة. وكذلك في أمريكا الأقلّية الكاثوليكية في الولايات المتّحدة هي خمسة وعشرون مليونًا بإزاء ثمانين مليونًا أو أكثر من الملل الأخرى، فنجدها في أكثر الأوقات يدًا واحدة بإزاء الأكثريّة خوفًا على حقوقها. ولماذا كان ذلك إن لم يكن بقي تأثير للفوارق الدينية؟

ومن أغرب الأمور أنه يوجد بين مسلمي الهند أنفسهم من هو معترض على قضيّة مطالبة المسلمين للهنادك بهذه التأمينات قائلاً: إنّنا ما دمنا كلّنا هنديين وطنيين فينبغي أن يسكن بعضنا إلى بعض وأن نأمن المستقبل، وأن نتناسى فيما بيننا الفوارق الدينية. وقد بلغني أنَّ من هذا النفر جماعة غير قليلة في مسلمي الهند. وقد كنتُ منذ بضعة أشهر في برلين فاجتمعت بأحد شبّان المسلمين الهنود فوجدته على هذا الرأي لا يريد أن يسمع شيئًا عن مستقبل المسلمين في الهند، ولا عن إمكان ضغط الهنادك عليهم. ورأيت شابًا آخر أيضًا من مسلمي الهند فذكرت له ما يخشى في عدم التحوّط للمستقبل من ظلم المجوس لهم فهزّ لي برأسه وإذا كان يشدو شيئًا من العربية، قال لي بلفظ هندي: والمسلمون أَيْزًا زالمون؛ أي: والمسلمون أيضًا ظالمون. وعبثًا حاولت أن أردّه إلى الصواب بقولي له: يا ولدي هذه كلمات وألفاظ لا ينبغي أن تقوم مقام الحقائق الراهنة، فالحقائق الراهنة لا تزول بالكلمات الفارغة، وجميعنا نحبّ أن تكون الوطنية في الهند هي المبدأ العامّ الذي يجمع شمل الهند، وأن ترتفع الفوارق الدينية في الحكومة الهندية وفي المجتمع الهندي. ولكن ما نحبّه هو شيء، وما نراه هو شيء آخر. والذي نراه ونحسّه ونلمسه بأيدينا ونسمعه بآذاننا ونشمّه بأنوفنا هو

أنَّ بين الهنادك والمسلمين فوراق عميقة دينية وغير دينية، ونحن نرى القتال بين الفريقين بأعيننا ونسمع الصراخ بآذاننا ونلمس أجساد القتلى بأيدينا ونشمّ رائحة الجثث بآنافنا. فهل يذهب كلّ هذا بمجرّد خيال أنَّ المستقبل لن يكون كذلك، وأنه لا خوف على الأقلّية الإسلامية من الأكثريّة الهندية المجوسية لأنه لن يكون بعد استقلال الهند مسلمون وهنادك، بل سيكون هنود فقط. فلو كان هذا وأشباهه ممّا تقبله العقول السليمة لقبله الناس الذين هم أرقى منكم بكثير، نظير الأوربيين الذين لا نزال نجد كلّ ملّة منه خائفة على كيانها مع أنهم كلّهم نصارى، ولكن الكاثوليكي البولوني يخشى اعتداء الأرثوذكسي الروسي ولا فرق بينهما إلاَّ الاختلاف في بعض العقيدة، فكيف لا يخاف المسلم الهندي من المجوسي الهندي والخلاف بينهما أوسع بكثير ومن الآن إلى أن تزول تلك الفوارق التي تقولون عنها إنها زائلة لا يضرّكم أن تأخذوا المواثيق التي لا تقعون بعدها في الندم، قلت لهذا الشاب الهندي كلّ هذا، وكأنّما كنت أضرب في حديد بارد، ومن يضلّل الله فما له من هاد.

ولماذا نعاتب الشاب المسلم الهندي؟ فلقد رأينا مسلمين من خارج الهند ومن سورية نفسها ينكرون على مسلمي الهند تشبثّهم بهذه التأمينات التي يبتغونها لمستقبلهم من الهنادك، ويزعمون أنَّ الوطنية الهندية ضمان كافٍ لا ينبغي معه شيء، فإذا قلنا «الوطنيّة الهندية» هذه الجملة فقط كانت كعصا موسى فأزالت كلّ ما في الهند من إحن وضغائن وأقسام وأجزاء! وإنَّ الطفل الصغير ليجلّ عن أن يقول هذا القول أو ما بمعناه. ومراد هؤلاء النفر بإنكارهم على الأقلّية الإسلامية في الهند تمسكها بكيانها الخاصّ أن يسدّوا الباب على الأقلّيات المسيحية في الشرق الأدنى أن تطلب تأمينات على حقوقها من الأكثريّات المسلمة.

والجواب على ذلك أنَّ الحقائق الراهنة والأشياء الثابتة لا تزول بالأماني، بل لا تزول بالنظريّات المجرّدة. فمن الأشياء الثابتة أنَّ هذه الفوارق الدينية موجودة في الشرق الأدنى وفي الشرق الأوسط وفي كلّ شرق، بل موجودة في الغرب أيضًا بالرغم من الترقّي العلمي في الغرب. فلا نقدر أن نقاتل مبدأ تمسّك الأقلّيات بكيانها الخاصّ بسلاح النظريّات المجرّدة ولن نقنع بذلك أحدًا. فمسلمو الهند أقلّية لها كيان خاصّ وكيان عامّ. فكيانها الخاصّ هو الإسلام وكيانها العامّ هو الهندية. ومن الممكن سير الأمرين جنبًا إلى جنب كما هو سائر ما يماثله جنبًا إلى جنب في الممالك الراقية. وإذا كانت الأكثريّة الهندية في مستقبل الزمان تقدّم بأفعالها البراهين على أنها لا تفرّق في الحقوق بين أبناء الهند مسلمين كانوا أو غير

مسلمين، فإنَّ تلك الفوارق الملّية تضعف من ذاتها وتقلّ الحاجة إلى تلك التأمينات المطلوبة. إنَّها تضعف أمام الأفعال والتجارب التي ينبغي لها زمن طويل ولا تضعف أمام الأقوال والدعاوي التي لم يقم من الآن أدنى دليل على صحّتها.

لقد كانت الأقلّية القبطية بمصر تحرّكت وتمسّكت بكيان خاصّ زعمت أنَّ الكيان الإسلامي العامّ يهدّده، وعقدت مؤتمرًا قبطيًا كلّنا نتذكّره. ولقد زال كلّ هذا الآن كأنه لم يكن، وصار الأقباط يحسبون أنفسهم في النزعة الوطنية وبإزاء الأجنبي نظير المسلمين بلا فرق. ولم يكن هذا الانقلاب في حالة الأقباط الروحية بمجرّد الأقوال والنظريّات الوطنية، بل قد تمّ هذا الانقلاب عندما شاهد الأقباط من أعمال المسلمين ما ثلج به يقينهم بأنهم يعاملونهم معاملة إخوان، وأنهم يعطونهم حقوقهم وأكثر من حقوقهم إذا روعيت نسبتهم العددية إلى المسلمين. فعندما رأوا ذلك بالفعل صارت وطنيّتهم لا تقلّ عن وطنيّة المسلمين المصريين، ولو لم يروا ذلك بالفعل لما كان أمكن المسلمين أن يقنعوهم بالمسير معهم يدًا واحدة كما هم سائرون.

وكذلك في سورية تمسك الأقلّية المسيحية بكيانها الخاصّ حقيقة راهنة وشيء ثابت لا يمكننا إقناعهم بتركه بمجرّد القول. وهم قسمان أحدهما غربي محض، بل لاتيني محض يزعم أنه متّصل بأوروبة لا بآسية، ويحاول إلغاء اللغة العربية في أرضه وكلّ ثقافة غير لاتينية؛ والقسم الآخر مسيحي لكنّه عربي لا ينكر عربيّته ولا شرقيّته، وهو يصبو إلى الاستقلال التامّ إلاَّ أنه يشترط أيضًا التأمين على حقوقه والاحتياط من وراء كيانه الخاصّ الذي يريد أن يحتفظ به.

ولا يقدر منصف إذا أنكر على الفريق الأول مذهبه في السياسة، أن ينكره على الفريق الثاني الذي يمشي مع الأكثريّة الإسلامية في طلب الاستقلال التامّ، ولكنّه لا يمشي إلاَّ على بصيرة ولا يقاوم الأجنبي إلاَّ بعد أن يستوثق من ابن وطنه المسلم بأنه لن يظلمه في المستقبل.

فعلى الأكثريّة المسلمة في سورية أن تقتدي بالأكثريّة المسلمة في مصر فتعامل الأقلّية المسيحية بينها كما عاملت هذه الأقلّية القبطية. فالمثال أمام أعيننا والاقتداء سهل لمن أراده، وبعد ذلك إذا طال الزمن وكرّت السنون ورأت هذه الأقلّيات أنَّ هذه الأكثريّات تعاملها بإنصاف، بل تعاملها بما تعامل به نفسها فإنَّ الفوارق الدينية تضعف من نفسها وتبقى منحصرة في المعابد وتكون الوطنيّة رائد الجميع.

والخلاصة أنَّ مسلمي الهند لا يلامون على ما يطالبون به الهنادك من التأمينات، بل يلامون إذا فرّطوا في شيء منها إذ يندمون ولات ساعة مندم. ولمّا كان عندهم المؤتمر الهندي عقب الحرب العامّة كان فيها ثلثان من الهنادك وثلث من المسلمين، فلماذا رضي الهنادك في ذلك الوقت بالاعتراف بالمسلمين حزبًا خاصًا ولا يريدون أن يعترفوا هذا الاعتراف اليوم؟ وماذا جدَّ حتّى يرتفع هذا الفرق، بل نرى الشحناء اليوم بين الفريقين أشدّ منها يوم وضعت الحرب العامّة أوزارها. وإذا قلنا أشدّ منها كان معناه أنها محتاجة إلى التأمينات أكثر من ذي قبل.

فإن كان غاندي منطويًا على نيّة حسنة طامعًا في استقلال الهند على وجه تسعد به الهند، ولا يكون فيه فرق بين مسلم ومجوسي، فمن السهل عليه أن يؤمّن شوكت علي ورجالات الإسلام في الهند التأمين اللازم في أمر الانتخابات النيابية، وفي سائر الحقوق، وإن لم يكن راضيًا بإعطاء هذه المواثيق فتكون له نيّة إخرى... وعند ذلك لا يلام المسلمون إذا وقفوا في الطريق وعاكسوا حلّ المسألة الهندية وربّما وقفت المسألة كلّها بسببهم لأنَّ هناك أقلّيات أخرى تخشى مثل ما يخشاه المسلمون فتكون معهم إلبًا واحدًا. وهناك ملوك وأمراء خائفون أيضًا على عروشهم فلا يضرّهم هذا الخلاف.

وهناك إنكلترة ودهاؤها فقد تستثمر هذا الخلاف لأجل استبقاء سيطرتها على الهند كلّها. فمن باب الحكمة أن لا يدع الهنود لها سبيلاً إلى استغلال اختلافهم كما هي عادتها في استغلال الاختلافات.

فخلاصك في يدك يا اسرائيل. وإن حبط المشروع كان المسؤول فيه الهنادك وكان غاندي هو المسؤول الأكبر.

لوزان، ١٦ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٨/٣١م

شكيب أرسلان



فليحذر مسلمو الهند من أن يقعوا في هذا الشرك★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قرأ الناس في "الفتح" مقالة السيّد تقيّ الدين الهلالي عن ثورة كشمير وأسبابها، وعمّا تفعله الحكومة المجوسية هناك بالمسلمين ومرادي ترجمة هذه المقالة إلى مجلّتنا "لا ناسيون آراب"، ولم أكن في حياتي في الهند ولا ذهبت إلى بلاد السند ولا عرفت من كشمير إلاّ النسيج المنسوب إليها المعروف بالشال.

ولكنّي قرأت كثيرًا وسألت كثيرًا وعلمت أنّ تعصّب المذاهب الدينية في الهند شديد، وأنّ الأقوى يقدر أن يفتك بالأضعف ويعمل به العملّين (بالتشديد).

ولا أظنّ أنّ في حوادث كشمير التي رواها الأستاذ الهلالي مبالغة، بل هي أخبار إذا قاسها الإنسان بأشباهها وردّها إلى أصولها وكان عليمًا من قبل بأحوال تلك البلاد الروحية لم يتردّد في تصديقها.

فالحذر الحذر من أن يقبل المسلمون حلاً للمشكلة الهندية، تكون نتيجته حكم الأكثريّة الهندية المجوسية، إذ تعود عند ذاك جميع بلاد الهند كشمير.

إنّ الهنادك لا يصرّون على رفض مطالب المسلمين إلاّ لما هو كامن في نفوسهم من سحق كلّ شيء غير هندوكي في المستقبل.

إنّه إن تسلّطت الأكثريّة المجوسية على الهند وصار الزمام في يدها آل أمر المسلمين معها إلى ما آل إليه أمر مسلمي إسبانية في أيام فرديناند وإيزابلاّ.

فليحذر المسلمون من أن يقعوا في هذا الشرك الذي هو شرَك الشرْك (الأولى محرّكة والثانية بالسكون).

إنّ الهنادك لن يرضوا منهم بشيء إلاّ بأن يردّوهم عن الإسلام إلى المجوسيّة.

★ الفتح، العدد: ٢٧٩، السنة السادسة، القاهرة (٢٣ رجب ١٣٥٠هـ/١٢/٥/١٩٣١م)، ص ص. ١ ـ ٢.

إنَّهم سيقولون لهم: كان آباؤكم هنادك فينبغي أن تعودوا إلى دين آبائكم. كذلك كان الإسبانيول في القرون الوسطى يقولون لمسلمي الأندلس: أنتم نصارى في الأصل فينبغي أن تعودوا إلى النصرانيّة.

وإنْ تولّى الهنادك الحكم ـ وسيتولّونه حتمًا إن صار الحكم إلى الأكثريّة ـ جرى في الهند من المذابح والمجازر والفظائع والشنائع ما تضاءل في جانبه كلّ شرّ، وما يحدو المسلمين حينئذٍ إلى الاستغاثة بالإنكليز.

وليس ينفع المسلمين حينئذٍ حسن ظنّهم بالوطنيّة الهندية واعتقادهم برفع الفوارق الدينية. ولن يردّ عنهم ذلك الشرّ المستطير تهوّس بعض أغرارهم ومجانينهم بالجامعة الوطنية وقول أحدهم لي في برلين: والمسلمون أيزًا زالمون[1].

سيرى هذا الغرّ وأمثاله مَن «الزالِمون» يوم تلي الأكثريّة الهندوكية أمر الهند.

كان قد شاع وقوع الائتلاف بين المسلمين وغاندي بشأن الأقلّيات. ولكن لم يلبث الخبر أن اضمحلّ وجاء الخبر الثاني بأنَّ الهنادك لا يزالون على عنادهم، لأنهم منطوون على طوية يريدون تنفيذها.

فاضطرّ المسلمون إلى الاتّفاق مع سائر الأقلّيات كالهنود الموالين للإنكليز، وكالأوروبيين الساكنين في الهند، وكالهنود النصارى وكوّنوا جبهة واحدة بإزاء الهنادك ليكفّوا من غرب المائتين والثلاثين مليون هندوكي.

ولقد أصاب المسلمون في هذا التدبير فلا يتمّ إلاّ من للضعيف إلاَّ بتوازن القوي.

ولقد يحتاج المرء إلى عدوّه ويستفيد منه.

والقاعدة الشرعية وهي المعقولة دفع الضرر الأشدّ بالضرر الأخفّ. وقال الله تعالى: ﴿ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾[2].

وليس في السياسة جمود على وتيرة واحدة.

وإنَّ الإنكليز ليسوا بأصدقاء للإسلام، ولكن لا يفيد ذلك إن الهنادك هم أصدقاء... أو إنَّه يجوز أن نطمئنّ إليهم. والنادر لا حكم له.

(١) الفتح، العدد: ٢٦٧، ص. ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

فيجب أن تكون مصلحة الإسلام فوق كلّ شيء وأنَّ لا نتلهّى بخيالات باطلة أمامنا كلّ يوم، بل كلّ ساعة حقائق راهنة تبدّدها.

ويجب على مسلمي الهند أن يراجعوا الحكومة الإنكليزية لأجل إنقاذهم من هذا الطاغوت الذي يلي كشمير بهذه الفظاعة فإن لم تنصفهم إنكلترة فلينتصفوا بأنفسهم.

ورجائي في الأستاذ المحقّق الهلالي أن يترجم مقالتي هذه إلى لسان الأوردو وينشرها في الهند، ولا ينسى ترجمة رسالتي «لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم» ونشرها، وله الفضل.

جنيف، ٩ رجب ١٣٥٠هـ/١٢/١١/١٩٣١م

شكيب أرسلان



أنقرة بإزاء المؤتمر الإسلامي★

من يقرع الباب يسمع الجواب

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

يريد الإنسان أن يترك أنقرة وشأنها وأن لا يتعرّض لها بخير ولا بشرّ، وأن يترك الفصل في أمرها لأهل تركيا وحدهم، لأنّهم الأولى بهذا الأمر من غيرهم. ونحن ما نتمنّى للأتراك إلاّ كلّ خير.

ولكن أنقرة لا تفتأ تتعرّض للعالم الإسلامي وتحاول مقاومة الدعوة الإسلامية في بلاد العرب وفي فارس وفي أفغانستان وفي الهند وفي البلقان وفي غيرها من الأقطار، كأنها تريد أن تقضي القضاء التامّ على الإسلام المتحفّز للوثوب في نفس تركيا، ولذلك يكون السكوت على أعمال أنقرة غير جائز، بل يكون جُبنًا ووهلاً وفسولة، بل يكون خيانةً للإسلام لا أكثر ولا أقلّ.

ويكون كسكوت علماء الدين ـ إلاّ النادر عنهم ـ عن أعمال أنقرة عندما بدأت بهدم الدين الإسلامي في تركيا وعندما تهيّبوا هم الدفاع عن الملّة التي استحفظهم الله إيّاها خوفًا من أن يغضبوا الفئة الكمالية عليهم. أي أنهم خافوا المخلوق ولم يخافوا الخالق. ألا ساء ما يعملون.

ولمّا كنّا لا نخشى أحدًا في مقام الدفاع عن الإسلام وعن الحقّ أيًّا كان، ولا نحتشم رجلاً يريد الغضّ من الدين، رأينا من الواجب أن نشهر بعمل أنقرة الأخير بإزاء المؤتمر الإسلامي الذي كتب الله له النجاح التامّ برغم معارضة أنقرة في عقده وأن نردّ على أنقرة وناظر خارجيّتها وعلى جرائدها فيما افترته وفيما تفتريه على هذا المؤتمر.

قد بلغ غرور هؤلاء الجماعة بأنفسهم أنهم ظنّوا أنفسهم قادرين أن يمنعوا المسلمين من الاجتماع لأمر عامّ حتّى لو كان خارج تركيا. وكلّ هذا ناشئ فيهم عن إرادة رجل واحد لا يجسر أحد منهم أن يراجعه في كلمة.

★ الفتح، العدد: ٢٨٥، السنة السادسة، القاهرة(٦ رمضان ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/١/٦)، ص ص.١ـ ٤، ١٣ـ١٥.

وهكذا قد كان غرورهم قد أوصلهم إلى الاعتقاد بأنَّ كلّ ما يفعلونه مهما كان مناقضًا للدين الإسلامي، فالمسلمون لا بدّ أن يتابعوهم عليه!

ولمّا ألغى القوم الخلافة وطردوا آل عثمان كان قد وصل وفدهم إلى الهند يستجدي مسلميها الإعانات لتركيا. ولم يخطر ببالهم أنَّ المسلمين هناك سيغضبون لإلغاء الخلافة ويستنكفون بعد إلغائها عن إعانة تركيا، بل كلّ ما دار في خلدهم هو أنَّ الهنود وإن حزنوا في أنفسهم من جرّاء إلغاء الخلافة فإنّهم لا مناص لهم من عبادة تركيا... ومعاونتها والسعي في مراضيها والقول لها: روحنا فداك كيفما فعلتِ. ولم يصدّقوا أنَّ مسلمي الهند رفضوا أن يعاونوا تركيا عندما بلغهم ما فعلوه من إلغاء الخلافة وطرد آل عثمان إلاّ من بعد ما عاد وفدهم مدحورًا. وجاء خوجه راسخ أفندي مبعوث أنطالية رئيس ذلك الوفد يحدّثهم عمّا كانوا لاقوهم به من الاحتفال والابتهاج في بادئ وصولهم، وعمّا كانوا مستعدّين لبذله من الأموال لإعانة تركيا، ثمَّ عمّا انقلبت إليه الأمور بعد توارد أخبار إلغاء الخلافة، وكيف أشاروا عليهم بسرعة السفر من الهند والاكتفاء من الغنيمة بالإياب.

نعم فهم القوم حينئذٍ أنَّ المسلمين لم يكونوا عبيدًا لتركيا، وأنَّ صلتهم الوحيدة بها هي الإسلام لا غير. فكلّما ضعف الإسلام في تركيا ضعفت هذه الصلة، والعكس بالعكس.

لقد خرج الكماليون عن كلّ منطق ـ وهم يظنّون أنفسهم أكبر الفلاسفة ـ في ظنّهم أنهم يجمعون بين الإسلام والإلحاد في وقت واحد.

يهدمون الإسلام وينقضونه حجرًا حجرًا في تركيا وفي الوقت نفسه يمتّون إلى الممالك الإسلامية الأخرى برابطة لم تكن سوى رابطة الإسلام.

يعلن واحدهم الحرب على الإسلام في الجمهورية التركية، وحينئذٍ يلغي كلّ تعليم إسلامي من جميع المدارس الإبتدائية، ويلغي حفظ القرآن من الكتاتيب، ويبطل العلم بالشريعة المحمّدية، ويستكتب الأتراك بالحروف اللاتينية حيلولة بينهم وبين القرآن ومنعًا لقراءته فيما بينهم، ويحمل الأتراك بالسيف وتحت دقّ الأعناق على لبس البرنيطة، ويؤمر بخلط الشبّان مع الشابّات في دور العلم، ويمنع تعدّد الزوجات بعذر أو بغير عذر، ويجوّز إنكاح المسلمة لغير المسلم، وتلغي المادّة التي تنصّ على أنَّ دين الجمهوريّة التركية هو الإسلام، ويجزي بأشدّ الجزاء من يمنع ابنته أو زوجته من الرقص مع الرجال في الملاهي

(هذه كلّها حقائق ثابتة راهنة مشهودة مقرّرة رسميًّا لا سبيل لأحد أن يكابر فيها إلاّ إذا كان ممَّن يكابر في نور الشمس). وبعد هذا كلّه تخاطب أنقرة إيران وأفغانستان ومصر والحجاز والعراق وألبانيا في الامتناع عن الاشتراك في المؤتمر الإسلامي بالقدس.

بأيّ حقّ تخاطب حكومة أنقرة هذه الحكومات الإسلامية في قضيّة مؤتمر إسلامي لم يكن لينعقد في تركيا؟

إنَّ الأعمال المارّة الذكر التي أقدم الأنقريون عليها وافتخروا بالإقدام عليها تسلخ من يفعلها من الدين وتنظمه في سلك الملحدين.

ثمَّ إنّهم يقولون إنَّ حكومتهم «لا ييقية»[1] أي لا دينية. فإذا كان الأمر كذلك فما مدخل هذه الحكومة اللادينية مع تلك الحكومات التي لا تزال دساتيرها تقرّر أنَّ ديانتها الإسلام؟

إنَّ إيران أكثر من نصفها فرس آريون. وإنَّ الأفغان أكثرهم أيضًا آريون. وإنَّ الألبان هم من جنس ليس بينه وبين الترك أدنى علاقة دموية. وإنَّ مصر والحجاز والعراق كلّها ممالك عربية. فلم نفهم ما وجه المناسبة بينها وبين تركيا وما الأواصر التي تحملهم على أن يسايروا أنقرة في عمل عامّ.

سيقولون: إنَّ وجه المناسبة هو الإسلام.

ونجيب: إنَّ جمهوريّة أنقرة قرّرت أنَّ الدين الرسمي لها ليس بدين الإسلام. وقد ثبت أنَّ كلّ النظم الجديدة التي اتّخذتها تركيا هي هادمة للإسلام من قواعده. فكيف يكون الإسلام رابطة بين تركيا وهذه الممالك الإسلامية؟

ولهذا عجبنا أشدّ العجب من تدخّل أنقرة اللادينية في شئون دينية ولدى حكومات إن لم تكن كلّها دينية فإنًّا كلّها ـ إلاَّ ألبانيا ـ تعترف بأنَّ دينها الرسمي هو الإسلام.

ثمَّ نعود فنقول: لا عجب من شيء، فالحكومة التي ناظر خارجيّتها يقول في جنيف أمام ممثّلي أربع وخمسين دولة: إنَّ تاريخ تركيا من قديم الدهر يثبت أنها دولة أوربية لا علاقة لها بآسية!!! لا يجوز أن يعجب الإنسان منها إذا هدمت أركان الإسلام في بلادها، ورجعت تخاطب الحكومات الإسلامية في أمور تحاول منعها باَسم الرابطة الإسلامية.

(١) كلمة فرنسية، تعني العلمانيّة.

وليست هذه أول مرّة تجلّى لنا فيها هذا المنطق الأنقري المقلوب.

حملوا المسلمين على البرنيطة وعلى الحروف اللاتينية تفرنجًا وتزلّفًا للأوربيين، ثمّ عادوا يستكرهون لفظة "أفندي" بحجّة أنّ أصلها يوناني.

وأصدروا أوامر وخاطبوا أوربا بأن لا يكتب أحد بعد الآن "القسطنطينية"، بل يجب أن يقال "استانبول" والحال أنّ "القسطنطينية" لفظة أوربية وأنهم هم تابعون لكلّ شيء أوربي بلا سؤال.

وقد أدخلوا في التركي الجديد من الألفاظ الإفرنجية ما جعل هذا التركي لغة جديدة لا يفهمها أحد ممّن نشأوا فيها قبل الدور الأنقري. وبينما هم يعلنون افتخارهم بالمدنيّة الغربية التي دخلوا فيها وتضبّ لثواتهم ويسيل لعابهم عندما يتلفّظون بكلمة "غربلاشمق" (أي التفرنج) إذ بهم ينكرون "القسطنطينية" التي هي من صميم الغرب.

نعم إنّ المنطق لا وجود له هناك أصلاً.

ومن جملة غياب هذا المنطق أن يقاتل الأنقريون الإسلام باَسم رابطة الإسلام، وأن تتدخّل حكومة لادينية في أمور دينية.

سيقولون: إنّ تركيا لا تلام على ذلك فقد بلغها أنّ المؤتمر الإسلامي في القدس سيبحث في قضيّة الخلافة ويذكر الخليفة عبد المجيد.

والجواب على هذا:

أولاً ـ إنّه لو بحث في قضيّة الخلافة فلا عجب في ذلك لأنّ مجلس أنقرة كان قد قرّر الخلافة، وانتخب السلطان عبد المجيد خليفة، وبقي مدّة جالسًا في قصر طولمه بغجه كخليفة، إلى أن بدا للكماليين خلعه وإلغاء الخلافة. فإن كان مجلس أنقرة الكبير قد قرّر الخلافة من قبل، فلماذا لا يجوز جدلاً للمؤتمر الإسلامي أن يقرّرها من بعد؟ وإن كان مجلس أنقرة عاد فألغى الخلافة فالعالم الإسلامي ليس بغراموفون لأنقرة: إذا نفت فهو ينفي وإذا أوجبت فهو يوجب. وليس المسلمون ظلاً لأنقرة يتبعونها كيف سارت.

الأتراك أحرار أن يلغوا الخلافة. وسائر المسلمين أحرار بأن يؤيّدوها، ولم تتعلّق سرّة الإسلام بسرّة أنقرة.

ثانيًا ـ إنَّه ما دام المؤتمر الإسلامي غير منوي عقده في تركيا ولا يتصوّر العقل أن يتدخّل في أمور تركيا غير الأتراك، فلم يكن محلّ لمعارضة تركيا في عقد هذا المؤتمر الذي كان يكفيها أن لا تجيب الدعوة إليه، وينتهي الأمر.

ثالثًا ـ إنَّ تركيا علمت جيّدًا أنَّ المؤتمر لن يبحث في الخلافة، ولقد أعلن الحاج أمين الحسيني وشوكت علي ولجنة المؤتمر هذا الأمر مرارًا. ولقد سعت تركيا لدى إنكلترة في إبطال هذا المؤتمر بحجّة البحث في الخلافة والخليفة، فأخذت إنكلترة موثّقًا على لجنة المؤتمر بعدم البحث في هذا الموضوع وانتهى الأمر، وأبلغت إنكلترة تركيا الواقع. فما معنى إصرار تركيا بعد ذلك على محاربة المؤتمر وعلى بثّ الأراجيف بشأنه.

والحقيقة أنَّ تركيا لم تحارب المؤتمر لأجل مسألة الخلافة التي كانت قد علمت أنه لا يبحث المؤتمر فيها.

ولكن أنقرة من بعد انسلاخها من الدين أخذت تشعر بأنَّ الأمّة التركية ناقمة على هذا الانسلاخ، ساخطة في الداخل تنظر إلى العالم الإسلامي نظرة الحنون متوقّعة منه أن يؤيّد الإسلام ولو في الخارج عن تركيا. فلذلك كلّما جرى تصوّر مشروع إسلامي في قطر من الأقطار خفق قلب أنقرة في أرضها خفقان من يعلم أنَّ الجامعة الإسلامية العامّة لا بدّ من أن تجذب تركيا إليها، فتذهب «اللايقيّة» أدراج الرياح.

فلمّا أيقنت تركيا أنَّ هذا المؤتمر منعقد لا محالة، وأنَّ المسلمين ماضون في عملهم لن يتركوا رابطتهم، اشتركت معهم أنقرة أم لم تشترك، هبّت تتوسّل بكلّ الوسائل لمنع بناء هذا المؤتمر من أساسه.

ولقد رضيت لنفسها بذلّ استعطاف دولة أوربية تكرهها لأجل أن تساعدها على منع مصلحة إسلامية.

وتشدّق متشدّق في مجلس أنقرة قائلاً: أفلا يحضر الكولونل لورانس هذا المؤتمر؟

ثمَّ عادت بعض جرائد أنقرة تزعم أنَّ لورانس كان من أعضاء المؤتمر! ولا تخجل من هذه الفريّة.

ونحن نجاوبهم: هذا مؤتمر إسلامي حقيقي لا يحضره لورانس ولا قوم لورانس، ولم يَدُر فيه بحث يرضي لورانس ولا أمّة لورانس.

لكنّك أنت أيها المتشدّق كان الأولى بك أن تذكر عمل حكومتك التي ذهبت تترجّى إنكلترة المسيحية لتمنع لها عقد هذا المؤتمر الإسلامي... هذا هو العار الثابت الظاهر عنك، على حين أنَّ القضيّة التي تشير أنت إليها فريّة أنت تعرفها. وإنكلترة لولا مشكلاتها الكثيرة اليوم واحتياجها إلى المسلمين لم تأذن بعقد هذا المؤتمر في القدس.

ولم تكتفِ أنقرة برجاء إنكلترة أن تمنع انعقاد هذا المؤتمر، بل دارت على سائر الحكومات التي لها علاقة بالمسلمين تستعديهنّ على المؤتمر.

أمّا إيطالية فلا تحتاج أنقرة إلى المؤتمر الإسلامي لتمالئها على المسلمين، بل سير تركيا وراء إيطالية قضيّة مضى عليها ثلاث سنوات وليست بجديدة. ولعلّها تهنئها على ما تفعله بعرب طرابلس الغرب.

وأمّا البلاشفة فليسوا متّفقين مع الكماليين في جميع المبادئ، بل هم مختلفون باطنًا في أكثرها. إلاَّ أنهم متّفقون في عداوة الأديان. ولهذا لم يتمكّن مسلم من الروسية أن يحضر المؤتمر الإسلامي في القدس لأنَّ أنقرة بحجّة أنها الحكومة الإسلامية الكبرى - وهذه هي المصيبة - وقد سعت لدى موسكو بمنع المسلمين في الروسية من حضوره.

والذين حضروه منهم هم مهاجرون مقيمون في الخارج عن الروسية وإن كانوا هم في الطبقة الأولى من مفكّري الإسلام وزعمائه.

ثمَّ بلغ أنقرة أنَّ لجنة المؤتمر أرسلت دعوات إلى مسلمي رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغوسلافيا وألبانيا فقامت تطلب فيما علمناه منع هذه الحكومات لمسلمي بلادها من حضوره. ولم يكن أحبّ إلى حكومات كهذه من أن ترى حكومة معدودة من حكومات الإسلام تحارب مؤتمرًا إسلاميًّا يدعو إلى تقوية رابطة الإسلام. فلهذا أجابت هذه الحكومات طلب أنقرة هذا ولم تمكّن أحدًا من مسلمي رومانيا وبلغاريا واليونان أن يحضر إلى القدس بهذه الدعوة. وقد منعت اليونان سماحة مصطفى صبري أفندي شيخ الإسلام السابق المنفي في "باتراس" من الذهاب إلى القدس عملاً برغبة أنقرة. وأمّا ألبانيا فلم يكن المانع لها من الاشتراك بالمؤتمر الإسلامي التكافل مع أنقرة، بل اعتبارات أخرى لسنا الآن في صددها. وأمّا يوغوسلافيا فلم تتدخّل في هذا المنع، بل تركت فيه الخيار للمسلمين الذين هم مليون وثلثمائة ألف في تلك المملكة. وهؤلاء أكثرهم أرناووط وبشناق فلا يربطهم بالترك إلاَّ

رابطة الدين، فإن زالت هذه الرابطة صار الترك والإفرنج والبراهمة والبوذيون عندهم شرعًا، فلهذا لا يبالوا بتحذيرات أنقرة وجاء من يوغوسلافيا إلى المؤتمر وفد جليل نحو من تسعة علماء منتخبين عن بلدانهم وبينهم محمّد سباهو أحد نظّار يوغوسلافيا السابقين.

وأمّا إيران فإنّها وإن لم تشترك في المؤتمر رسميًّا فلم تمنع رعاياها من الاشتراك فيه. ولقد اشترك فيه بنفسه السيِّد ضياء الدين الطباطبائي الصدر الأعظم السابق، وهو من أكبر مفكّري الأمّة الفارسية. وكذلك حضر المؤتمر السيِّد محمّد آل كاشف الغطاء وهو، وإن كان عربيًّا قحًّا، فهو كبير مجتهدي الشيعة ومعه جماعة من أدباء الشيعة وعلمائهم. وبهذه الصورة كان تمثيل الشيعة آل البيت لائقًا حافلاً. وهذا أوّل مجمع إسلامي اشتركت فيه أهل السنّة والشيعة وصلّى فيه إمام الشيعة بالجمهور.

ولكن المؤسف كان عدم اشتراك أفغانستان بهذا المؤتمر ولا بصورة من الصور، ولا ببرقيّة مجاملة، وهذا من أجل خاطر أنقرة... ولقد كنّا نظنّ جلالة نادرشاه يتذكّر كون سقوط سلفه أمان الله خان لم يكن إلاَّ بسبب اعتماده على آراء أنقرة ومحاولته السير في بلاده على الخطّة «الكمالية»، وإلاَّ فلم تكن من قوّة في أفغانستان تقدر على إنزال الملك السابق عن تخت ملكه. فإذا بالملك الجديد المعروف بالرويّة ينقاد هو أيضًا إلى آراء أنقرة التي صرّح ناظر خارجيّتها في مجلس أنقرة بكونه قد سعى لإحباط المؤتمر لدى إنكلترة كما سعى لدى جميع الحكومات الإسلامية التي منها أفغانستان بعدم الاشتراك فيه وأنه نجحت مساعيه. ولعلّ نادرشاه راض عن أنقرة لعدم نصرتها لأمان الله خان لأجل استرداد عرشه وربّما كانت أنقرة منّت عليه بذلك. والحقيقة أنه لا سبيل لتركيا أن تردّ على أمان الله عرشه وهو إن كان أمِل ذلك فقد كان نفخ في غير ضَرَم. فأين الرقمتان من وادي الغضا وأين كابُل من أنقرة؟ ولو فعلت كابل كما فعل ملك الحجاز ونجد أو ملك العراق مثلاً لكفت المسلمين انتقادها في هذه النقطة، لكنّها لم تنظر أمامها إلاَّ رضى أنقرة. هذا إلاَّ إن كان ثمّة سبب نجهله؟

وقد خاب ظنّ توفيق رشدي[1] في كون جلالة ملك الحجاز ونجد لا يشترك في المؤتمر. ولعلّ معتمد أنقرة في الحجاز سمع كلمة من هذا المعنى فصدّقها وأسرع بتبشيرهم بها.

---

(١) توفيق رشدي: وزير خارجية تركيا.

فالملك عبد العزيز بن سعود لا يتخلّف عن نصرة مؤتمرٍ جميع بنائه قائم على حياطة الدين وتخفيف مصائب المسلمين وحاشاه من ذلك.

وملك العراق أيضًا هو وأخواه الملك علي والأمير عبد الله قد هنأوا بأجمعهم المؤتمر وآزروه وأوفدوا إليه وصدرت من جلالتهم التصريحات المؤكّدة بأنه أجّل عمل قام به المسلمون في هذا العصر وأنه سيكون له مستقبل عظيم.

وإنّه وإن كانت الحكومة المصرية لم ترسل من يمثّلها رسميًا في المؤتمر فقد تمثّلت المملكة المصرية في هذا المؤتمر بأجلّ صورة ووجد فيه من جميع أحزابها.

وكذلك شهده الرجال الذين هم في الصفّ الأول من زعماء مسلمي الهند. وليس في شيء من دواعي المحمدة لفرنسة منعها لمسلمي المغرب والجزائر وتونس ومنع إيطالية لمسلمي طرابلس من شهود هذا المؤتمر. وان تجني الدول اللاتينية من شوك هذا الاستبداد ثمرًا شهيًا، بل تزيد به الأحقاد والضغائن.

على أنَّ الذين حضروا المؤتمر من زعماء هذه الأقطار ونجبائها فيهم الكفاية. ولقد أيّدهم أبناء وطنهم بالبرقيّات والرسائل كما خابت وسائل فرنسة الكثيرة بمنع السيِّد مكّي الناصري من حضور المؤتمر.

ولقد جاء التأييد للمؤتمر من جميع أقطار العالم الإسلامي ببرقيّات ورسائل تجاوزت عدّة مئات. وقرّرت الجمعيّات الإسلامية في الجاوى تنفيذ قرارات المؤتمر الإسلامي العامّ بالقدس.

ولست في حاجة إلى بيان ما قام به هذا المؤتمر من الأعمال الجليلة ولا ما أبرمه من القرارات التي يقرأها من أراد في الجرائد ممّا يتعلّق بشئون حيوية للإسلام ومصالح كلّية دينية واجتماعية وسياسية وتهذيبية لأبنائه، إن لم يكن من فائدة إلاَّ كون المسلمين اجتمعوا من جميع الاقطار وتباحثوا فيها عن قلوب متّحدة لكفى.

فإنَّ الإصلاح لا بدّ أن يسبقه برنامج يسير عليه، وإنَّ هذا البرنامج لا بدَّ من أن تسبقه مذاكرة يتمّ تنظيمه بعدها، وإن المذاكرة لا مناص من أن تقع في مجمع إسلامي عامّ يأتي فيه كلّ بما عنده وتتوجّه فيه الأفكار والعزائم إلى غرض واحد هو إقالة الإسلام من عثاره. وهذا ما قد كفله هذا المؤتمر على أحسن وجه.

وكيف كان الأمر فتعرُّض أنقرة لهذا المؤتمر الإسلامي وهي تزعم أنه دولة لا دينية، قاطعة كلّ علاقة لها بالشؤون الإسلامية، لم نفهم له معنى سوى أنها غيرمكتفية بما فعلته بالإسلام في تركيا، بل هي محاولة أن تفعل مثله في سائر الأقطار.

ولعلّ وجود بعض ملاحدة في مصر وغيرها يحذون حذوها زيّن لها أنها قادرة على هذا الأمر. وليس الأمر كذلك. فالعالم الإسلامي ليس بسائر وراء أنقرة ولن يسير وراءها. والعالم المسيحي أيّ أوربا وأمريكا غير سائر في محاربة الأديان على الخطّة التي تسير عليها أنقرة، بل كما قلنا مرارًا: الأمم المسيحية لا تزال متمسّكة بنصرانيّتها، واليهود لا يزالون متمسّكين بيهوديّتهم، وأهالي الهند والصين واليابان لا يزالون متمسّكين كلّ أمّة بعقيدتها: هذا ببراهما، وهذه ببوذا، هلمَّ جرًّا، ولا يشذّ في الدنيا عن هذه القاعدة إلاّ ثلاث حكومات، البلشفيك والمكسيك وأنقرة، هذا كما يعلم كلّ الناس.

يقول توفيق رشدي في مجلس أنقرة: «إنَّه أصبح مقرّرًا عند الوطنيين في جميع البلدان أنَّ مثل تلك المساعي لا يجنى منها أدنى فائدة لأيّ شعب كان، وإنَّ الجمهورية التركية قطعت الصلة بمثل تلك الاعتقادات التي كانت شؤمًا وبيلاً عليها وكانت مثبطًا لعزائم الشعوب».

فنجاوب توفيق رشدي بأنَّ كلامه عن قطع الجمهوريّة التركية صلتها بمثل تلك الاعتقادات صحيح، وأمّا سائر كلامه فهو كذب محض مخالف للمحسوس لا يقول به قائل في بلد من البلدان، فليخبرنا من الوطنيون الذين في أوربا أعلنوا انسلاخهم من النصرانية؟ ومن الوطنيون الذين في اليابان أعلنوا انسلاخهم من الطاوية؟ وليخبرنا أعندما يجتمع الكاثوليك في ألمانيا ويعقدون مؤتمرًا - في هذه السنة عقدوا مؤتمرًا وحضره برونينغ رئيس نظّار ألمانيا لأنه كاثوليكي - للمذاكرة في شؤونهم ككاثوليك وفي شؤونهم كألمان ألاَّ يكونون معدودين من الوطنيين؟ وهل توفيق رشدي هو الذي يعلم كاثوليك ألمانيا الوطنية؟

وهل كان المؤتمر المسيحي العامّ الذي انعقد في استوكهولم، ثمَّ انعقد في لوزان مؤلّفًا من أشخاص يحتاجون إلى أخذ مبادئ المدنيّة عن مثل توفيق رشدي... وهل كانت تنقصهم الأفكار العالية التي عند رهط أنقرة؟

ثمَّ إنَّ مؤتمر القدس لم يبحث في أمور دينية صرفة، بل بحث في أمور اجتماعية وتهذيبية كمسئلة جمع الإعانات ومسألة بثّ الدعاية ومسألة تأسيس جامعة علمية إسلامية في القدس.

فإن كان جمع الإعانات ممّا يضرّ بالأمم فلماذا أرسلت تركيا وفدًا إلى الهند سنة ١٩٢٤ ليجمع لها إعانات؟

وإن كان تأسيس مدرسة جامعة إسلامية تجمع بين العلوم العصرية كلّها وبين العلوم الشرعية والثقافة الإسلامي عملاً مضرًّا، فلماذا تجد هذه الجامعات كلّها في الأقطار الأوربية جامعة بين العلوم العصرية وبين الثقافة المسيحية.

وقد تناول المؤتمر الإسلامي بالبحث مسألة المبشّرين الذين يهاجمون الدين الإسلامي في كلّ محلّ، وتناول مسألة البربر وما أشبه ذلك.

فإنَّ كان هذا أمرًا سخيفًا إلى هذا الحدّ فلماذا عندما تنصّرت صبيّتان في مدرسة الأمريكانيين في برسا من ثلاث سنوات قامت القيامة في كلّ تركيا واضطرّت حكومة أنقرة إلى إرسال لجنة تحقيق إلى برسا وإلى أنَّ محاكم مديرات المدرسة الأمريكية وأن تقفل المدرسة.

نعم قد اضطرّت أنقرة إلى ذلك خشية ثورة الأمّة التركية المسلمة. ولكنّها على كلّ حال وكيف كانت طويّة الكماليين فقد اضطرّت أنقرة من أجل تنصّر فتاتين تركيّتين إلى إقفال المدرسة الأمريكية في برسا وإلى إقامة دعوى طويلة عريضة.

أفبعد هذا يلام المسلمون على الاحتياط لعقيدة ثمانية ملايين من البربر ألغت فرنسة من بينهم المحاكم الشرعية وقطعت الصلة بينهم وبين كلّ ثقافة عربية وكلّ تعليم ديني ومنعت الفقهاء وحفّاظ القرآن من دخول قراهم.

ثمَّ بحث المؤتمر في حقّ المسلمين في سكّة حديد الحجاز وهو الحقّ الثابت الواضح الذي اعتدت عليه فرنسة وإنكلترة اعتداء، وأوجبت بذلك توقّف حركة هذه السكّة في الحجاز، والخراب الذي لحق بعمرانه ولا سيّما بالمدينة المنوّرة.

أفهذا هو البحث الذي يضرّ المسلمين؟

وبحث المؤتمر في قضيّة مقاومة الإلحاد والبلشفة، وهذه الأمراض الاجتماعية التي يقضي تفشّيها على كلّ مجتمع يريد أهله أن يكون راقيًا. أفليست أوربة هي التي تفعل ذلك ولا تزال تنادي بخطر الإلحاد والبلشفة؟

كلّما جاء المسلمون ليحافظوا على دينهم وأخلاقهم وفضائلهم، ويحاربوا الإلحاد والإباحة والمبادئ المضرّة والخلاعة والفجور وما جرى هذا المجرى، يقوم رجال من أنقرة فيقولون: هؤلاء يريدون اتّخاذ الدين آلة لترويج السياسة! يلوكون هذه الجملة الفارغة الخالية من كلّ معنى، العريقة في السفسطة، ويضلّون بها كثيرًا من الأغرار.

أيّة سياسة هنا أيّها الناس؟ وأيّة آلة من الدين لترويج السياسة؟ المسألة مسألة عقيدة وصيانة أعراض وتبيّن حقوق، وتطهير أخلاق وتهذيب نفوس وتنمية نسل ودرء مفاسد تهدّم كلّ مجتمع بشري. أفكلّما قام أناس يحافظون على هذه المبادئ جئتم لهم بهذه النغمة الكاذبة قائلين: هذا من باب خلط الدين بالسياسة! إذا كان هذا من باب خلط الدين بالسياسة فليست أمّة على وجه الأرض خالية منه. وإذا كانت هذه الاعتقادات بزعم توفيق رشدي "مثبطة لعزائم الشعوب" فلماذا احتاجت إليها أنقرة في أيام حربها مع اليونان؟

أنسيَ توفيق رشدي قرار مجلس أنقرة الذي معناه أنهم ما ثاروا إلاَّ لتخليص خليفة الإسلام من أيدي الدول غير المسلمة؟

أنسي مصطفى كمال باشا كيف كان يذهب إلى محطّة أنقرة لاستقبال السيِّد أحمد الشريف السنّوسي، ويقبّل يده أمام الناس؟

أنسي عصمت باشا كيف كان يجلس على ركبه ساعات أمام السيِّد السنّوسي، ولا يخرج إلاَّ بعد أن يقرأ له السيِّد الفاتحة؟

أنسي مصطفى كمال باشا الآن كيف كان يبرق إلى السيِّد السنّوسي ليلاً وهو في ماردين قائلاً له: ابتدأت المعركة أنجدونا بقراءة البخاري الشريف؟

أذهب من فكرهم كيف أبرقت نظارة الحربية من أنقرة إلى سيواس تستعلم من السيِّد السنّوسي عن معنى أبيات جفريّة منسوبة لمحيي الدين بن عربي، كان السيِّد رواها في سيواس ومنها:

إذا كان الزمان لنا غريمًا ... تضعضع من بني عثمان ملك

إذا ثنى وثلث ثمَّ ربع ... بدا في الشرك للإسلام فنك

أنسوا ما كتبوه إلى الإمام يحيى من التقارير الطوال التي معناها أنَّ قيام أنقرة لم يكن إلاَّ للمحافظة على الدين الإسلامي... إلخ.

ألم يبقَ في ذهن مصطفى كمال باشا شيء من شهود الجمع وسماع قراءة الموالد هديّة لأرواح شهداء الحرب.

أنسي الغازي ما قاله لي في قهوة "ماسكوت" في برلين عندما سقطت القدس في أيدي الإنكليز سنة ١٩١٧ وهو: لا بدَّ أن نستردّها إن شاء الله. لا بدَّ أن نستردّها بدون ريب وإن كنت أقول لك (إن شاء الله) فما أقولها إلاَّ لكوني مسلمًا، إذ ليس للمسلم أن يقول: إنّي فاعل ذلك غدًا إلاَّ إن يشاء الله.

فإذا كانت هذه الاعتقادات "مُثبطة لعزائم الشعوب" وكان الإلحاد هو وحده الذي ينهض بالشعوب فلماذا التجأوا إلى الإسلام في قضيّة تخليص بلادهم؟

ولماذا أعلن كاظم قرّه بكير باشا ـ وهو الواضع الأول لحجر أساس الاستقلال التركي وسيحفظ له التاريخ ذلك ـ في إحدى خطبه بدار الفنون في استانبول قائلاً: إنَّنا نحن الأتراك لم نتمكّن من طرد العدوّ من بلادنا إلاَّ بانضوائنا تحت لواء الإسلام. وقدصفّق لكلامه جميع الشبّان يومئذٍ.

ولنفرض المحال وإن الأمر لم يكن كذلك، فما معنى تعرّض أنقرة لأمر لا يعنيها ولا هو حادث في بلادها؟

لقد طمأنت إنكلترة خاطرها بأنها أخذت مواثيق على لجنة المؤتمر بعدم البحث في قضيّة الخلافة والخليفة عبد الحميد. فما معنى حملات جرائدها اليوم على المؤتمر الإسلامي بعد أن علمت إنَّ مسالة الخلافة لم تكن من مباحثة، بل من بعد انفضاض هذا المؤتمر.

ولقد افتخرت أنقرة بأنها لم تجب الدعوة إلى هذا المؤتمر ـ والحقّ أنَّ لجنة المؤتمر أخطأت بدعوتها ـ ولكن أنقرة نسيت أنها أجابت الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكّة منذ سبع سنوات... فما عدا ممَّا بدا؟ هل كان مؤتمر مكّة إذ ذاك مؤتمرًا "لايقيا" غير إسلامي حتّى حضرته إذ ذاك ولم تحضر مؤتمر القدس هذا أم ماذا؟ وما الفرق بين المؤتمرين؟ وهل كانوا لم يبلغوا رشدهم يوم أجابوا دعوة مؤتمر مكّة؟

أفلا يفكّر هؤلاء الناس عندما يتكلّمون أنَّ الناس تعرف أن تقارن بين قوليهم الأول والثاني، وتثبث ما بينهما من التناقض.

وإجمال القول إنَّ المؤتمر الإسلامي قد نجح نجاحًا تامًّا، برغم المعاكسات التي جرت له من الصهيونيّة، والبلشفيّة، وبعض الدول الأوربية، ومن الحكومة الأنقرية، وعرفت أنقرة أنَّ العالم الإسلامي موجود غابت هي عنه أم حضرت فيه. ولولا تعرّض ناظر خارجيّتهم ونوّابهم وجرائدهم لما اضطررنا إلى هذا الجواب.

جنيف، ٢١ شعبان ١٣٥٠هـ/١/١/١٩٣٢م

شكيب أرسلان



جواب على سؤال
بشأن تأخّر العالم الإسلامي*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

يتلطّف أحد إخواننا من أدباء تونس الخضراء ومفكّريها الباحثين عن علل الإسلام الحاضرة، ويوجّه إليّ سؤالاً في قضيّة تأخّر العالم الإسلامي وأسبابه الحقيقية، وهل نشأ عن فساد الأخلاق، أو عن إهمال أحكام الدين، أو عن استيلاء الجهل على المسلمين، أو ثمّة سبب غير هذه الثلاثة؟ ويبغيني أجاوب على هذه القضيّة الجلّى وأقدح زناد فكري فيها، ويبدي من الثقة في رأيي والاسترسال إلى وجهة نظري ما يحدث عندي بأوًا[1] وفخرًا، لولا معرفتي بأني من العاجزين وأني لا أسدُّ هذه الثغرة إلاّ في نظر المحبّين.

وأمّا وجهة نظري في هذا الموضوع فقد أبديتها في السنة الماضية[2] في رسالة «لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟» فليس عندي فيه على وجه الإجمال غير ما قيّدته في هذه الرسالة. فإن كانت الحكومة الإفرنسية قد منعتها من تونس، فليس لي حيلة في إدخالها إلى هناك، ولكنّي أعلم جيّدًا أنَّ نُسخًا كثيرة منها، كانت قبل المنع، قد دخلت إلى أقطار المغرب. والآن بناء على كثرة طلب الناس لهذه الرسالة ونفاد كلّ ما طبع منها قرّرنا تكرار طبعها بمطبعة المنار. وقد جاءني من بلاد الجاوى استئذان بترجمتها إلى لغة الملايو. وعلمت أيضًا أنها ترجمت إلى اللغة الصربيّة، وحوضر بها في أندية بوسنه. وعلمت أيضًا أنَّ السلطة في المملكة المراكشية أخذت تجمعها من الأيدي وترسل أناسًا تدسّهم سرًّا يؤدون في النسخة أضعاف ثمنها عشرين مرّة وثلاثين مرّة رغبة في إعدام وجودها، وتحقّقتُ أنَّ أناسًا اشتروا النسخة الواحدة بمائتي فرنك فرنسي مع أنَّ ثمنها فرنك واحد. فأنا أريد تجديد طبع ألوف من نسخ هذه الرسالة تيسيرًا لاقتنائها، ورغبة في تداول الأيدي إيّاها لأنَّ فيها من الحقائق ما أظنّه يخرق أدمغة المسلمين، ويهزّ أعصابهم، ويثير نخوة رؤوسهم، فيهبّوا إلى مسابقة الأمم في ميدان الفلاح.

---

* الفتح، العدد: ٣٠٣، السنة السابعة، القاهرة (٢٤ ربيع الأول ١٣٥١هـ/٢٨/٧/١٩٣٢م)، ص ص. ١ـ٦.

(١) عظمةً وشأنًا.

(٢) ١١ نوفمبر ١٩٣٠ ـ لوزان ـ نُشرت في «المنار»، ج ٣١، ص ص. ٣٥٥ ـ ٣٧٠.

فساد الأخلاق أم التساهل في الدين أم إفقار ربوع العلم؟ هذه سلسلة مرتبطة بعضها ببعض من العبث أن نسأل أيّ الحلقات كانت السابقة؟ فإنّه إن فسدت أخلاق الرجال تهاونوا في أمر الدين وأمر العلم معًا؛ وإن تهاون الناس في أمر الدين فسدت أخلاقهم بطبيعة الحال، لأنَّ فساد الأخلاق هو في الحقيقة انحلال الأوضاع الدينية. وكلّ منهما يؤدّي إذا استحكم - وهما لا يظهران إلاَّ مترافقين - إلى إفقار ربوع العلم. وممّا لا مشاحة فيه أنَّ الدين الصحيح كما أراده شارعه هاتف بالعلم الصحيح كما أراده واضعه. ولا يمكن النبي الذي هو المسؤول عن هذه الأمّة والذي هو شفيعها (ﷺ) أن يسمح بإهمال شيء به تقوم سعادتها في الدنيا كا لا يسمح بإهمال شيء تقوم به سعادتها في الآخرة. فالإسلام شريعة معاش ومعاد، وكلّ نقص في أسباب واحد منهما نقص من الإسلام. وكلّ نقص في علوم المسلمين الكونية خروج عن الإسلام. ولن يكون إسلام ولا إيمان في الأرض إن لم يعتمد على قوّة مادّية تصونه وتضمن بقاءه. والجمود الذي ابتلي به علماء الإسلام حتّى صاروا به مثلاً مضروبًا، واقتصارهم على طريقة واحدة من التعليم لا يتعدّونها، واستيحاشهم من العلوم الطبيعية والرياضية وكلّ العلوم التي بلغت بها أوربة هذه المراقي العالية، هذا كلّه مرض من أمراض الإسلام الاجتماعية وهو خارج عن الإسلام الصحيح بالمرّة، وأصله أنَّ أمراء الإسلام عندما بدأت تفسد أخلاقهم أصْلَوا العلوم كلّها حربًا ليبقى الجهل مخيِّمًا على الأمّة، ولا يوجد فيها من يعارضهم في أهوائهم، والظلم والجهل توأمان. وإذ كان لا بدّ للأمّة من أن تشدو بعض العلم سمحوا لها بالعلوم الشرعية خاصّة خوفًا من أن تنقضّ عليهم الأمّة وتتّهمهم بالكفر وتسقطهم عن كراسيهم، ولكنّهم راقبوا أيضًا علماء الشرع أشدّ مراقبة، وحظروا عليهم إحكام أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا عزائم الإسلام من الأمور التي تخصّ الإمارة وحدها، تأمر بها عند الحاجة وتنهى عنها عند الحاجة، وأكثر ما تكون هذه الحاجة متعلّقة بأهواء الأمراء الشخصية، ونادرًا كانت متعلّقة بشؤون الأمّة. وانتهى أمر هؤلاء العلماء - إلاَّ من رحم ربّك - بأن يكون قصاراهم الإفتاء بما يوافق أهواء الأمراء، واستعمال سلطتهم الدينية لتسويغ شهوات الملوك والوزراء. وهكذا بفساد أخلاق الأمراء ومواطأة العلماء لهم، أصاب هذه الأمّة ما أصابها. وأصل الداء قد كان في الداخل ولكن بعد أن استحكم الداء الذي في الداخل انضمّ إليه الداء الذي من الخارج والذي سنشير إليه في آخر هذه المقالة.

وقد كان القرآن في صدر الإسلام علمًا وعملاً معًا وذكرًا يتلى وفعلاً يسدى ولم تكن

منه آية إلاَّ وهي نافذة على وجوهها. وبهذا اتّسق للمسلمين ما اتّسق من الفتوحات وما فتح المسلمون فتحًا، ولا قطعوا واديًا، ولا ركبوا بحرًا، ولا جابوا برًّا، ولا بذلوا مالاً ولا دمًا، ولا أسّسوا أمارة ولا حضارة، إلاَّ اجراءً لأحكام القرآن الكريم الذي كان معناه ممتزجًا بلحمهم ودمهم، وبه كانوا يقومون بما كانوا يقومون به من بذل الأنفس والنفائس ممَّا يعبّر عنه اليوم بالتضحية.

فلمّا فسد الأمراء وتواطأ معهم العلماء رجع القرآن من المعنى إلى اللفظ فقط. وصار يتلى بدون عمل، إقامةً للرسم وإرضاءً للعامّة وتلذّذًا بالتجويد وحسن الصوت، وإقناعًا للأمّة بأنَّ الأمراء مقيمون لشعائر الدين! وأمَّا في الحقيقة فقد أصبحت العزائم القرآنية بعد أن دبّ دبيب الفساد في الأمّة أشبه بآنيّة المتاحف تعرض لأنظار الناظرين للبهجة، ولكنّها لا تستعمل في الأيدي. وما دام القرآن غير معمول به كما كان يُعمل به في السابق فلن يُرجى رقيّ المسلمين كمسلمين. نعم يجوز أن يتحوّلوا عن الإسلام ويرقوا في سلّم المدنيّة الأوربية ذلك باندماجهم في الأمم المسيحية وبأخذهم بما أخذت به حذو القذّة بالقذّة. فإمَّا أن يطمعوا في النجاح والنهوض وهم مسلمون ومصرّون على الإسلام، ثمّ هم غير عاملين بأوامر كتاب الله ونواهيه فهذا مستحيل ومن باب جمع النقيضين.

والعلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلاَّ إذا اقترنت بتربيتهم الدينية، وصارت جنبًا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم. وقد صرّح الفيلسوف "غستاف لوبون"[1] في كتابه "تعليل الروحية السياسية" بأنَّ تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجًا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم، يزيدهم انحطاطًا وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلاَّ إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميّتهم (راجع كاتبه psychologie politique). ولست أقول بهذا القول لأنَّ غوستاف لوبون أو غيره من علماء الاجتماع قال به. كلاَّ. وإنّما أقول به لكون التجاريب من قديم الدهر قد أثبت أنَّ التربية لا تنهض بالأمّة نهوضًا حقيقيًا إلاَّ إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها وهؤلاء اليابانيون شرقيون آسيويون ومن السلالة الصفراء قد استوفوا من العلوم العصرية أوفر نصيب أتيح لأمّة غربية من السلالة البيضاء، وبلغوا بهذه العلوم القوّة التي تاقت إليها نفوسهم ولا يزالون على مباديهم ومنازعهم وعقائدهم وقواعدهم، أي يابانيين كما كانوا من ألفي سنة.

---

(١) غوستاف لوبون، (١٨٤١ ـ ١٩٣١). طبيب وعالم اجتماعي فرنسي، رائد علم الاجتماع. دعا إلى تفسير السلوك الجماعي بالمقارنة بين نفسيّات فردية.

وإنَّما نهض بهم للالتحاق بالأمم العزيزة الفاتحة روح القومية اليابانية والديانة الطاويّة والمبادئ الأدبية التي هي غذاء نفوسهم. وهي التي أهابت بهم أن يتسلّحوا بالفنون العصرية التي تسلّح بها الغربيون، فلم يكن باعث نهضتهم المدنيّة الأوربية، بل كان روح قوميّتهم وعقيدتهم وحسن المحافظة على أنفسهم. والشعور بالاحتياج هو علم روحي يسوق إلى الطلب بقدر همّة المحتاج وشفوف بصيرته وإن نهض المسلمون ـ وهم ناهضون لا محالة ـ لم تنهض بهم روح أوربية ولا روح شيء خارج عن الإسلام، وما ينهض إلاَّ روح القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى والذي به حياتهم الأدبية، والذي فيه لهم النازع والوازع والمحرّك والمسكّن والذي بدونه ليس أمامهم إلاَّ أحد أمرين: إمّا الفناء والاضمحلال، وإمَّا التحوّل عن الإسلام. وكلاهما لن ترضى به هذه الأمّة التي نزل في كتابها: ﴿ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾ (سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٣٣؛ وسورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٢).

ولكن المسلمين يعوزهم إرهاف هذا الشعور بتلبية صريخ القرآن المستمرّ وبوجوب النهضة والمبادرة إلى اليقظة. وإنَّ أول دليل على رقّة شعورهم، إن رقّ، سيكون روح التضحية بالمال والنفس ومباراة الأوربيين والأمم الراقية في بذل القناطير المقنطرة والإنفاق بدون حساب في سبيل قوميّتهم. وما دامت التضحية في العالم الإسلامي مفقودة أو ضعيفة فلا يرجى له فلاح أصلاً. وهذا الباب قد أوضحناه حقّ الإيضاح في رسالتنا "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟" وأثبتنا الفروق الهائلة الواسعة الشاسعة التي بينهم وبين النصارى واليهود في هذا المعنى ممّا ليس للمسلمين فيه فسحة لعذر بوجه من الوجوه إلاَّ عذر اليأس من رحمة الله. والحال أنَّ اليأس من جهة العقل إنَّما هو انتحار، ولا ينتحر إلاَّ الذي خالط عقله الجنون، ومن جهة الدين كفر محض، ولا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون.

ثمَّ إنَّنا بعد أن قرّرنا أنَّ أصل داء المسلمين من أنفسهم وأنَّ مبدأه فساد الأخلاق، ولا سيَّما أخلاق الأمراء الذين فساد الواحد منهم يفسد المجموع، ويتلوه تدليس العلماء الذين بمواطأتهم للأمراء على شهواتهم ارتفعت كلّ سيطرة عن هؤلاء، وأفلتوا من جميع القيود. يجب علينا أن ننصف المسلمين ونذكر لانحطاطهم سببًا ثالثًا أكثر الناس غافلون عنه وهو «أوربة».

وقد يجاب على هذا القول بأنَّ أوربة لم تكن لتقدر على إرهاقهم لولا فساد أخلاقهم، وإنَّها هي إنَّما استولت على بلدانهم برجالهم، وأمّنت مصالحها بخيانة الكثيرين منهم لملّتهم،

وما أشبه ذلك من الاحتجاج والاستدلال، وهذا لا سبيل للنزاع فيه. والمسلمون قد كانوا في غالب الأحيان أعداء لأنفسهم، وقد كانوا على الإسلام من الداخل أشدّ ممّا كان الأوربيون من الخارج. فهذه مسألة مفروغ منها. وما أحسن قول أخي شوقي خطابًا للنبي عليه السلام:

أقطعتهم غرر البلاد فضيعوا وغدوا وهم في أرضهم غرباء

ولكنّنا نحن بإزاء تاريخ، والتاريخ لا يكون بالتعسّف والتحكّم، ولكن بمحاسبة كلّ على عمله بلا زيادة ولا نقصان.

فنحن لا ننكر أنه لو كان المسلمون قائمين بواجباتهم من جهة حياتهم الدينية وحياتهم العلمية وحياتهم الاقتصادية لما كانت أوربة نالت منهم منالاً، ولكان البحر المتوسّط بين الفريقين فاصلاً. وليس من عادة الله أن يقتل أمّة امتلأت إرادتها بأن تحيا. فهم المسؤولون بالدرجة الأولى عمّا آلوا إليه.

بيد أنَّ أمانة التاريخ توجب علينا أن نقول إنَّ مجاورة "أوربة" لا تشبه مجاورة أمم أخرى، وإنَّه لو كانت اليابان على ضفاف البحر المتوسّط، كما هم المسلمون، لكان من المستحيل رقيّها وبلوغها ما بلغته لأنَّ الأوربيين كانوا لا يتركونها تبلغ رقيّها، وكانوا لا يزالون يغادونها الحروب والمصائب ويراوحونها إيّاها إلى أن يجعلوا بناءها دكًّا.

وقد يتردّد في تصديق هذا القول من لا يريد أن يعترف بالحقائق ومن لا يهمّه أن يكابر في المحسوس، فأمّا الذين يجعلون الحقيقة التاريخية فوق المكابرة، فإنَّهم مضطرّون أن يوافقوا على أنَّ الجنس الأوربي لا يشبه جنسًا آخر من أجناس البشر، وأنَّ الاعتداء والتجاوز هما في أصل فطرته، لا يعيش بدونها ولا يصدّه عن التعدّي إلاَّ القوّة القاهرة. ولقد أراد الله أن يكون الإسلام هو أقرب جيران القارّة الأوربية من آسية وأفريقية، فجاورها من الشمال من جهة الروسية، وجاورها من الوسط من جهة البلقان، وجاورها من الغرب من جهة إسبانية وفرنسة وإيطالية، فذاق من مراسها ما لم يذقه أحد ومضت ثلاثة عشر قرنًا وأوربة لم تخلِ فيها الإسلام من شرّها دقيقة واحدة.

ولقائل أن يقول إنَّ الإسلام هو الذي اعتدى على أوربة، وإنَّ غارات العرب وصلت إلى قلب فرنسة وجبال سويسرة، وإنَّ غارات الترك وصلت إلى ڤينّا، وإنَّ غارات التتر وصلت إلى بولونيا، وإنَّ البلدان التي فتحها الإسلام كالشام والأناضول ومصر والمغرب

كلّها كانت للدولة الرومانية... إلخ، فلا تكون أوربة هي المعتدية، بل يكون الإسلام هو المعتدي ويكون الإسلام هو المتحرّش.

والجواب على ذلك إنَّ هذه البلدان هي كلّها في الحقيقة شرقية، وأكثر أهلها ساميّون وكيف كان الأمر فالجنس الأوربي أجنبي عنها. فعندما كانت الدولة الرومانية فيها كانت في غير بلادها وما فعل الإسلام شيئًا سوى إعادتها إلى أهلها. نعم، إنَّ الإسلام شنَّ الغارة بعد ذلك على أوربة: العرب من الجنوب والغرب، والترك من الشمال والشرق، وأوغلوا في بلادها، ولكن الإسلام بقي مع ذلك فاتحًا رفيقًا يطيق وجود غيره، ويرضى ببقاء المسيحي مسيحيًّا واليهودي يهوديًّا، ويساكن أعداءه ويهادنهم. وإنَّ ملك أسجح وإن ظهر ترك رعاياه من غير المسلمين أحرارًا كما تشهد بذلك التواريخ.

وأمّا الأوربيون فلم يعرفوا هذه السجاحة في المعاملات، ولا كانوا يطيقون وجود غيرهم إذا ظهروا، ولم يتركوا من الملايين الكثيرة من المسلمين الذين سكنوا الأعصر الطوال في إسبانية وفرنسة وسويسرة وإيطالية نافخ نار يقدر أن يقول إنَّه مسلم. وشنّوا من الغرب على الشرق إحدى عشرة غارة صليبية كلّما أطفأ الله واحدة منها أوقدوا غيرها. وتمالأوا على الدولة العثمانية نحوًا من مائة مرّة، فلم يكن يمضي سنة أو سنتان إلاَّ ويناجزونها القتال من جهة. ولقد أحصى أحد وزراء رومانيا المسيو "دجوڤارا" عدد المؤتمرات التي ائتمرت بها أوربة على الدولة العثمانية وعلى بلاد المغرب فبلغت مائة مؤامرة، وألّف في ذلك كتابًا عظيمًا من ستّمائة صفحة اسمه "مائة مشروع لتقسيم تركيا"[1] سرد فيه تاريخ كلّ مشروع منها مع وثائقه وأسانيده وكلّ ما يتعلّق به. وما حال دون التنفيذ إلى غير ذلك. ولقد لخّصت هذا الكتاب الجليل نظرًا لأهمّية موضوعه، ووضعت هذه الخلاصة في حواشي "حاضر العالم الإسلامي" الطبعة الجديدة التي ستصدر قريبًا. وهي تقع منه في نحو من ١٥٠ صفحة. وإنّي لأوصي القارئ بمطالعة هذه الخلاصة وخلاصة أخرى لتاريخ البابوات الذين قلّ أن جلس منهم واحد على كرسي بطرس إلاَّ أغرى المسيحيين بحرب المسلمين. ومن أغرب ما جاء في هذا الباب أنَّ كثيرًا من مشروعات التقسيم المذكورة التي دخلت فيها باباوات وقياصرة وملوك وأمراء وعلماء وفلاسفة ـ مثل ليبنتز[2] الألماني وڤولناي[3] الإفرنسي ـ تضمّنت إجبار

---

(١) T.G.Djuvara. Cent projets de partage de la Turque 1281-1919

(٢) ليبنتز Leibniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦). حاول دمج الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية، من أتباع الفلسفة المثالية.

(٣) ڤولناي أو ڤولني Volney (١٧٥٧ ـ ١٨٢٠). وصف أحوال الشرق في كتاب "رحلة إلى سورية ومصر" ١٧٨٣.

المسلمين على ترك دينهم من بعد الانتهاء من تقسيم السلطنة العثمانية والسلطنة المغربية، ممّا يدلّ على أنَّ هذه الفكرة لم تكن خاصّة بالإسبانيول ولا منحصرة بالأندلس، بل هي فكرة أوربية عامّة فحينما ظهر الأوربيون على المسلمين فكّروا في منع الدين الإسلامي، وإن كان هذا الأمر لم يتمّ على الوجه المحرّر في هاتيك البرامج المكرّرة، فلم يكن عن احترام للحرّية البشرية ولا عن تحرج عن إتيان تلك الفظائع، بل كان ناشئًا عن الاختلاف فيما بينهم على تقسيم الغنائم والأسلاب، ولا سيَّما على مسألة من يملك القسطنطينية والبواغبر. فكانوا أشبه بالذئاب بينما هي ساعية لتفترس معًا إذا أخذت تأكل بعضها بعضًا.

فهل قال أحد إنَّ ملوك الإسلام في أيام عزّهم تمالأوا مائة مرّة بمعاهدات ومواثقات على تقسيم سلطنة أوربية؟ وهل قال أحد إنّهم قرّروا في مملكة من ممالكهم منع الدين المسيحي أو الدين اليهودي؟

إنَّه لا وجه للمقايسة بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي في التسامح وعدمه. وإنَّ كثيرًا من الأوربيين ليعترفون بهذه الحقيقة، ولا تسع هذه العجالة ما عندي من الشواهد على ذلك، وإنَّما انقل كلام قسّيس كاثوليكي منصف هو الأب ميشون الذي يقول: "إنَّه لمن المحزن أن تكون الأمم المسيحية مضطرّة أن تتعلّم التسامح الديني من الإسلام".

والفيلسوف أرنست رنان[1] في كتابه "حياة يسوع" يقول أيضًا: "إنَّ النصرانيّة لم تعرف التسامح الديني" le christianisme fut infolérant ولكنّه يعزو ذلك إلى أصل يهودي ويزعم أنَّ المسيحيين قلّدوا اليهود في إرادة الحصر المطلق.

وأنا أقول إنَّ النصرانيّة نفسها كما علمها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام هي دين تسامح ورفق وحنان وعطف، وليست كما قال رنَان. والدين الذي يقول صاحبه: أحبّوا أعداءكم فإن كنتم تحبّون أصدقاءكم فأيّ فضل لكم؟ لا شكّ أنه دين سماحة وسجاحة ولكنّ الأوربيين الذين دانوا بالمسيحية قلبوها عن أصلها بمقتنى غرائزهم المجبولة بالاستبداد وحبّ الحصر المطلق وشنآن الغريب وإرادة استئصاله، فتلوّن الشراب بلون الإناء.

إنَّ الأوربي لا يطيق غيره ولا يريد في هذا العالم إلاَّ نفسه، وإذا طمحت نفسه إلى مغنم فإنَّه يستبيح كلّ شيء ليناله، ولا يمكنك أن تردّه عنك إلاَّ بالقوّة الصارمة. ولقد هذّبت

(١) أرنست رينان Renan (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢). أديب فرنسي فقدَ إيمانه وعبّر في كتبه عن آرائه العقلانية. له كتاب "تاريخ نشأة المسيحية" وأوّل أجزائه كتاب "حياة يسوع".

المدنيّة العصرية كثيرًا من خشونة الأوربي التي كانت في القرون الوسطى، لكنّها لم تقدر أن تخفّف شيئًا من أُثرته وطعمه وغلوّه في حبّ نفسه. وأعظم شاهد على هذا هو الحرب العامّة التي طرحت على الحضيض بضعة عشر مليونًا من القتلى وأصابت أوربة برزايا لا تدخل تحت حصر، ولا منشأ لها إلاَّ شدّة مطامع الإفرنج. فإذا كان هذا فعلهم فيما بينهم وهم بأجمعهم من لاتين وجرمان وسلاف يرجعون إلى سلالة آريّة واحدة، فكيف يفعلون بالأمم التي ليست من سلالتهم ولا هي آخذة بثقافتهم؟

وربّما قيل إنَّ جميع الأمم إذا عزت وتغلّبت اهتاجت بها المطامع وتجاوزت على جيرانها، سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً. وإنَّ المسلمين أيضًا لم يكونوا بمنجاة من هذا الظلم، وطالما قاتل بعضهم بعضًا وسفكوا الدماء طمعًا وأُثرة وحبًّا بالانفراد.

والجواب أننا لا ننفي الطمع والأثرة عن أمّة من الأمم، وأننا نقول إنَّها جبلة بشرية ولكنّها لا توجد في السلائل البشرية كلّها بسعة المقياس التي هي في السلالة الأوربية، فإنَّ طمع الإفرنج لا يساويه في الدنيا شيء سوى طمع الإفرنج. إنَّ لكلّ أمّة خصائص تمتاز بها على غيرها، وإنَّ جميع الأمم تحبّ المال، ولكن لا كحبّ اليهود للمال. وإنَّ جميع الأمم تحبّ الطموح إلى ملك غيرها إذا قويت وغلظ أمرها ولكن الإفرنج رأس في هذا الباب. فلمّا كان الإفرنج جيرانًا للمسلمين كان من البديهي أنهم لا يتركون راحة للمسلمين، وكان من الطبيعي أنَّ هؤلاء يكونون معهم في عناء طول الحياة، فكيف يمكنهم أن يتفرّغوا لعمارة بلادهم وهم مع جيرانهم بالمقيم المقعد. من يفكّر في تنظيم بيته إن كان غير آمن أن يبيت فيه ثاني يوم؟

وأغرب من هذا أنَّ الأوربيين كانوا في أيام عظمة السلطنة العثمانية يقولون: إنَّ هذه دولة قويّة جدًّا فلا مناص لنا من الاتّفاق عليها تفاديًا من أن تبتلعنا جميعًا. ولمّا ضعفت السلطنة العثمانية رجعوا يقولون: إنَّه من العبث الإبقاء على دولة ضعيفة كهذه متداعية إلى السقوط ولا نفهم معنى السماح لها بالوجود:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت
وقع السهام ونزعهنّ أليمُ

سيجد القارئ كلاًّ من هذين القولين مكرّرًا في خلاصة "مائة مشروع لتقسيم تركيا".

فمن هنا يعلم المؤرّخ الاجتماعي المدقّق أيّة بليّة بلي بها الإسلام بمجاورة الإفرنج أو

لو أنَّ إنكلترة أو ألمانية أو فرنسة تمالأت عليها الدول عُشر ما تمالأن على السلطنة العثمانية لما بقي لها زرع ولا ضرع ولا صامت ولا ناطق. فكيف يستطيع أن يتقدّم المسلمون وهم منذ قرون متطاولة يدافعون عن أنفسهم ويتّقون الطوارئ الأوربية من دقيقة إلى دقيقة.

وزِدْ على ذلك أنَّ الأوربيين عندهم برنامج متّبع وخطّة مرسومة لا يهملونها، وإن لم يوفّقوا إلى تطبيقها مرّة أو مرّتين أو عشر مرّات أو عشرين مرّة، لم يزالوا يترقّبون الفرص إلى أن يتمكّنوا في الآخر من تطبيقها.

فقد حاولوا مدّة ستّة قرون أن يقضوا على الدولة العثمانية وكانت الموانع المتنوّعة تقف في وجوههم وتمنع إنجاز هذا المشروع دفعة واحدة إلاَّ أنهم لم يملّوا ولم ييأسوا، وما زالوا يدأبون حتّى قضوا على هذه الدولة، ولم يبقوا منها إلاَّ العُشر ممّا كان وهو الذي يسمّى الآن بتركيا. ولولا التعب الذي أصابهم من الحرب العامّة لكان مرادهم القضاء على هذه الثمالة أيضًا.

وقد حاولوا مدّة قرون الاستيلاء على أقطار المغرب، وكان الإسلام بحال تمكّنه من النضال عن نفسه، فلم تقطع أوربة الأمل من تدويخ هذه الأقطار وما زالت تدأب حتّى طبّقت في القرن التاسع عشر والعشرين برامج كانت محرّرة في القرن الثالث عشر والرابع عشر.

ومنذ مئين سنين تفكّر إنكلترة في الاستيلاء على مصر، ولم تزل حتّى احتلّت مصر وهلمّ جرًّا.

فجميع أعمال الأوربيين أعمال ترجع إلى خطط مرسومة ومبادئ مقرّرة وسياسات متّبعة، تمضي عليها الأحقاب وهي هي موضع المذاكرات في نظارات الخارجية.

وندر أن يكون لممالك الإسلام برنامجات تسير عليها، وإن وجد عند بعض ملوكهم وخلفائهم كهرون الرشيد أو عبد الرحمن الناصر أو صلاح الدين الأيّوبي أو محمّد الفاتح أو سليم أو سليمان القانوني، أو مولاي اسماعيل في المغرب شيء من هذه الخطط المرسومة في الأذهان، فقد كانت لا تستمرّ إلاَّ مدّة حكم ذلك الخليفة أو ذلك الملك، وقلّما كانت تعيش إلى ما بعده.

ولا جرم أنَّ الثبات والمثابرة وحبّ التسلسل وإيصال الآخر بالأول هي خصال أوربية وخصائص آريّة لا تساويهم فيها الأمم الأخرى.

وإنَّه من أسباب تأخرّ الإسلام كونه وجد عدوًّا لأمم لا تعرف الهوادة ولا تملّ من المجاهدة ولا تكلّ عن السعي، وإنَّها بأجمعها متّصفة برجوليّة تامّة، وأنَّ اللاتين من أسرع الشعوب فهمًا وأسلمهم عقلاً وأوفرهم منطقًا، وإنَّ الجرمان من أوسعهم فكرًا وأبعدهم نظرًا وأشدّهم ثباتًا وأصدقهم صبرًا، وإنَّ السلاف من أعظمهم إخلاصًا وأشدّهم اندفاعًا إلى غاية وأكثرهم عددًا. وكلّ هذه الأمم على تباين ما بينها تجمعها جامعة فكرية واحدة هي: إنَّ الإسلام لا يحسن بقاؤه في الأرض.

وأمّا الأمم الإسلامية فعدا كونها لا تزيد على نصف عدد الأمم المسيحية، أي ٣٥٠ مليونًا بإزاء ٧٠٠ مليون وزيادة، فهي مؤلّفة من أجناس إذا رفعت من بينها العرب والترك والفرس لا يمكنها أن تقاس بالأجناس الأوربية في كثير ولا قليل، سواء كان في الأرواح أو في الأجسام، فالفرق واقع لا بالكمّية فقط بل بالكيفيّة.

فهذه هي أيضًا من أعظم الأسباب في تأخّر الإسلام وكثرة العوائق في طريق تقدّمه، لأنَّ الإنسان إذا كان هو بنفسه أصبح ضعيفًا بإسرافه على نفسه، وكان قرنه الذي يصارعه قويًّا ضليعًا كان مآل أمره لا محالة إلى السقوط، لأنه يكون اجتمع فيه ضعف على ضعف أحدهما داخلي والآخر خارجي.

ومع أنَّ المسيحيين غلبوا على أكثر البسيطة وهم يناهزون ثمانمائة مليون آدمي كلّهم من الشعوب الراقية المتميّزة في العقول والهمم والأبدان والألوان تجدهم من شدّة حرصهم يضربون في مناكب الأرض حتّى يتبسّطوا في زاوية من مجاهل أفريقية كانت لم تطأها أقدامهم ويبذلون ملايين لأجل تنصير عشرين زنجيًّا ممَّن يقال فيه "وأسود مشفره نصفه" كان كلّ ما هم فيه من سلطة وبسطة ووفرة عدد غير كافيهم وإنّك لتراهم عطاشًا والماء في فيهم.

فهل يا ترى إذ انتدبنا المسلمين إلى جزء من ألف أو جزء من مائة ألف ممّا يتطوّع له المسيحيون من البذل لكسب بلاد أو عباد خطر ببال أحد منهم تلبية هذه الدعوة؟ أفليس في هذا دليل كافٍ على ما بين الفريقين من الفرق الشاسع في درجة الحياة؟ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

جنيف، ١٣ ربيع الأول ١٣٥١هـ/١٧/٧/١٩٣٢م

شكيب أرسلان

أسباب تأخّر[1] المسلمين ★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

جاء في مقالتي الماضية سهو شطّ به القلم فيما يتعلّق بعدد المسيحيين في العالم، فالحقيقة أنهم لا يناهزون ثمانمائة مليون ولا سبعمائة مليون، وإنَّما هم من ٦٤٠ إلى ٦٦٠ مليونًا.

وعلى كلّ حال، فالمسلمون يبلغون نصف عدد المسيحيين لا أكثر.

ثمَّ إنَّه لقد خطر ببالي أنَّ أجمل في عبارات معدودات ما قدّمته في رسالة «لماذا تأخّر المسلمون» وفي المقالة الأخيرة في «الفتح» من عوامل هذا التقهقهر فأقول:

١- ترْكُ المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم وفقدُهم بذلك أعظم قوّة معنوية.

٢- إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم بذلك أعظم قوّة مادّية.

٣- الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة، واللهو بالقشور عن اللباب.

٤- اليأس من رحمة الله وفقد الثقة بالنفس.

٥- استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزّة الإسلام القومية. ومن رأى نفسه حقيرًا صار حقيرًا.

٦- مواطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إيّاهم ولو على محو الإسلام.

٧- فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية.

٨- عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيّات والشركات مع أنهم مأمورون بالتعاون، ويد الله مع الجماعة.

٩- فساد الأخلاق، وهو من إهمال العمل بالكتاب والسنّة.

١٠- فساد أخلاق الأمراء خاصّة وتصريفهم الأمور بحسب أهوائهم الشخصية لا بحسب مصلحة الأمّة، وسكوت الأمّة من جهلها عنهم.

---

(١) انظر الملحق رقم ١، «لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم».

★ الفتح، العدد: ٣٠٦، السنة السابعة، القاهرة (١٦ ربيع الثاني ١٣٥١هـ/١٩/٨/١٩٣٢م)، ص ص. ١-٢.

١١- فساد العلماء الذين هم القوّة المراقبة للحكومات، وتدليسهم للأمراء الظالمين وأحيانًا لأعداء الدين.

١٢- العداوة القديمة بين المسلمين والمسيحيين وإصرار أوربة عليها.

١٣- تفوّق المسيحيين في العدد.

١٤- تفوّق الشعوب المسيحية في المواهب الفطرية على الشعوب الإسلامية ما عدا العرب والترك والفرس وبعض شعوب إسلامية صغيرة.

١٥- طمع الإفرنج الشهير مع مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام.

١٦- ثبات الإفرنج وصبرهم العجيبان، وسيرهم على خطط مرسومة يتّبعونها منذ مئات من السنين بدون ملل ولا فتور وسير المسلمين في الدنيا بدون برنامج.

١٧- تخييم الجهل على الأمم الإسلامية بتراكم الأسباب المسرودة أعلاه.

١٨- عدم تجدّد برامج التعليم، واستيلاء الجمود على الفقهاء وكثرة الكلام عن الآخرة، مع أنّ الإسلام دين دنيا وآخرة معًا لا يتمّ بدون جمع أسبابها معًا.

١٩- الدعايات الاستعمارية والوساوس "التبشيرية" بين المسلمين ومساعدة الجهل على رواجها.

٢٠- اجتماع فوائد الاستعمار الأوربي في بلاد الإسلام مع بغض الأوربي للمسلم بطبيعته.

وهذه الحالات كلّها مرتبطة بعضها ببعض وهي أشبه بالأمراض التي إن ظهر منها مرض في الجسم وتقوّى لم يلبث أن نبّه أمراضًا أخرى كانت ساكنة.

وبالاختصار المسلم أهمل واجباته الدينية كمسلم وأهمل واجباته الدنيوية كإنسان، فوقع في ما وقع فيه من استيلاء عدوّه عليه وصار الضعف يجرّ بعضه بعضًا.

ولن يخلص المسلم من هذا المأزق إلاّ بالعلم. وهو علمان أحدهما روحي يأخذه من القرآن والآخر دنيوي يأخذه من العلوم العصرية.

جنيف، ٢ ربيع الثاني ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٨/٥م

شكيب أرسلان

أصل إسلام البوشناق *

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

بينما كنتُ مؤخّرًا في سراي بوسنة أطلعني بعض الإخوان على عدد من "نور الإسلام" مجلّة الأزهر ورأيت فيه بحثًا متعلّقًا بالمسلمين في يوغوسلاڤيا مترجمًا عن "دليل العالم الإسلامي" المحرّر بالإفرنسية. وبعد أن أنعمت النظر فيه وجدت فيه أغلاطًا تاريخية وإحصائية ككثير ممّا في هذا الدليل. وما أظنّ صاحبنا الأستاذ العلاّمة الشيخ محمّد خضر حسين رئيس تحرير المجلّة اطّلع على هذا الفصل قبل نشره في المجلّة إذ لو كان اطّلع عليه لما سمح بنشره فيها.

فالمسألة الأولى إحصاء مسلمي يوغوسلاڤيا جميعًا بمليون وثلاثمائة ألف نسمة أو أكثر قليلاً.

والحقيقة أنَّ مسلمي يوغوسلاڤيا بحسب الإحصاء الأخير يبلغون مليونًا وسبعمائة وستّين ألف نسمة.

وهذا الفرق قد يكون له وجه وهو أنَّ الإحصاء الأول قديم منذ تأسيس مملكة يوغوسلاڤيا بعد الحرب العامّة، وقد ازداد عدد المسلمين في هذه السنوات الأخيرة. غير أنَّ الأقرب إلى الصواب أن يكون الإحصاء الأول من أصله ناقصًا، كإحصاءات كثيرة واردة في الدليل المذكور، لأنه ليس من المعقول أن يزداد عدد المسلمين أربعمائة ألف نسمة في مدّة ثلاث عشرة سنة، وهم جميعًا نحو من مليون ونصف. قد هاجر من ولاية أسكوب عشرات ألوف من الأتراك إلى تركية. فلا مراء في أنَّ الإحصاء نفسه من أصله ناقص عن الحقيقة.

ولكن هذا الخطأ مغتفر في جانب خطأ آخر فظيع، وهو زعم الدليل أنَّ مسلمي هذه الديار كانوا نصارى وأنَّ الأتراك في زمن محمَّد الفاتح حملوهم على الإسلام "بالسيف!" (كذا).

ففي هذا القول أفتئات على التاريخ من وجهين؛ الأول زعمه أن هؤلاء الأهالي كانوا

---

* الفتح، العدد: ٣١٠، السنة السابعة، القاهرة(١٤ جمادى الأول ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٩/١٥م)، ص ص. ١-٢.

نصارى، ممّا يوهم أنهم كانوا نصارى بالمعنى المعروف أي يقولون بثلاثة أقانيم في الإله وبألوهيّة عيسى عليه السلام. والثاني زعمه أنهم إنّما أسلموا بالقوّة لا بمقتضى وجدانهم.

ومن الغريب أن تنقل هذا القول مجلّة هي لسان حال الأزهر وهي أدرى من كلّ أحد بأنه ﴿ لا إكراه في الدين﴾[1] وأنَّ المسلمين في جميع فتوحاتهم لم يخرجوا عن العمل بهذه الآية الكريمة.

أمّا أجداد أمّة البوشناق المسلمين فلم يكونوا نصارى بالمعنى المعروف، بل كانوا فئة يقال لها "بوغوميل" Bugomile، كان منها طائفة في بلاد البلغار، وكان منها نفر في إيطالية. ويقال لهم أيضًا "باتارين" ومعناه "محبّو الله". ولم يكونوا يعتقدون بالتثليث ولا بألوهيّة المسيح، ولم تكن لهم كنائس. وقد رأيت في سياحتي هذه كثيرًا من قبورهم فهي ليس عليها صلبان ولا شيء من رموز النصرانيّة، بل هي أشبه بالنواويس. وكانت هذ الفئة تأبى أن تترك عقيدتها هذه فشقّ ذلك على الباباوات فأخذوا يضطهدونها بواسطة ملوك المجار. وأخذ هؤلاء يضيّقون على هؤلاء "الباتارين" ويجبرونهم على الكثلكة. فنفروا وازدادوا تمسّكًا بعقيدتهم. ولمّا كانت هذه العقيدة تشبه الإسلام من جهة سيّدنا عيسى، عليه السلام، مالوا إلى الإسلام، وأخذوا يدخلون فيه من قبل فتح الأتراك لبوسنة بمدّة طويلة. ثمَّ لمّا جاء محمَّد الفاتح واستولى على مملكة بوسنة دخل سائر هذه الفئة في الإسلام لأنها فئة كان فيها استعداد خاصّ للإسلام بسبب تشابه العقيدة، ولكون سائر الأمم المسيحية التي كانت تحيط بها كانت تخالفها في الاعتقاد وتضطهدها. ومذ ذاك الوقت أسلم أجداد البوشناق بمقتضى وجدانهم وحسُنَ إسلامهم ويا ليت جميع المسلمين اليوم مثل مسلمي بوسنة والهرسك في مجموع أحوالهم.

فهذه هي الحقيقة في إسلام البوشناق، والمحقّقون والمؤرّخون يعلمونها. وأمّا الذين دأبهم بثّ السموم، مثل أصحاب "دليل العالم الإسلامي" وأضرابهم، فهؤلاء من أجل دعايتهم المعلومة يريدون أن يوهموا الناس أنَّ مسلمي هذه البلاد قد أُجبر آباؤهم على الإسلام إجبارًا، ولو سألتهم عن انتشار الإسلام في جميع أقطار الأرض لأجابوك أنه انتشر بالسيف! ولم يخجلوا من التاريخ ولا من الحقّ.

---

(١) سورة البقرة، رقم ٢، الآية: ٢٥٦.

ولكن قد تغلّبت الحقيقة التاريخية في الآخر، ولله الحمد، وصار العلماء المنصفون في أوربة يعترفون أنه لم توجد ملّة عرفت من التسامح في الدين ما عرفه الإسلام.

وبطلان قول "دليل العالم الإسلامي" الإفرنسي من جهة إسلام البوشناق بالسيف! ظاهر بالبداهة إذ لو كان ذلك صحيحًا لما كان يعقل أن يبقى ثلثا الأهالي في بوسنه والهرسك على النصرانيّة كاثوليكًا أرثوذكسًا، بل كان ينبغي أن يكون الجميع أسلموا. فلماذا لم يرعَ السيف إلاّ هذا الثلث فقط؟ ولماذا بقيت أكثريّة أهالي البلقان نصارى متمتّعين بجميع حقوقهم الدينية، وأحرارًا في إقامة شعائرهم ولهم كنائسهم ورهبانهم وأحبارهم وبطاركتهم في ظلّ آل عثمان. وهؤلاء لهم امتيازاتهم الواسعة كما يعلم ذلك كلّ من شدا شيئًا من تاريخ سلطنة آل عثمان. فإين كان ذلك السيف حينما كان أكثر البلقانيين كما هم اليوم نصارى وهم يتمتّعون بحرّيتهم الدينية بأوسع معانيها؟

لا جرم أنه ما أسلم أحد في بلاد البلقان إلاّ بمقتضى وجدانه. وأنصع دليل على ذلك أنَّ الإسلام وجد في البلقان قبل الفتح العثماني بكثير. والمجار يذكرون في تاريخهم وجود فئة مسلمة بينهم كانوا يقولون لها "الاسماعيلية" منذ نيّف وسبعمائة سنة، وقد كان من هذه الفئة في بلاد البلغار أيضًا. ثمَّ انقرضت هذ الفئة من بلاد المجار من قبل الفتح العثماني، ولا نعلم بأية صورة كان انقراضها. وقد ذكر ياقوت الحموي هذ الفئة المسلمة في بلاد الهنكر وذلك في القرن السابع للهجرة ونقل عن بعضهم ممّن جاءوا يتفقّهون في حلب أنهم ثلاثون قرية كبيرة، وأنَّ ملك الهنكر لا يضطهدهم لكنّه يمنعهم من بناء أسوار حول بلدانهم لئلاّ يعصوا عليه. فأنت ترى أنَّ الروايات متطابقة بين مؤرّخي المجار ومؤرّخي العرب في هذه المسألة ومنها يستدلّ على أنَّ الإسلام قد وجد في البلقان قبل فتح الأتراك للبلقان بكثير. وقريبًا سأصدر كتابًا أسمّيه "الحلّة السنّية في الرحلة البوسنيّة" أذكر فيه سياحتي في هذه الأيام الأخيرة إلى بلاد المجار ويوغوسلافيا وألخّص فيه هذه المباحث إن شاء الله تعالى. وبالاختصار فكلام الكتاب الإفرنسي المسمّى بـ"دليل العالم الإسلامي" في مسألة إسلام البوسنويين افتئات وافتراء ككثير ممّا يكتبون في أوربة.

بودابست سلخ، ربيع الثاني ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٩/١٥م

شكيب أرسلان

إهمال المسلمين لأنفسهم
سبب جميع هذه البلايا النازلة بهم*

بقلم كاتب الشرق الاكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قد جاء في العدد ٣٢٦ من «الفتح» مقالة لصاحبها الأستاذ يصف فيها ـ نقلاً عن صديق له من اليمن زار بلاد الصومال في هذه الأيام ـ الدركات السفلى التي تدهور إليها مسلمو تلك الأقطار والتي جعلت الأوربيين لا يرون فرقًا بينهم وبين العجماوات. وليس الصوماليون وحدهم هم الذين بهذه المنزلة الدنيا عند الأوربيين، بل العرب اليمانيون أيضًا لا يمتازون في نظر الإفرنج عن الحيوانات.

وقد ذكر اليماني مراسل الأستاذ صاحب الفتح القاعدة التي أوجبها الأوربيون في وسط بلادهم، وهي أنه إذا مرّ السيِّد الأوربي في الطريق وجب على المسلم الصومالي أو العربي على حدٍّ سواء أن يتنحّى له عن وسط الطريق وإن كان جالسًا أن ينهض. وفي كلتا الحالتين أن يرفع يديه علامة للخنوع. ولقد تجرّأ شريف يماني حديث العهد بتلك الديار أن يبقى قاعدًا عند مرور ضابط إيطالي أمامه فضربه الضابط فدافع اليماني عن نفسه، فحكموا عليه بالسجن ٢٥ سنة لأنه تجرّأ على مقابلة الضابط بالمثل. فهذه القاعدة هي التي أوجبها الطليان على المسلمين في طرابلس الغرب. وهي في الحقيقة لا تضرّ المسلمين بقدر ما تضرّ الطليان الذين زرعوا من البغضاء في القلوب لكلّ شيء طلياني، ما لا تمحوه الأعصر. ومما ذكره المراسل أنه لمّا وصلوا إلى مدينة كذا وأرادوا أخذ الإشارات على جوازاتهم لم يكونوا يعلمون أنه من الواجب عليهم نزع طرابيشهم وعمائهم ورفع أيديهم علامة على العبوديّة، فأدّى بهم جهلهم بهذا الواجب إلى إهانة لم تخطر لهم على بال وإلى الحبس بضع ساعات، ولم يفرج عنهم إلاّ بعد فحص دقيق عميق.

وقد ثبت أنَّ في تلك البلاد الصومالية عدا مسلميها الأصليين خمسين ألف عربي من اليمن وحضرموت وعمان بلغ بهم الانحلال أن اندمجوا في الصوماليين، وأنَّ كثيرين منهم

* الفتح، العدد: ٣٢٩، السنة السابعة، القاهرة (آخر رمضان المبارك ١٣٥١هـ/١٩٣٣/١/٢٦م)، ص ص. ١ ـ ٤.

تركوا اللغة العربية، وأنَّ قصارى أمرهم هو أن يُكتتبوا جنودًا في جيش إيطالية ويفتخروا بأنهم قاتلوا في خدمتها مسلمين آخرين تريد إيطالية أن تستعبدهم.

وذكر المراسل ـ وعلمنا ذلك من مصادر أخرى ـ أنَّ مساجد هناك تحوّلت إلى كنائس من تفريط المسلمين بها.

ولا شكّ أنَّ «المبشّرين» ستكون لهم في بلاد الصومال غزوات وجولات يرنّ صداها في المستقبل بعد أن انحطّ الإسلام فيها هذا الانحطاط الشائن الهائل.

والأستاذ صاحب الفتح[1]، الذي هو من أطبّاء أمراض الإسلام الذين ندر نبوغ أمثالهم في هذا الباب، يذكر هذه الأحوال المخجلة المؤلمة التي عليها العرب في بعض بلاد أفريقية بجهلهم وانحطاطهم وسقوطهم، وفقد التربية والإرشاد ونبذ الدين والعلم ظهريًّا، وإهمال سادة العرب وخواصهم لنشر العلم والفقه في عوام هذه الأمّة، بينما الحضارمة في بلاد الجاوى منغمسون في فتنة العلوية والإرشادية، والحقيقة أنهم منغمسون في شتم بعضهم بعضًا، والقذف حتّى في السلف الذين لا يجوز القذف بهم. والإرشادي ما عاد يقبل أن يسبّ العلوي الحاضر، بل وصل في السبّ إلى سيّدنا علي نفسه، على حين أنه من الجهة الأخرى ينكر نسب علويّة حضرموت إلى علي رضي الله عنه. والعلوي الحضرمي يرى أنه تخرب الدنيا إذا قيل لأحد من غير العلوية «سيِّد»، بل هم مصرّون على احتكار هذا اللقب بمعناه اللغوي والاصطلاحي وكلّ معنى. وهم يتحمّلون كلّ هذا القذف بقديمهم وجديدهم وطارفهم وتليدهم من أجل أن لا يقال «سيِّد» إلاَّ للعلوي. وإذا قيل لهم: هؤلاء سلالة آل البيت في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب كلّها أشراف مثلكم ولا يغضبون أن يلقّب غيرهم بلفظة «سيِّد» ملاحظة لمعناها اللغوي ولم ينقص هذا التسامح في لفظة «سيِّد» مقدار ذرّة من سيادة هؤلاء الأشراف في جميع هذه الأقطار أجابوك: هناك شيء وهنا شيء آخر! وقد صار الفريقان مضغة في أفواه الناس، وقد خجلت بهذه الفتنة التي لم يعد بها نهاية جميع الأمّة العربية، بل جميع مسلمي الجاوى وضجّت الأرض وضجرت السماء والإرشادي يشتمّ العلوي والعلوي يحمل على الإرشادي. وإلى هذه الساعة هم غير منتهين، وما أعظم

(١) محبّ الدين الخطيب، صاحب مجلّة الفتح ومحرّرها وقد ذكر في مقدّمها من مبادئها أنها «لأهل القبلة جميعًا، وإنَّ العالم الإسلامي وطن واحد، والمسلمون إلى خير، لكنّ الضعف في العبادة، أنت على ثغرة من ثغور الإسلام، فلا يؤتينّ من قِبلك. اعمل ليراك الله وحده، وتوارَ عن أنظار الناس، الفتح رسالة الأقطار الإسلامية بعضها إلى بعض، الفتح رابطة روحية بين قرّائه». [المحقّق]

شتمنا نحن العرب بعضنا على بعض وما أشمخ أنوفنا على أبناء جلدتنا ومن هم منّا؛ فأمّا على غير قومنا فلا نعرف شيئًا من عزّة النفس، وأمّا أمام الأوربي فأصغر الصاغرين نتحمّل سيادته بكلّ قبول، ونراها شيئًا طبيعيًّا له الحقّ فيه ولا ننافس ولا ننازع وكما قال المثل العامّي الشامي: جحا ما فيه إلاَّ لخالته.

وما أحسن ما قاله الأستاذ محبّ الدين الذي يشفي الغليل بكلماته: «آباؤنا أوصلوا الإسلام إلى بقاع لا نعرف الآن أسماءها، والأوربيون يعانون الآن المشقّات في تخليص تلك البقاع من الإسلام، ونحن مشغولون في اختلافاتنا ومناقشاتنا وأعمالنا الصبيانية وأنانيتنا الحقيرة وشهواتنا الدنيئة وكبريائنا الذليلة فاللهمّ رحمتك».

نعم، كبريائنا الذليلة، وهذا أحسن وصف لها، لأنها كبرياء بعضنا على بعض لا غير. فأمَّا على الإفرنجي فحاشانا من الكِبر والعظمة، بل حاشانا من الأنفة والإباء، بل حاشانا من الكرامة ومن حرمة أنفسنا. ولو جال العربي الشريف ـ إذ لا يزال ولله الحمد في هذه الأمّة من يستحقّ هذا النعت ـ في جميع المستعمرات الأوربية التي فيها عرب، لرأى ما يقطر له قلبه دمًا من هذه الجهة.

وكلّ هذا منشؤه إهمال أحكام القرآن الذي أراد أن يجعل المسلم سيِّدًا حقيقيًّا ويسلّحه من الآداب والفضائل بكلّ ما يكفل له هذه السيادة. فترك العمل بكتابه الكريم وخاض في الشهوات الخسيسة وأنزل مقام تلك النفس التي أراد الله أن يجعلها نفيسة، وكان أعظم ما أهمله بإهمال الأوامر القرآنية هو العلم الذي من أهمله أصبح هملاً وأصبح لا يحسن عملاً. وكيف تريدون أنَّ دولة استعمارية أوربية تقيم للمسلم وزنًا، وهو لم يقم وزناً لنفسه. وكيف تطمعون أنَّ الإفرنجي الذي جبل دمه ولحمه من ١٤ قرنًا ببغضاء المسلم يحترم هذا المسلم الذي يراه أمامه غير مكترثٍ لشيء من عزائم الأمور. يرى المسلم جريحًا في أخلاقه فهو يقصد الإجهاز عليه حتّى لا تقوم عليه قائمة. يرى المسلم قد رئم إلى الذلّ[1] وألف المهانة فهو يريد أن يزيده منها حتّى لا تصعب عليه فيما بعد وحتّى لا يشقّ عليه شيء من كلّ ما يريد أن يحمله عليه من المظالم والمغارم، وحتّى لا تحدّثه نفسه بالقيام على الأوربي:

من يهُن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميّتٍ إيلامُ

(١) ألفَهُ.

والمسلمون يرى بعضهم بعضًا بهذه الحالة من التردّي والتدهور ومن استئساد الأجانب عليهم ولا يعيدون ولا يبدون كأنهم أموات.

وعندهم مرض فاش فيهم جميعًا، هو مرض التواكل، وذلك أنَّ كلّ إنسان منهم يقول: أنا مالي ولهذا الأمر، فهذا له أربابه!

وهكذا أصبحت كلّ هذه الأمّة مركّبة ممّن يقول: (أنا مالي)، ولم يبقَ لهذا الأمر أرباب أصلاً، لأنَّ الأمّة التي لا يعرف كلّ فرد من أبنائها أنَّ عليه هو أن يفي بالواجب عليه نحو جماعة المسلمين لا يمكن أن يقوم فيها أرباب، والجيش إن لم تكن فيه جنود لم تكن له قوّاد.

من فكّر من المسلمين أو من العرب في تهذيب مسلمي الصومال العربي منهم أو الوطني؟ وهل إذا فكّر منهم صاحب حمية بفتح مدرسة ابتدائية هناك وأراد أن ينفق عليها من ماله شيئًا وجد من يشاركه في النفقة؟ ولعلّه إذا فتح مدرسة هناك جاء له حاسد أو عدوّ فوشى به لدى الطليان وقال لهم: هذا رجل عدوّ لإيطالية يبثّ الفساد بواسطة هذه المدرسة!

ألم يحصل ذلك بعينه في جيبوتي؟

حاول رجل من أماجد العرب في جيبوتي أن يفتح فيها مدرسة عربية نظرًا لجهل عوامها وحرمان أطفال المسلمين من كلّ تربية إسلامية. فقام بعض حسّاده من أنفس العرب ووشوا به إلى الفرنسيين سادة جيبوتي قائلين: إنَّ هذه المدرسة غير مقصود بها إلاّ الفساد وزرع الأفكار المضرّة بفرنسا.

وبقي قاصد هذه المبرّة يسعى في جيبوتي وفي نفس باريز ويتوسّل بجميع الوسائل إلى أن أخذ الإذن بتأسيس هذه المدرسة وبذل عليها مالاً ليس بقليل.

فأرسل هؤلاء الحسّاد من اعتدى على مدير هذه المدرسة وضربه ضربًا مبرحًا وكسر من أعضائه. لم يقدروا بالوشاية السافلة أن يمنعوا فتح هذه المدرسة العربية الإسلامية، فلجأوا إلى الانتقام عن فتحها بضرب مديرها وجرحه.

ليس الرهبان ولا المبشّرون هم الذين قاوموا فتح هذه المدرسة الإسلامية العربية الوحيدة هناك. كلاَّ، بل هم عرب أقحاح وممّن يقولون إنَّهم مسلمون وربّما كانوا ممّن يصلّون ويصومون.

ولهذه الحكاية تتمّة، وهي أنَّ ضرب مدير المدرسة أوجب شكوى ودعوى وتحقيقات وحكمت محكمة التأديب على الضاربين، ووجب تأديبهم بالسجن مدّة أشهر. فاستأنفوا الحكم وزعموا أنَّ المدرسة هي مدرسة مؤسّسة على بثّ الفساد بحقّ فرنسا وأنَّ لصاحبها علاقة بشكيب أرسلان عدوّ فرنسا، والرجل الشيوعي المعروف!!!

قالوا هذا في وسط المحكمة والناس تسمع.

لم يقل هذا المسيو بولان في «الطان» ولا فانلاند في جريدة «الأيكودو باري» ولا «الأكسيون فرانسيز» ولا «الجورنال» ولا «الفيغارو» ولا «الدبيش كولونيال» ولا مجلّة «لافريك فرانسيز» ولا «لاڤوا فرانسيز» في مراكش ولا «لافوا دو فرانس» فيها ولا «آنال فورد أفريكان» في طنجة ولا «لاديبيش الجيريان» في الجزائر ولا واحدة من هذه الجرائد الاستعمارية المتعصّبة، التي تريد أن تهيّج الرأي العامّ الإفرنسي على شكيب أرسلان جزاء مقاومته للاستعمار وأذنابه ونضاله عن الإسلام وأبنائه والتي شكيب أرسلان يرى طعنها فيه شهادة بحُسْن حاله.

ولكن جاء يقول هذا أمام محكمة جيبوتي أناس يقولون إنَّهم عرب وإنَّهم ما شاء الله مسلمون...

وهم لا يعرفونني ولا أعرفهم وليست بيني وبينهم أدنى علاقة لا خير ولا شرّ. كما أنه، والله يعلم، ليست لي أدنى علاقة لا خير ولا شرّ مع السيِّد علي كبيش مؤسِّس هذه المدرسة ولا هو يعرفني ولا أنا أعرفه، ولا في حياتي كتبت إليه ولا هو كتب إليَّ. ولكنّي أقول: جزاهُ الله خيرًا عن فتح هذه المدرسة.

ولا يهمّ مثل هؤلاء أن أكون أنا من أشدّ المقاومين للشيوعية، الناشرين لأخبار مضارها وأن تكون جرائد موسكو حملت عليّ بأشدّ ممّا حملت عليّ جرائد فرنسا، وأن أكون قدّمت إلى المؤتمر الإسلامي بحقّ الشيوعية تقريرًا شديدًا قرئ في وسط المؤتمر. هذا لا يهمّ من لا وجدان له. وكيف تنشد الوجدان عند من يذهب إلى فرنسيس جيبوتي ويغريهم بمنع تأسيس مدرسة هي العربية الإسلامية الوحيدة في بلدة فيها عشرة آلاف مسلم ويقول لهم: عندنا مدارسكم فما حاجتنا إلى مدرسة عربية.

كونوا على ثقة أنَّ بين هؤلاء الخمسين ألف عربي الذين في بلاد الصومال خمسة آلاف جاسوس بالأقلّ للسلطة الإيطالية، يتزلّفون إليها بالوشايات والسعايات بأبناء العرب وبالمسلمين إجمالاً، ويدلّونها على ما لا تعرفه من مواقع الضرر.

أيها المسلمون ما دامت فيكم هذه الأخلاق فلا نجاح لكم لأنَّ الأمّة التي ليس لها أخلاق فليس لها خَلاق.

وإذا كانت فيكم، ولو في جزء منكم هذه الأخلاق، ولم تبادروا إلى استئصالها وإماطة معرّتها ومضرّتها فتكون هذه الأخلاق عامّة للجميع، لأنَّ على المسلم أن يزيل المنكر بسيفه فإن لم يقدر فبقلبه، وهو أضعف الإيمان.

لا تنتظروا تقويم اعوجاجكم وإصلاح أخلاقكم من الدول الأوربية الاستعمارية، لأنَّ من أركان الاستعمار ابتياع الضمائر والذمم، وتجنّب نشر العلم ما أمكن، والاجتهاد في تعويد الناس شرب المسكّرات، والسعي في إفساد الأخلاق.

اعتمدوا في إزالة هذه الأخلاق على أنفسكم، وأدّبوا أنتم بأيديكم من لم يتأدّب منكم بآداب القرآن، وما كره الأوربيون المستعمرون هذا الكتاب العظيم، القرآن، إلاَّ لكونه الكتاب الأستاذ في الأخلاق.

ولو عمل المسلمون بالعُشر من عزائم القرآن ما بقي منهم ولا طائفة تحت سلطة أجنبية. «ولله الأمر من قبل ومن بعد»[1].

جنيف، ٢١ رمضان ١٣٥١هـ/١٨/١/١٩٣٣م

شكيب أرسلان

---

(١) سورة الروم، رقم ٣٠، الآية: ٤.

فتنة الحضارم في الجاوى
وضجيج العالم الإسلامي منها ★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

منذ سنتين فأكثر هذه الفتنة قائمة بين العلويين والإرشاديين في بلاد الجاوى، وكلّ من الفريقين ينادينا لأجل التدخّل في إطفاء نارها، وأنا أضبط نفسي عن الدخول فيها وأكتفي من وقت إلى آخر بكلمات لا أخرج بها عن خطّة الحياد.

ولو شئت أن أذكر الرسائل التي تواردت عليّ بهاتين السنتين في موضوع وساطتي بالصلح لطال بي الأمر وملَّ من ذلك جميع القرّاء.

وما كان إمساكي عن خوض هذه المخاضة استخفافًا بأمر هؤلاء الإخوان، سواء كانوا من العلويين أو الإرشاديين، أو عدم شعور بألم هذه الكارثة الواقعة فيما بينهم، مع أنها كانت من أشدّ ما بُلي به الإسلام عمومًا والعرب خصوصًا في هذه السنوات الأخيرة.

ولكنّي كنت أخشى أني إذا بدأت بتشريح هذه القضيّة والتصريح بأغلاط الفريقين المتنازعين لم أملك نفسي أن أجرح كلاًّ منهما، فتكون النتيجة غضب هؤلاء وهؤلاء في وقت واحد، ولا تتقدّم قضيّة الصلح إلى الأمام بما يكون غاظهم من قارص انتقادي.

وما زلت أضبط نفسي عن الدخول في هذا المعمعان وأكتفي بالنصائح والمواعظ في ضمن الأجوبة الخصوصيّة على الكتب الواردة إليّ من الفريقين، إلى أن سمعت بأنَّ السيِّد ابراهيم عمر السقاف والشيخ أحمد السوركتي قد توصّلا إلى إيجاد حلّ لهذه القضيّة، وأنّهما وضعا نصّ اتّفاق رضيت به الفئتان المتخاصمتان فحمدنا الله تعالى على هذه البشرى وقلنا قد كفى الله المؤمنين القتال.

ولكن لم يطُل أمد هذه الفرحة، مع الأسف، وعدنا فسمعنا أنَّ الاتّفاق وقعت عليه اعتراضات من الفريقين بتأويلات وتعليلات، هي أدقّ وأعقد وأصعب وأعضل من مجادلات

★ الفتح، العدد: ٣٤٢، السنة السابعة، القاهرة (٢ المحرّم ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٤/٢٧م)، ص ص. ١ـ٣، ١٤ ـ ١٥.

المتكلّمين واللاهوتيين في الصفات الإلهية، ومشاحنات المعتزلة والأشاعرة والمأريدية والحنابلة، ... إلخ. فرجع الفريقان عن الصلح وأخفق المصلحان في عملهما وتغلّب على كلّ منهما رهطه، مع كونهما بدون شكّ من أفضل الناس وأحسنهم نيّة.

وبينما نحن نتأوّه على حبوط هذا الاتّفاق وكون الأمر عاد كما بدأ، جاء حضرة السيِّد ابراهيم السقاف إلى أوربا وتكرّم بزيارتنا أنا وزميلي إحسان بك الجابري في جنيف، وأقام عندنا بضعة أيام كانت السُّداة فيها واللُّحَم حديث الاختلاف بين العلويين والإرشاديين. وبرغم ما وقع في أنفسنا من محبّة هذا السيِّد والحرمة له بقينا أيضًا ملازمين خطّة الحياد، لا لأنه يهون علينا هذا الأمر الواقع بين الحضارم وهم أبناء عمّ لنا وعرب مثلنا، ولا لأننا نجهل قبح الأحدوثة الواقعة بحقّهم بين مسلمي الجاوى لا بل بين مسلمي الأرض، لكن لأننا كنّا نعلم أنَّ كلاًّ من الفريقين راضٍ بأغلاطه، عاذر لنفسه، ممتلئ اعتقادًا بأنه على صراط مستقيم؛ وإن لم يكن الأمر كذلك.

لا أريد الآن كتابة تاريخ هذا الخلاف فقد يبلغ عدّة مجلّدات لمن حمل نفسه على تأليف كهذا، وليس عندي وقت لمثل هذا التأليف ولكنّي أجتزئ بنبذة يقيس عليها القارئ. فقد وصلت الأمور إلى أننا أصبحنا مضطرّين إلى الكلام ولو جرح الفريقين معًا وأوجب علينا سخطهما. أمَّا العلويون فمن أعظم أسباب استنكافهم عن الصلح بعد أن أوشك ينعقد لفظة "سيِّد" التي يزعمون أنها خاصّة بهم لا يجوز إطلاقها على أحد من غير آل البيت. تحمّل العلوين جميع هذه الشتائم وتعرَّضوا لجميع هذه الأكدار في أنفسهم وإحساساتهم ومصالحهم، ذلك في سبيل الاستئثار بلفظة "سيِّد" وتراهم يعدّون هذا التمسّك من الأمور البديهية التي لا يجوز أن يختلف في بداهتها اثنان.

وهم يتصفّحون الكتب وينقلون منها: قال فلان الفلاني في الصفحة الفلانية من كتابه الموسوم بكذا: إنَّ لقب "سيِّد" هو لآل البيت، كما قال السيِّد رشيد رضا ما هو كيت وكيت. وقال شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي: يقال "سيِّد" لكلّ من انتسب إلى العترة الطاهرة، ... إلخ.

نعم يا سادتي، لا إنكار أنَّ لفظة "سيِّد" تطلق على ذرّية الحسن والحسين من فاطمة الزهراء وسيِّدنا علي رضي الله عنهم جميعًا، وهذا أمر معروف عند كلّ أحد، لكنّه معروف

بالاصطلاح لا بالمعنى اللغوي. فأمّا بالمعنى اللغوي فالسيِّد هو كلّ ذي سيادة. وليس كلّ من خرج عن آل البيت لم يستحقّ شيئًا من السيادة، فقد يوجد أصحاب سيادة فكيف يمكننا أن ننكر عليه صفة "سيِّد" فإنّنا إن أنكرنا صحّة نعته بلفظة "سيِّد" نكون أبطلنا اللغة العربية. والحكم في هذه المسألة هو هذا: إنّ "السيِّد" بالمعنى اللغوي يصحّ استعماله لكلّ إنسان ذي سيادة من آل البيت أو من غيرهم ومن غير المسلمين أيضًا. وإنّ "السيِّد" بالمعنى الاصطلاحي هو المنسوب إلى الذرّية الطاهرة أولاد فاطمة. وممّا يدلّك على أنّ هذا الاستعمال هو اصطلاح محض، أنّ الناس في الحجاز قد أطلقوا لقب "شريف" على أولاد سيّدنا الحسن و"سيِّد" على أولاد سيِّدنا الحسين رضي الله عنهما. فأيّ فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟ كلاهما من ذرّية فاطمة وعلي، ودرجة شرفهما واحدة. ولكن الاصطلاح في الحجاز هو هذا لمجرّد التفرقة بينهما.

نقول للسادة العلويين: إذا قيل لواحد من غيركم "سيِّد" فلا ينقص هذا من سيادتكم بمقدار ذرّة، لأنها تكون أطلقت عليه تجوّزًا أو توسّعًا أو بالمعنى اللغوي الذي لا يمكن إنكاره بوجه من الوجوه، إلاّ إذا بطل لسان العرب وإذا قيل للواحد منكم "سيِّد" فيكون هذا لقبه الرسمي وحسبكم ذلك تمييزًا.

ولكن هذا التعليل لا يعجب سادتنا أيّدهم الله، برغم كثرة الفضلاء والعقلاء منهم، ولا يريدون أن يشركهم أحد في هذا اللقب.

فنقول لهم: يا سادتنا لستم أنتم وحدكم بآل البيت في هذه الكرة الأرضية، بل هذه العترة الطاهرة قد انتشرت سلائلها في جميع العالم الإسلامي. وها نحن أولاء في برّ الشام عندنا ألوف من السادة العلويين في حلب ودمشق وطرابلس واللاذقيّة وبيروت وصيدا وحمص وحماه والقدس ونابلس ويافا، ...إلخ. ومنها بيوتات تعدّ في المقدّمة في صحّة النسب الفاطمي وقد وقّع على ذلك الإجماع وارتفع فيه النزاع، وفي الوقت نفسه كلّ مسلم في سورية على شيء من الوجاهة يقال له "سيِّد" ويكتب له "سيِّد"، ولا يغضب السادة العلويون ولا يعترضون ولا ينكرون هذا الأمر. بل النصارى أنفسهم يلقّبون أحبارهم بالسادة فيقولون السيِّد إلياس الحويّك بطريرك الطائفة المارونية، والسيِّد أغناطيوس مبارك مطران بيروت، والسيِّد غريغوريوس الحدّاد بطريرك الروم الأرثوذكس، والسيِّد كذا وكذا مطران السريان مثلاً. ولم ينحصر هذا الاصطلاح في الأحبار والبطاركة، بل تعدّى إلى جميع الوجوه من النصارى فيقولون السيِّد فلان طراد، والسيِّد فلان فيّاض، والسيِّد فلان

التويني، ... إلخ. ولا نجد السادة الحقيقيين من آل البيت سحبوا بروتستو في يوم من الأيام على استعمال "سيِّد" لوجوه المسلمين أو لوجوه النصارى، والأمور ماشية والسماء تمطر والشمس تشرق ولا أحد يختلف مع أحد من أجل هذه المسألة. فإنَّ الجميع يرون أنَّ لهذه اللفظة وجوهًا كلّ فريق يأخذ منها الوجه الذي ينطبق عليه. ومثل ذلك سادة العراق، ومثل ذلك سادة مصر، ومثل ذلك المغرب. كلّ هذه الأقطار فيها سادة أشراف من آل البيت يبلغون مئات ألوف ولا يمانعون ولا يدافعون غيرهم عن لفظة "سيِّد" ولا يرون أشراك غيرهم معهم في اللقب موجبًا إشراكه معهم في النسب.

يا سادتي، انظروا إلى آل عثمان سلاطين الإسلام من سبعمائة سنة. كان يقال لكلّ واحد منهم من ولي العهد إلى الآخر "أفندي" فلا تسمع إلاَّ وليّ العهد يوسف عزّ الدين أفندي، وثاني وليّ العهد وحيد الدين أفندي وثالث وليّ العهد عبد المجيد أفندي. وكلّ إنسان من آل عثمان إلاَّ السلطان فقط لقبه الرسمي في المخاطبات والمكاتبات "أفندي" كما يعلم كلّ أحد. والحال أنَّ أصغر مأمور في الدولة العثمانية وأصغر كاتب ممَّن معاشه قد يكون مائة وخمسين قرشًا يقال له أيضًا "أفندي". وربَّما كان يوجد في الأربعة عشر مليون تركي الذين تتألّف منهم تركيا الحاضرة ثلاثة ملايين بالأقلّ يطلق عليهم لقب "أفندي" لأنه لا يوجد لقب أعمّ وأشيع من هذا اللقب في تركيا سواء الماضية أو الحاضرة. أفقام آل عثمان أولئك السلاطين العظام والضخام وقالوا لقومهم: كيف أجزتم أن تخاطبونا بلقب "أفندي" وهو اللقب الذي يشترك معنا فيه ملايين من هذه الأمّة والذي لا يوجد لقب مبتذل فيما بينها أكثر منه؟ كلاَّ، لم يخطر ببال أحد من السلاطين آل عثمان ولا من أبنائهم أن يعترض هذا الاعتراض، بل رأوا أنَّ لفظة أفندي تسعهم وتسع غيرهم، وأنها إن أطلقت على حارس الغرفة ومحضر المحكمة أو أصغر كاتب في دائرة فلا ينقص من قدر أولاد السلاطين أن يتلقّبوا بها. ولقد استعمل الناس للباري تعالى شأنه صفات ونعوتًا أطلقوها على عبيده البشر فقالوا إنَّه الجوّاد وقالوا عن كلّ كريم جوّاد وقالوا إنَّه الرحيم وقالوا لذي الرحمة من الخلق رحيم، ... إلخ. وهذا بضرورة إفادة المعنى اللغوي. أفإذا جاز اشتراك الخالق تعالى مع عبده المخلوق في الاتّصاف بأوصاف دلّت عليها اللغة أفلا يجوز اشتراك البشر أنفسهم في تلك النعوت وهم كلّهم من طينة واحدة؟

ثمَّ إذا راجعنا التاريخ العربي لا نجد أنَّ استعمال لفظة «سيِّد» انحصر من قديم الزما بآل البيت. فدولة الموحّدين في المغرب تولّت إمارة المسلمين مدّة مائتي سنة في المغار والأندلس لم تكن من آل البيت، بل كانت من البربر وكان يقال لرجالها «السادة» هذا السيِّ أبو العلا وهذا السيِّد المأمون وهذا السيِّد علي، ... إلخ. مع أنه قد كان في ذلك الوقت ساد علويون كثيرون جيرانًا لهم ولم يقدح هذا الاشتراك في سيادتهم.

وأغرب من هذا أني اطّلعت على كتاب من أحد خلفاء بني العبّاس الطائع أو المطي لا أتذكّر جيّدًا يخاطب فيه القرامطة ـ وما أدراك ما القرامطة ـ بلفظة «السادة» ويقول: سِر إلى إخواننا السادة القرامطة وقل لهم كذا وكذا، ... إلخ. وبالاختصار لا يمكنني أصلاً أَن أقبل حجّة السادة العلويين في منع هذا اللقب عن غيرهم، ولو من باب مراعاة المدلول اللغوي. نعم إنَّهم يقولون: إنَّ الحالة في سوريا ومصر والعراق والمغرب شيء وهي في حضرموت والجاوى شيء آخر. ولا نفهم لماذا هنا شيء وهناك شيء آخر؟ فإذا أراد عرب حضرموت الذين ليسوا منسوبين إلى آل البيت أن يتلقّبوا بلقب سادة فما الفرق بينهم وبين ابن بيهم في بيروت وابن القوّتلي في الشام الذين يلقّبهم الجميع بالسادة وليسوا من آل البيت.

ثمَّ لنفرض جدلاً أننا قمنا واجتمعنا وقرّرنا أنه لا يجوز بوجه من الوجوه أن نقول «سيِّد» إلاَّ لمن كان من ذرّية الحسن أو الحسين وقام واحد وعصى قرارنا هذا وقال: أنا سيِّد لأنَّ لي سيادة في قومي، وليست السيادة قاصرة على آل البيت، فماذا نصنع معه؟ أنقوم ونستنزل الصواعق المحرقة على أهل الكفر والزندقة؟ وما الطريقة العملية التي بيدنا على مثل هذا لنمنعه من انتحال هذه اللفظة؟

إنّي جدّ آسف من أن أخاطب السادة العلويين بهذا الخطاب الذي هم بمكان كثير منهم من العلم والفضل وأصالة الرأي يستغنون عنه. ولكنّي أقول إنّهم إلى الآن لم يتنبّهوا إلى أنَّ التشبّث بقضيّة كهذه غير متناسب مع درجة علمهم وفضلهم، وإنَّ اعتذارهم بأنَّ سورية ومصر شيء وحضرموت والجاوى شيء آخر. إن اقتنعوا هم به فلن يقتنع به سائر المسلمين. وهل سيادة الإنسان قائمة باللفظ؟

إذا لم يكن صدر المجالس سيِّدًا

فلا خير فيمن صدّرته المجالس

أمّا غضبهم من إنكار نسبهم الفاطمي العلوي ومن القاذورات التي تصدر في جرائد خصومهم بحقّهم فإنّنا لا ننكر أنّ لهم في هذا الغضب حقًّا، وأنه مهما اتّسع صدر الإنسان فلن يصبر إلى النهاية على مثل تلك الشتائم. وهذا ما لم يشأ الإرشاديون أو كثير منهم أن يفهموه حتّى الآن. نعم، إنّ تشبّث العلويين بهذه الامتيازات اللفظية وبأمثالها قد أوهم غير المنسوبين إلى آل البيت أنهم يريدون أن يكونوا أربابًا وأن يسوقوا كلّ من ليس منهم بعصا القيادة والزعامة. والواقع ليس كذلك لأنّ العلويين فيهم العلماء والفقهاء وهم أبصر بقواعد الشرع وبالمساواة التي يوجبها الشرع بين المسلمين. وهم يحفظون جميعًا تقريبًا الأحاديث الواردة في صحيح البخاري: يا فاطمة إعملي فلن أغني عنك من الله شيئًا يوم القيامة يا صفيّة عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا. يا عبّاس بن عبد المطّلب لا أغني عنك شيئًا. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا. إلى غير ذلك من الأحاديث. فآل البيت لهم خصوصيّات لا تنكر ولكنّهم في نظر الشريعة لا يمتازون عن سائر المسلمين، والله تعالى يقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

أمّا تجرّؤ بعض الإرشاديين على إنكار نسب آل باعلوي فليس فقط مؤسفًا، بل موجبًا لنفرة الناس من الإرشاديين. فإنّه من المجمع عليه أنّ هؤلاء السادة متحدّرون من تلك العترة لا بسجلاّت الأنساب المكتوبة فقط، بل بالتواتر من قرون عديدة. فإذا جازت المكابرة في صحّة نسبهم جاز أيضًا إنكار انتساب الإرشاديين إلى القبائل التي ينتسبون إليها وبطلت عند ذلك جميع الأنساب وضاعت الحقائق وانمحى التاريخ وكلّ هذا من أجل بغض بعضنا لبعض واستيلاء أهوائنا على عقولنا. وأمّا ما ظهر أخيرًا من كون الإرشاديين أبرياء ممّا نشر في جريدة الهدى وجريدة القصاص وجريدة المصباح من الطعن والقذف في أعراض العلويين، والتطاول في هذا الطعن على مقام سيّدنا علي وسيّدتنا فاطمة، وكون أصحاب هذه الجرائد لا يمتّون إلى الإرشاديين بصلة، حسبما كتب إلى (الفتح) من إدارة الإرشاد المركزية في بتافيا فكلّ هذا ممّا يطمئن الأفكار ويسكّن الغضب، لأنه يجوز أن يخرج شذاذ قلائل من جماعة المسلمين وأن يسفهوا وأن يتجرّدوا من الحشمة والأدب وأن يفعلوا ما يشاؤون، وكلّ يعمل على شاكلته، ولكنّه لا يجوز أنّ فئة كبيرة كثيرة العدد فيها العلماء والفضلاء والأدباء توافق على تلك المطاعن البذيئة أو تسكت عنها. لأجل ذلك تراني مضطرًّا أن أعتذر إلى الشيخ أحمد السوركتي عن كتاب شديد بعثت به إليه عن جنيف في ٣ رجب سنة ١٣٥١ ونصّه:

حضرة الأستاذ الفاضل المرشد الكامل الشيخ أحمد السوركتي أطال الله بقاءه

يا حضرة الأستاذ

إنَّ التسبيح إذا تجاوز الحدّ وإنَّ العبادة إذا بلغت درجة الغلوّ انتهى الأمر بنفور الناس منهما. فكيف القذف والطعن والشتم واللعن والأمور التي قليلها ينفر الناس فضلاً عن كثيرها؟ وكيف الطعن في الأعراض والقذف بالأنساب والسفاهات التي تتجاوز حدّ السباب؟ وكيف القول في عدم صحّة زواج فاطمة بعلي رضي الله عنهما وفي مطاعن لا يمكن أن تصدر عن مسلم يريد أن يبقى مسلمًا. كلّ هذا يا حضرة الأستاذ صدر عن أناس ينتسبون إلى الفرقة الإرشادية التي أنت ترأسها. وأنت ساكت. وبسكوتك هذا يخيّل للناس أنك راض ولو لم تكن راضيًا. ولا ينفعك ولا ينفع الإرشاديين قولكم إنَّ الذنب ذنب العلويين. لا يكون هذا العذر مقبولاً عند أحد لأنَّ الإنسان لا يجعل نفسه سفيهًا بذيئًا لمجرّد كون أحد الناس اعتدى عليه. ولنفرض جدلاً أنَّ العلويين اعتدوا عليكم فكان عليكم أن تجاوبوا باللسان الذي خاطبوا به (وجزاء سيّئة سيّئة مثلها) لا بالطعن في الأعراض وباللسان الذي ظهر من بعض الإرشاديين بدون أن نسمع منك أنت كلمة زجر وتوبيخ لجماعتك هؤلاء مع أنك من العلماء الأفاضل ومع أنك زعيم فرقة الإرشاد غير مدافع. قد قرأنا ردود العلويين. وقد قرأنا ردود الإرشاديين على العلويين فرأينا بين الفريقين فرقًا جسيمًا إذ لم نجد في كلام العلويين هذا التعرّض للحرم والأعراض، وهذه الألفاظ التي ترونها في جريدة القصاص التي أنا مرسلها إليك طيه. وقبلاً كنت اطّلعت على كلام نقله بعض العلويين عمّا قاله بعض الإرشاديين في علي وفاطمة من القذف الشنيع، وما اطّلعت على أنَّ إرشاديًّا أقام النكير على ذلك. وأنا أريد معرفة حقيقة هذه القصّة لشدّة غرابتها. يا حضرة الأستاذ ألم يخطر ببالكم أنَّ العالم الإسلامي قد ضجَّ بأجمعه من هذه المشاتمة الفاضحة المستمرّة بينكم وبين العلويين من بضع عشرة سنة. يا حضرة الأستاذ أفلا يفكّر العرب الحضارم كيف أصبح مركزهم الأدبي في بلاد الجاوى وكيف صار الجاويون والهولّنديون ينظرون إليه باحتقار ما عليه من مزيد. يا حضرة الأستاذ إلى متى هذه الحال فيما بينكم أفلا تفكّرون في وضع حدّ لها؟ إلى متى ترضون أن تكونوا مضغة في الأفواه؟ أنا لا أعلم كيف تقرأون كتب العلم، وكيف تدرّسون شريعة الإسلام، وكيف تقولون إنَّ هناك إرشادًا وتهذيبًا والحال هي ما نراه من هذه الكتابات الشنيعة؟ أهذه هي ثمرات الإرشاد والتهذيب؟ لا تؤاخذني يا حضرة الأستاذ

واصفح عنّي الصفح الجميل فقد عيل صبرنا من هذه الحالة التي عليها العرب في الجاوى ولقد بلغ السيل الزبي؛ إنّي لا أجعلكم مسئولين عن كلّ ما يصدر بغير قلمكم، ولكنّي أستغرب كيف، وأنت ترأس الإرشاديين، تسكت عن توبيخ قومك وردعهم عن هذه الأقوال التي هي في جريدة القصاص وغيرها. إنّي لا أبرّئ العلويين من الخطأ لكن خطأكم أنتم أصبح أعظم من خطئهم. أتظنّون أنتم معاشر الإرشاديين أنكم اضررتم بالعلويين بهذه الكتابات أو بالسكوت عن هذه الكتابات؟ لا والله. هذه كتابات تستميل إليهم الناس الذين كانوا يلومونهم إلى أن يصيروا يعذرونهم ويقولون الآن هم أدرى بما عندهم. وكيف يجمع البعض من الإرشاديين بين إنكار نسب العلويين إلى آل البيت وبين الطعن في صحّة زواج فاطمة بعلي والقول إنَّ العلويين ... والعياذ بالله. فإن كانوا ليسوا من آل البيت فلم يبقَ لزوم القدح في علي وفاطمة بغضًا بهم. يا حضرة الأستاذ أولى بك وبسمعتك أن ننشر منشورًا تقبّح فيه كلّ هذه الكتابات وتتبرّأ منها ومن أصحابها، هذا بالأقلّ وهذا إن كنت لا تقدر أن تقنع جماعتك بالسكوت التامّ والأعراض عن كلّ ما يقوله العلويون. إنَّ الفئة التي توطّن نفسها على السكوت التامّ المطلق بإزاء الفئة المخاصمة لها هي الفئة الغالبة وهي الفئة المحمودة وهي الفئة العليا في نظر المسلمين والعرب. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

المخلص

شكيب أرسلان



مسلمو الحبشة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

العالم الإسلامي في مصائبه وأهواله ومساوئ أحواله أشبه بجسم مصاب في أكثر أعضائه، لا يمسّ الطبيب منه جهة إلاَّ سمع الأنين. وإذا كان المبشّرون يغزون الإسلام في بلد مثل مصر، وهي مدرسة الإسلام الكبرى وفسطاطة الأعظم، فما ظنّك بحال المبشّرين والمستعمرين الأوربيين في غيرها. وكلّ ما هو نازل بالإسلام ناشئ عن إهمال المسلمين لأنفسهم، واتّكال بعضهم على بعض، وانتظار كلّ فريق منهم قيام فريق آخر بإصلاح الإسلام وهكذا سقط الجميع، إلاَّ ما ندر، بالتخاذل والتواكل وعدم قيام كلّ فرد من المسلمين بما يجب عليه تجاه نفسه وقومه بدون انتظار ما سيفعله غيره.

ولنتكلّم الآن عن مسلمي الحبشة الذين هم في أسوأ حال ماديًّا ومعنويًّا، ولا نرى أحدًا من المسلمين سائلاً عنهم ولا مكترثًا لما هم فيه من انحطاط سياسي واقتصادي واجتماعي وديني وأدبي، على حين أنَّ مسلمي الحبشة هم من أقرب الناس إلى الأمّة العربية، بل هم ساميون ينتسبون إلى نفس السلالة التي ينتسب إليها العرب. وهم في موقعهم الجغرافي مصاقبون لجزيرة العرب وتحيط بهم البلاد الإسلامية من كلّ الجهات، فاليمن من الشرق، ومصر من الشمال، والسودان من الغرب، والصومال من الجنوب. وهم لا يقلّون عن ستّة ملايين من الأنفس، وعدد مسلمي الحبشة أكثر من عدد المسيحيين فيها. نعم، إنَّ ملك الحبشة الحالي يوم جاء إلى أوربة منذ بضع سنوات صرّح لجريدة الطان بأنَّ عدد سكان مملكته سبعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف نصارى ونصف مليون يهود وثلاثة ملايين مسلمون. وبيان الملك هذا هو سياسي يتعمّد فيه تصغير شأن المسلمين في تلك المملكة، لا سيَّما أنه كان لمسلمي الحبشة ماضٍ عظيم وكانت لهم ممالك وملوك، وطالما تغلّبوا على الحبشة كلّها. ومن شاء التوسّع في معرفة أحوال مسلمي الحبشة فعليه بمراجعة كتابنا «حاضر العالم الإسلامي» الذي فيه تاريخ تلك الوقائع وكثير من المعلومات عن أحوال الحبشة الحاضرة. وبرغم ما

* الفتح، العدد: ٣٥٨، العام الثامن، القاهرة(٢٥ ربيع الآخر ١٣٥٢هـ/١٧/٨/١٩٣٣م)، ص ص. ١-٣.

حرّرناه من المعلومات عن مسلمي الحبشة في نحو من ثلاثين صفحة لا تزال تترامى إلينا معلومات جديدة في هذا الباب لكنّها، مع الأسف، ممّا يدمى له فؤاد كلّ مسلم.

كان مكتب المؤتمر الإسلامي في القدس قد رغب إلينا في المساعدة بتحرير الدليل الذي قرّر المؤتمر تأليفه باسم (دليل العالم الإسلامي)، ونحن عدا ما لدينا من المعلومات عن البلاد الإسلامية، وما في خزانة كتبنا من التآليف الموضوعة على المستعمرات الأوربية التي أكثر أهلها من المسلمين، أحببنا أن نزيد الاستقصاء في البحث فكتبنا إلى جهات كثيرة من جملتها الحبشة وقد جاءتنا أجوبة تتضمّن معلومات كثيرة وفوائد جمّة، ولكن جاءنا أيضًا من أحد المسلمين الغرباء، الذين أقاموا في بلاد الحبشة سنين وقتلوا أحوالها خبرًا، الكتاب الآتي: إنَّ الملك الحالي هيل سلاّسي الأول، برغم ذكائه ومزاياه، قد غلبت عليه سياسة الأوربيين والمبشّرين الساعين من قديم الدهر في التفريق بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة وإدامة الجرح طريئًا بين الفريقين، ولم ينسَ الناس واقعة الملك السابق آياسو الذي أسقطه نصارى الحبشة بتحريك الدول الأوربية بحجّة أنه ميّال إلى المسلمين فلمّا خلعوه فرّ إلى بلد والده وهي مقاطعة يقال لها (ولُّو) فتعقّبوه وحاربوه واستمرّت الحرب سنوات حتّى انتهت بوقوعه أسيرًا مع أبيه. وبعد أن دارت عليه الدائرة أخذوا بالانتقام من المسلمين الذين قاموا بنصرته فكانوا يأخذون الأسارى ويصفّونهم الواحد وراء الآخر ويرمونهم بالرصاص ليجرّبوا قوّة البنادق، هذه رصاصتها تنفذ من عشرة، وهذه تنفذ من عشرين، وارتكبوا من هذه الفظائع شيئًا كثيرًا، ولم يراعوا أهمّية المسلمين في الحبشة وكونهم أكثر عددًا من المسيحيين، بل يزيدون مليونين على المسيحيين واليهود معًا. وإلى الآن لا يزال مسلمو الحبشة في حالة اهتضام لا تطاق، والضغط عليهم من كلّ وجه، والفقر شاملهم فلا يقدرون أن يرفعوا رأسًا ولا أن يفتحوا طرفًا ولا أن يُسمِعوا أنينهم إلى الخارج.

ومع كون مسلمي الحبشة أمناء صادقين بشهادة النصارى أبناء وطنهم تجد حكومة الحبشة تأبى استخدامهم في الدولة، فلا ترى مسلمًا موظّفًا إلاَّ ما ندر، ولو قلنا إنَّ نسبة الموظّفين من المسلمين إلى الموظّفين من النصارى هي نسبة واحد إلى ألف لم نكن مبالغين. فالحكومة كلّها من الباب إلى المحراب في أيدي النصارى، وكأنَّ المسلمين غير موجودين، ولهذا تنصّر كثير من مسلمي الحبشة تزلّفًا إلى الحكومة وطمعًا في نفوذ الكلمة. وقد يدّعي رجال دولة الحبشة بأنهم يهضمون المسلمين لكونهم حاربوهم من قبل، والحقيقة أنَّ الذين

حاربوهم من المسلمين هم أهالي مقاطعة (ولُّو) الذين التجأ إليهم الملك السابق آياسو، وأمّا سائر المسلمين فلم يقاوموا الحكومة المسيحية. وهؤلاء أهالي مقاطعة (جمّة) المسلمون لا يمدّون إلى الحكومة يدًا بسوء، بل يمدّون إليها أيديهم ملأى بالأموال والهدايا، ومع هذا فقد أدخلوا في بلادهم الكنائس وبثّوا المبشّرين ووضعوا عليهم أنظمة جديدة من عشور ومكوس وأنواع من التحريجات، لم تكن من قبل، حتّى صارت حالتهم لا تطاق فعرض الأهالي على الحكومة أن يدفعوا لها مئتي ألف ريال سنويًّا وأن تبقيهم على حالهم الأولى، فما قبلت الحكومة بذلك وأصرّت على إرهاقهم. ثمَّ إنَّ فريقًا من المسلمين كانوا يسكنون في مدينة (اكسوم) وهي مدينة قديمة في جهة (ثغري) فيها كنيسة مريم، وفيها كثير من الكهنة كانوا يتحكّمون في المسلمين ويأخذون أموالهم ويستخدمون نساءهم، ومع ذلك كانوا يمنعونهم من تملّك عرصة دار في البلدة بشراء أو غيره، فلمّا ضاق ذرعهم بهذه الحالة التمسوا من الدولة أن تسمح لهم بالالتجاء إلى دولة أخرى أو تقطعهم أرضًا يبنون فيها بيوتًا ويتخلّصون من ظلم الكهنة. فبعد جهد جهيد أقطعتهم الدولة أرضًا بعيدة عن دور الكهنة فبنوا فيها بيوتًا، ولكن الكهنة هاجموا المسلمين في بيوتهم وأحرقوا لهم ثلاثين بيتًا واضطرّ المسلمون أن يكرّوا على الكهنة ويهزموهم، ولكن الحكومة لم تؤدّب الكهنة المعتدين، وكلّ يوم تقع اعتداءات على المسلمين ولا يجدون مغيثًا فترجو منكم رفع الشكاية إلى جمعيّة الأمم ومجمع الدول أولئك الذين يتظاهرون بالعدل لأجل أن يخاطبوا الدولة الأثيوبية بأن تعدل بين رعاياها المسلمين والمسيحيين، وأن تمنح الحرّية إلى رعاياها على السواء، فليس في الحبشة من الحرّية غير الاسم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. انتهى

قصدنا نشر هذا الكتاب على صفحات (الفتح) لأنه جريدة منشورة في العالم الإسلامي حاصلة على ثقة المسلمين كلّهم. فلعلّ هذه الأمّة تتنبّه وتتذكّر أنَّ في الحبشة ستّة ملايين مسلم كانوا أمّة عظيمة، وقد انحطّوا بإهمال المسلمين لأنفسهم إلى الدرك الذي يؤذن بالانقراض، فيجب على المسلمين أن يوقظوهم ويأخذوا بايديهم ويستجلبوا منهم عددًا إلى مصر وغيرها من بلاد الإسلام ليتعلّموا ويتخرّجوا ويعودوا إلى قومهم ويفقهوهم وينفخوا فيهم روح الحياة ويشيّدوا بينهم المدارس، فإنَّه لا يرجى خلاص مسلمي الحبشة والغاله والصومال من البوار إلاَّ بالتعليم والتهذيب، وأيّ ثواب أعظم من ثواب جمعيّة خيرية تنشر العلم بين مسلمي الحبشة الذين هم في الحقيقة من معدن نجيب وقد كانوا ينجبون الأبطال وصناديد

الرجال. فأمّا ما طلبه منّا صاحبنا من مراجعة جمعيّة الأمم فنجيب عليه بأنَّ جمعيّة الأمم جمعيّة أوربية تقريبًا، والأوربي من عادته أن لا يعرف حقّ المساواة إلاَّ بين الأوربيين، ومع هذا فقد عجزت هذه الجمعيّة عن إجراء المساواة حتّى بين الأوربيين أنفسهم فالأمم المغلوبة في الحرب العامّة لا تزال غير حاصلة على المساواة مع الأمم الغالبة. وهذا الذي دفع إلى الثورة التي فيها ألمانية اليوم والتي يرأسها هتلر[1]. فأمل مسلمي الحبشة في جمعيّة الأمم هو أضعف من خيط باطل. ولا ترجى نهضة لمسلمي الحبشة إلاَّ بأمرين أحدهما أن ينفض هؤلاء المسلمون هناك غبار الخمول عن أنفسهم بأنفسهم، والثاني أن يعطف نحوهم المسلمون من جيرانهم عطفًا حقيقيًا، ويؤازروهم بالفعل بحيث ينهضون، وعندما ينهضون يجدون الحكومة الحبشية قد احترمتهم وراعت حقوقهم ووسدت إليهم الوظائف وعاملتهم كما يجب أن تعاملهم. فأمّا أن تعاملهم بالمساواة وهم مقصّرون وأن تحسب لهم حسابًا وهم خاملون فهذا أمر غير معقول ولا منتظر. ومن أهمل نفسه فلا ينتظر من أبيه وأمّه أن يرعيا له حرمة، فكيف ينتظر ذلك من جاره، لا سيَّما إذا كان ذلك الجار ينطوي على ضغائن وأحقاد قديمة. والله نسأل أن يهدينا جميعًا إلى الصواب.

جنيف، ٩ ربيع الآخر ١٣٥٢هـ/١/٨/١٩٣٣م

شكيب أرسلان

(1) أدولف هتلر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥). رئس الدولة سنة ١٩٣٤ بعد وفاة هندنبرغ. أقام نظامًا دكتاتوريًا بوليسيًا، أشعل الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ وهُزم فيها. انتحر في ٣٠ نيسان ١٩٤٥.

لا ينبغي أن نخدم الإسلام بالأكاذيب*

بقلم كاتب الشرق الاكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

سبق لنا مرّة أو مرّتين تنبيهٌ للمسلمين أن يهتمّوا بقضيّة نشر الإسلام في بلاد اليابان، أملاً باستجلاب جانب من تلك الأمّة الراقية إلى الدين الإسلامي، وكنّا في أثناء هذا التنبيه نحذّر المسلمين من الاكتفاء بالأخبار والإشاعات التي من شأنها أن تقعدهم عن العمل وتغريهم بالكسل، وذلك من قبيل أنَّ الإسلام منتشر في اليابان وأنَّ هناك جمعيّات إسلامية ومدارس ومكاتب وكتاتيب ودور رعاية، وكلّها تنشر العقيدة المحمّدية وتقرئ القرآن وتفاسيره، والناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وغير ذلك ممّا تروّجه بعض الجرائد، أملاً بنيل الحظوة لدى قرّائه المسلمين وببيع عدد كبير من النسخ بالنظر لتلك الأخبارالمفرحة. قد ذكرنا هذا وكرّرناه قبل أن تأتينا الأخبار الحقيقية وقبل أن اطّلعنا على الكتابات الواردة من أعيان المسلمين المقيمين باليابان الذين عندما اطّلعوا على هذه الأخبار الملفّقة اشمأزّت نفوسهم وأدركوا ما في ذلك من الضرر بالدعاية الإسلامية نفسها. فنحن لم نكن لنحتاج إلى كتابات واردة من اليابان حتّى نحكم بأنَّ إسلام الميكادو وعشرة ملايين من رعيّته في يوم واحد لا يمكن أن يكون صحيحًا، بل أنَّ نشر خبر كهذا يجعلنا عرضة لسخرية غير المسلمين، ويزرع في قلوب اليابانيين أنفسهم نفرة تقف حاجزًا دون تقدّم العقيدة المحمّدية في اليابان.

ولقد رُوينا رواية لم يكن يعلمها أحد غيرنا، وهي رواية ما قاله السلطان عبد الحميد العثماني لوليّ عهد اليابان يوم زاره في الآستانة. فهذه الرواية سمعتها بأذني من فم منيف باشا، ناظر المعارف العمومية، وكان من أعظم فضلاء الأتراك، وكان لحسن محاضراته وسعة معارفه يسمَر كثيرًا عند السلطان، وكنت أنا يومئذٍ في شرخ الشباب وكنت أسمر في الأحايين عند منيف باشا المشار إليه ونتحادث في المواضيع الإسلامية وغيرها. فأخبرني ذات يوم بمجيء الأمير الياباني إلى الآستانة ونزوله ضيفًا على حضرة الخليفة الأعظم، ثمَّ ما قاله الخليفة لذلك الأمير في أثناء حديث وهو:

- سمعت أنكم تبحثون عن دين لتدينوا به، فأنا أوصيكم بالإسلام.

* الفتح، العدد: ٤٢٨، (١٩٣٤/١٢/٢٧)، ص ص. ٥ ـ ٧. حُرّرت أيضًا في جريدة "الجهاد"، العدد: ١١٩١، (١٩٣٤/١٢/٢٦).

قال لي منيف باشا: فأجاب الأمير الياباني قائلاً:

ـ كلاّ، نحن راضون بديننا فلسنا باحثين عن دينٍ آخر.

ذكرت هذا في مقالة في السنة الماضية نشرتها في جريدة «الجامعة الإسلامية» من جرائد فلسطين بمناسبة فصل ظهر فيها عن الإسلام واليابان. وكان مقصدي بذلك تحذير المسلمين من كثرة التفاؤل، ومن الاعتقاد بأنَّ يابانيًّا واحدًا لا يمكن أن يسلم بدون دعاية إسلامية وتفهيم وتلقين. فأكثر المسلمين اليوم يريدون أن ينتشر الإسلام وأن يسود دين محمَّد في الأرض بدون أن يقوموا هم بجزء واحد من ألف ممّا يجب عليهم في سبيل هذه الدعاية، كما يفعل الأوربيون الذين عندهم مئات وربّما ألوف من الجمعيّات الدينية المسيحية، تسعى في مشارق الأرض ومغاربها بنشر الإنجيل واستجلاب الأمم الآسيوية والأفريقية إلى النصرانية، باذلةً في تلك السبيل مائتي مليون جنيه في السنة، أي بقدر واردات دولة من الدول العظام.

قصدت بنشر ذلك الخبر الذي كنت استقيته من عين صافية أن لا يتّكل المسلمون على الإشاعات الفارغة، وأن يجعلوا العمل هو رائدهم في جميع حركاتهم وسكناتهم. ولم أكن ممّن يكره أن يفرح المسلمون ولا سيّما أنَّ قلوبهم ملأى بالأحزان وأنهم أصبحوا مصداقًا لقول أحمد فارس عن نفسه:

فكلّ همّ به همّ يؤرقني
وكلّ شجو به شجوي وتنكيدي[1]

ونحن حالنا الآن شبيه بما قاله الشدياق رحمه الله عن نفسه. وما كان أحوجنا إلى الأخبار السارّة لولا أنَّ الأخبار السارّة إذا كانت كاذبة يحصل لها ردّ فعل أشدّ من عدمها، وماذا يفيد المسلم إذا استمرّ فرحه عشيّة أو ضحاها ثمَّ عاد فعرف أنَّ ما كان سمعه لا يستند على شيء من الصحّة فيصيبه ما يصيب الهاجع الذي يحلم حلمًا لذيذًا حتّى إذا استيقظ من نومه علم أنه إنّما رأى خيالاً.

ولقد كنت في برلين في هذه الأيام الأخيرة فأفضيت بما في نفسي من الاشمئزاز من هذه

(١) كان أحمد فارس رحمه الله شاعرًا كما كان كاتبًا ولكنّه في الإنشاء أعلى منه كثيرًا في الشعر، وكانت تغلب عليه اللغة التي امتاز بعلمها، كما يظهر لك من شعره هذا فقوله «فكلّ همّ به همّ يؤرقني» تفسير الهمّ الأول أنه ما يهمّ به الإنسان من الأعمال، والهمّ الثاني هو الحزن. وكلّ شجو به شجوي وتنكيدي معنى الشجو الأول هو الحاجة ومعنى الشجو الثاني هو الحزن أيضًا. أي كلّ ما أهمّ به من أمر فلي منه حزن وترحة وكلّ ما يعنّ لي من حاجة ففيها حزن وكآبة.

الأخبار الملفّقة التي تسجّل علينا بالخفّة إلى الأخ الفاضل الدكتور زكي كرام المقيم بالعاصمة الألمانية فما كدت أتمّم كلامي حتّى قال لي الدكتور زكي إنَّ عنده كتبًا من طوكيو من الشيخ عبد الرشيد التتري يشكو فيها عين ما أشكو أنا منه، فطلبت منه أن يأتيني بهذه الكتب بعينها. فجاءني ثاني يوم بمكاتيب من قلم الشيخ عبد الرشيد وبخطّه عندما باشرت قراءتها تصبّب منّي العرق خجلاً، وذلك لأنه من جملة ما قال:

«عرب غازيته جيلري جاهلدر، غازيته جيلق نه أولديغني بيلمز، حوادثي محاكمه بلمزلرنه بولورلرسه قولاغي نه دويارسه توتار يازار نشر ايدر أصلي أولسون أولمسون برخبر بولورسه همان نشر ايدر. أصلي ألوب أولمد يغني عقلنه بيله كتورمز».

وهلمّ جرًّا، ممّا هو مثل هذا وأشدّ إيلامًا منه بحيث أنني أخجل من ترجمته للقرّاء، ويكفي أن يعرفه من يعرف اللغة التركية. ثمَّ أفلا يفكّر هؤلاء الصحفيون بأنَّ أخبارًا كهذه لو كان منها شيء صحيحًا لكانت الراديو في أوروبة ملأت الدنيا به، أفلا يفكّرون أنَّ إمبراطور اليابان لو كان دان بالإسلام لكان الخبر ملأ آفاق الأرض بالطول والعرض؟ أفلم يبقَ عند محرّري الجرائد العربية أثر للعقل حتّى يقدموا على نشر هذه الأخبار الغربية بدون أدنى رويّة.

ثمَّ إنَّ الأستاذ الشيخ عبد الرشيد لم يقتصر على تعليل هذه النشريّات بالجهل والحماقة وقلّة الخبرة وأحيانًا بالطمع أن يزداد عدد قرّاء هذه الجرائد، بل ذهب سوء ظنّه ـ وهذا خطأ محض منه ـ إلى أنَّ هذه النشريّات إنَّما وقعت بدعاية إنجليزية خفيّة لأنَّ إنجلترا ترى في اليابان دولة عظيمة مقاومة لدول الاستعمار الأوروبية فهي تريد أن تجرح إحساسات اليابان بأقلام المسلمين وتظهر لليابان أنَّ المسلمين يحتقرونهم ولا يقيمون لهم وزنًا والدليل على ذلك أنهم يشيعون في جرائدهم كون إمبراطور اليابان وعشرة ملايين من قومه أسلموا في يوم واحد وما أشبه ذلك من الأخبار التي بدون شكّ يسوء وقعها على اليابانيين.

وقد صرّح الشيخ عبد الرشيد بأسماء الصحف العربية التي استرسلت إلى هذه الأخبار الواهية، وأنحى عليها بلائمة شديدة وبمثل ذلك على رجل من مسلمي الروسية مقيم الآن هناك يعتقد الشيخ أنه هو الذي اخترع هذه الأكاذيب قاصدًا أن يسرّ بها المسلمين سرورًا فارغًا، ثمَّ إنَّه يقول:

إنَّه ما أسلم إلاَّ عدّة أشخاص من اليابان وإنَّه التجأ إلى بلاد اليابان فرارًا من البلاشفة جماعات من

التر كلّهم لا يبلغون ألف نسمة، ولمّا وصل هؤلاء الدخلاء استقبلهم اليابانيون استقبالاً حسنًا وعطفوا عليهم إلى أن أخذوا يطّلعون على هذه الأخبار التي تنشرها الجرائد العربية وعلموا مآلها فنزلت قيمة المسلمين في أعينهم.

ثمّ قال: اعلم يا أخي أنه لو قدّر الله تعالى اهتداء اليابانيين للإسلام وحفت بنا العناية الصمدانية بدخولهم في هذا الدين الشريف فإنّ هذه الأمّة تكون مسلمة إسلامًا بتمام معناه لا إسلامًا على العمياء لأنها ليست بالأمّة التي تقبل شيئًا بدون بحث ومحاكمة. ولكنّي الآن لست في هذا الصدد، بل مقصدي أنّ الدولة اليابانية دولة مقاومة للاستعمار الأوربي فإن كان في البلاد العربية يقاوم الاستعمار بالفعل فليتّفق مع اليابان وليثبت أمام اليابانيين أنه أهل للعمل، أرجو منك أن تقول لزعماء العرب لا يجعلوا أنفسهم مسخرة أمام الناس، ... إلخ.

لا جرم أنّ الشيخ عبد الرشيد من شدّة ما أصابه لدى قراءة هذه الأخبار التي تهافت عليها بدون تفكّر ولا تدبّر محرّرو قسم من الجرائد العربية قد وقع في مبالغات لا يمكننا موافقته عليها، ومع عدم مناقشتنا في إخلاصه وحنكته بعد أن بلغ ٨٨ عامًا لا نبرّئه من أنه كتب كثيرًا ممّا كتبه تحت تأثير الحدّة من هذه الأخبار. ولكنّنا من الجهة الثانية نلوم كثيرًا أولئك الذين أورثوا قلب الشيخ عبد الرشيد هذه الحسرة ونظروا إلى اليابان بغير النظرة التي كان ينبغي أن ينظروها بها.

وبعد أن اطّلعت على هذه الكتب الخصوصيّة من الشيخ عبد الرشيد المشار إليه رأيتها جاءت مطابقة لما كان يحيك في صدري من هذه القضيّة. ثمّ وردت الآن جريدة "الفتح" فإذا بها أيضًا بيان من الشيخ محمّد عبد الحيّ رئيس الجمعيّة الإسلامية في اليابان يؤكّد فيه كتابات الشيخ عبد الرشيد التي لم نكن لنرتاب فيها، ولكن بيان الشيخ عبد الحيّ زادنا اعتقادًا بأنّنا فيما كنّا على صراط مستقيم. فالشيخ عبد الحيّ يقول:

قيل إنّ وزارة المعارف اليابانية أصدرت أمرًا بتدريس الإسلام في مدارس الحكومة وإنّ الإسلام يدرّس في ٢٢ مدرسة في طوكيو و١٨ مدرسة في سائر المدن اليابانية، وقيل إنّها أنشأت دار معلّمين لإعداد المسلمين لهذه المدارس وعيّن لها ناظر مسلم، وإنّها نشرت كتبًا للتدريس على نفقة الحكومة اليابانية وإنّ الحكومة المشار إليها دفعت مبلغًا من المال إعانة على نشر القرآن الكريم، وذهبت بعض الجرائد السورية إلى أنّ جلالة إمبراطور اليابان قد قبل الإسلام وقبله معه عشرة ملايين من رعيّته. قال الشيخ عبد الحيّ: فهذه الأخبار كلّها مكذوبة وهي لا تصدر إلاّ من منافق - أو من ساذج يصدّق كلّ ما يسمعه - يعلم حقيقة الحال ويحسد الإسلام على مستقبله المنتظر له في الشرق الأقصى فيعمل لإيقاظ أعدائه. قال: فيا إخواني المسلمين

احذروا هذه الإشاعات التي تشاع بغير احتياط ولا تدقيق، وماذا ينفع المسلمين أن تشيع بينهم أخبار كاذبة بأنَّ عشرة ملايين من اليابانيين دخلوا في الإسلام في يوم واحد! إنَّ اليابانيين مستعدّون لأن يصغوا للإسلام ولأن يقبلوه شيئًا فشيئًا، ولكن القول بأنَّ عشرة ملايين منهم قبلوه في يوم واحد ليس صحيحًا واليابانيون ذوو عظمة في ملكهم وأخلاقهم وفي كبريائهم، وعلماؤهم يحبّون أن يدرسوا الدين الإسلامي ويقارنوا فضائله بفضائل غيره من الأديان، وليس من طبيعة اليابانيين تعصّب ديني ولهذا لا يوجد حاجز بينهم وبين قبول الإسلام متى درسوه واقتنعوا بفضائله. والفرق اليابانية تحبّ أن تتعارف بالمسلمين وبأن تكون لها بهم روابط أدبية، والحكومة اليابانية وأكثر أهل التجارة والصناعة من اليابانيين يجتهدون في إيجاد روابط اقتصادية بينهم وبين المسلمين، وهذا كلّه تعرفه الجمعيّة الإسلامية المركزيّة في طوكيو، فهي تحرص على أن تكون لها روابط وثيقة بكبراء الأمّة اليابانية وبالعلماء اليابانيين ولنا الإيمان الكامل بأنه سيكون للإسلام في اليابان مستقبل باهر. ثمَّ قال الشيخ محمّد عبد الحيّ: إنَّ أحوال الشرق الأقصى اليابان ومنشوغو والصين دقيقة وعلينا أن نحفظ شأن المسلمين في هذه الجبهة بالكياسة والسياسة في كلّ مناسبة مع سائر الأقوام في الشرق الأقصى، وعلينا أن نبشّر بينهم بدين الإسلام تبشيرًا يليق بمقامهم في المدينة. ونحمد الله على أنَّ في اليابان قنصلاً لمصر يرى الحقيقة هنا بعينه ويمكنه أن يكشفها لمن يسأله عنها».

كتاب الشيخ عبد الحيّ هذا نشرته جريدة «الفتح» الغرّاء التي جاءتني اليوم، وكأنّني بدون أن أكون في طوكيو قد عرفت الحالة هناك كما هي بمجرّد القرائن ومعاركة الزمن وطول الخبرة. ومن راجع مقالاتي في السنة الماضية وفي هذه السنة بشأن اليابان ودخول الإسلام فيه رآها لا تخرج عمّا نصح به الشيخان عبد الرشيد وعبد الحيّ، فقد كنت أقول ما معناه: إنَّ اليابانيين ليسوا الأمّة التي تقبل دينًا أومذهبًا أو مشربًا إلاَّ بعد التدقيق الطويل، ولو كانت ممّن يقبل الأديان على العمياء لم تكن هي تلك الأمّة العظيمة، وإنَّ المسلمين ينبغي لهم هناك دعاية مرتّبة منظّمة عاقلة نشيطة مسلّحة بالعلوم والمعارف والسياسة والكياسة حتّى يفوزوا من مقصدهم بطائل، وإنّه على كلّ الأحوال ينفع المسلمين أن يكونوا على اتّصال باليابان، وأن تتوثّق بين الفريقين روابط اقتصادية وأدبية وسياسية يعلم بها اليابانيون أنَّ الإسلام حيّ لم يمت وأنهم يمكنهم أن يتسفيدوا منه ويستفيد منهم. وعسى أنَّ مجيء هذه النصائح من طوكيو من أصدق رجال المسلمين هناك يكون كافيًا لتنبّه بعض رجال الصحافة العربية الذين يرمون الكلام على عواهنه بدون تدبّر، ويعرضون الإسلام والعرب للإنتقاد، فعلينا بعد اليوم أن نكون رصناء وأن نفكّر فيما نقول قبل أن نقول.

جنيف، ١٢ رمضان ١٣٥٣هـ/١٩/١٢/١٩٣٤م

شكيب أرسلان

ما تفاهمنا مع إيطاليا إلاّ لأجل تخفيف ويلات المسلمين*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

إنَّنا من أول الزمان لم نقصد خدمة المسلمين بالأقوال ولكن بالأفعال. وكلّ سياسة غير عملية وغير مؤدّية إلى نتيجة فعلية هي بعيدة عن مذهبنا. وما قصدنا في حياتنا كلّها أن نقول ولا أن نعمل ليقال إنَّنا مخلصون وننال حسن الأحدوثة، فإنَّ هدفنا هو غير هذا. إذا كانت مصلحة المسلمين تستلزم الخصام خاصمنا، وكشّرنا عن أنيابنا ورمينا في هذه السبيل أبعد شأو المرتمى، وإن كانت مصلحة المسلمين أرجح في جانب السلام لم نتردّد في اختيار الأرجح. أمّا التهويش والصراخ لأجل أن يسجّل لنا الناس بالإخلاص ويقال فينا بسم الله، وما شاء الله، فليس هذا من شأننا أصلاً ولسنا بمثل هذه الألاعيب نقدر أن نخدم الإسلام والعروبة في هذا الزمن العصيب. نخاصم ما دام الخصام مؤدّيًا إلى نتيجة محمودة، ونسالم إذا كان السلام هو الطريق الوحيد لتأمين جانب المصلحة.

بينما كنّا نهاجم إيطاليا تلك المهاجمات التي كلّ أحد يعلمها والتي لم يقم فيها أحد مقامنا ـ ولسنا الآن في صدد بيان ما علمناه في ذلك الوقت، إذ لسنا ممّن يعمل رياء وسمعة ـ ظهر من إيطالية مساعدة فعلية للعراق في أمر إلغاء انتدابه والاعتراف باستقلاله، فلم نتوقّف طرفة عين عن أن نشكر لإيطالية صنيعها الجميل هذا حتّى تعلم إيطالية أننا منصفون وأننا نقيّد الحسنات كما نقيّد السيّئات، وأننا ليس لنا غرض في التحامل. أساءت إيطالية في طرابلس بإطلاقها العنان للجنرال غراسياني وأمثاله يفحشون في القتل ويأخذون البريء بعمل المجرم، ويعاقبون الساكن كما يعاقبون الثائر، ويشرّدون عشرات الألوف في الصحاري حتّى يستأصلوا سواد الأمّة العربية الطرابلسية، فقمنا يومئذٍ بتلك الحملات الصحافية وأشرنا بمقاطعة البضائع الطليانية وكنّا نحن الذين أوعزنا إلى أهل سورية بوجوب المظاهرات في الشوارع حتّى يعلم الطليان أنَّ الإسلام لم يمت وأنه متكافل وأننا نشعر بكلّ ألم يصيب إخواننا الطرابلسيين، وأحسنت إيطالية في التزامها جانب استقلال العراق فعلاً فلم يمنعنا

* الفتح، العدد: ٤٣٣، (١٩٣٥/١/٣١م)، ص ص. ٨ ـ ١١.

وجودنا في معمعة العداوة معها من أن نعترف لها بهذا الحقّ في مجلّتنا لا ناسيون آراب لأنَّ الحقّ يعلو ولا يعلى عليه. وكما أثنينا يومئذٍ على سياسة إيطالية فقد أثنينا على جميع الدول التي روّجت سياسة استقلال العراق مثل ألمانية ويوغوسلافيا وبولونيا. وأغرب من هذا أننا في ذلك الوقت أحمدنا صنيع إنجلترة نفسها، وقلنا أنه العمل الأول الذي نقدر أن نقابله بالرضى من أعمالها. صرّحنا بذلك للسيِّد همفريس، سفير إنجلترة في العراق، يوم كان في جنيف يبذل مجهوداته في إقناع الحكومات المتلكّئة عن قبول استقلال العراق تعصّبًا منها للأشوريين. رأينا هذه المجهودات بأعيننا فلم نكابر أنفسنا ولم ننكر الحقّ الذي يجب أن يكون قبلتنا في كلّ شيء فهل كان ثناؤنا على سياسة إنجلترة العراقية حبًّا بإنجلترة أو تزلّفًا لها؟ كلاَّ. يعلم الله والناس أجمع أننا ما هاجمنا دولة من الدول بأشدّ ممَّا هاجمنا به إنجلترة، ولا يوجد دولة من الدول الأوربية أجمع تنظر إلينا بعين العداوة التي تنظر إلينا بها الدولة الإنجليزية. وقد قيل لي عن ثقة أنَّ ملفّ الأوراق الخاصّ بي في الخارجية الإنجليزية يكاد يكون مجلّدًا، وأنه لا يوجد شرقي له ملفّ أوراق بهذه الضخامة في تلك النظارة.

هل حملت أنا في يوم من الأيام على إنجلترة بغيًا وعدوانًا؟ كلاّ. ما حملنا ولا حمل غيرنا إلاَّ لما أصاب المسلمين من المصائب بسبب سياسة هذه الدولة. وكم حذّرنا العرب قبل الحرب وأثناء الحرب من الوقوع في أحابيلها والاعتبار بما سبق من أعمالها مع المسلمين، فأعرضوا عن كلامنا واعتقلوا حبالها واقتفوا ظلالها وصفّقوا طربًا لتقدّم جيوشها وعملوا كلّ ما عملوه في سبيلها، وجزونا على النصح الذي نصحناه بعدم الانقياد للدسائس الإنجليزية بأن قذفوا بنا واتّهمونا بخيانة العرب ورمونا بكلّ عضيهة، وما زالوا يقذفون ويطعنون إلى أن تجلّى الصبح لكلّ ذي عينين، وأسفرت مواعيد إنجلترة تلك عن تقسيم البلاد العربية بينها وبين فرنسة وعن تسليم فلسطين إلى اليهود فاسودّت وجوه أولئك الذين عبدوا إنجلترة من دون الله وعلموا أنهم كانوا في ضلال مبين.

وبرغم كلّ ما أعلمه من أضرار السياسة الإنجليزية بالمسلمين في مصر والسودان والهند وجزيرة العرب وتركيا وفارس وأفغانستان وغيرها فإنّي إذا آنست عملاً واحدًا يستحقّ المديح من أعمال إنجلترة وينفع الإسلام في شيء فوالله لا أتأخّر لحظة عن أن أذكره لها بدون محاباة كما فعلت في قضيّة العراق. ولا يهمّني السبب الذي لأجله أحسنت إنجلترة في هذا العمل؟ فإنَّنا نحن لا نعرف غير النتيجة وليس لنا أن نبحث عن أسباب العمل النافع لنا ولا

أن نقول إنَّ العوامل التي ساقت الدولة الفلانية إلى أن تحسّن في عملها هذا هو كذا وكذا. ينبغي أن لا نجهل أسباب العمل، ولكنّه إذا كان هذا العمل مفيدًا بحقّنا فينبغي أن نحمده، لأنَّ الحسن حسن في نفسه وهو يستحقّ الثناء كما أنَّ القبيح قبيح في نفسه وهو يستحقّ الهجاء، ولو أقلعت إنجلترة الآن عن متابعة سياساتها الأخرى المضرّة بالمسلمين كسياستها في مصر التي ترمي إلى حرمان الأمّة المصرية استقلالها الحقيقي، وكسياستها في السودان الذي تريد أن تستأثر به لنفسها وتجعله من جملة مستعمراتها، وكسياستها في فلسطين التي أصبحت على شفا جرف هار ولم يبقَ بينها وبين أن تتحوّل مملكة يهودية سوى ثلاث أو أربع سنوات، لما كنّا نتأخّر عن إعلان الشكر لإنجلترة ولا عن نصح المسلمين بالتحالف معها.

ولمّا استدعانا الفرنسيس إلى باريس أولاً وثانيًا لمكالمتنا في القضيّة السورية، كنّا على استعداد تامّ لو أجابوا إلى الاستقلال الحقيقي ورفعوا تلك القيود التي كانوا يريدون أن يعيدوا بها استقلالنا، لفظًا بدون معنى، أن نكون لهم في مقدّمة الشاكرين وأن نخلص لهم الصداقة وأن نحالفهم في السرّاء والضرّاء، لأننا نحن لا نجهل أنَّ المنافع لا تكون إلاَّ بالتبادل، وأنَّ الضعيف بإزاء القويّ لا يقدر أن يطمع في المساواة التامّة، ولكنّنا نعلم أيضًا أنَّ للضعف حدًّا كما أنَّ للقوّة حدًّا، وأنَّ الضعف لا يوجب فراغ الأمّة عن كيانها ورضاها بأن تندمج في غيرها.

وفي هذه المدّة الأخيرة قيل لنا إنَّ الدولة الإفرنسية تريد إلغاء الظهير البربري الرامي إلى إخراج عدّة ملايين من البربر من دين الإسلام، فكنّا مستعدّين أن نشيد برجوع فرنسة عن الشناعة التي ارتكبتها في التعرّض للدين الإسلامي في المغرب، وأن ننوّه بحرّية مباديها وننشر لها عَلَمًا من الثناء خفاقًا، وذلك لتعلم فرنسة أننا نقرّ بالجميل كما ننكر القبيح، وأننا لا نخاصم إلاَّ عندما يكون الخصام لزامًا والعذاب غرامًا. إلاَّ أنَّ خبر إلغاء الظهير البربري لم يكن مع الأسف صحيحًا لنشكر فرنسة على ذلك.

ولمّا مررنا بمصوع وأسمرة في الصيف وسمعنا من المسلمين الثقات الثناء على إدارة إيطالية لتلك المستعمرة، وتنزّهها بنوع خاصّ عن أذيّة المسلمين في دينهم، والتزامها منع المبشّرين الذين ملأوا الدنيا في سائر المستعمرات الأوروبية وأذاقوا الإسلام حتّى في نفس مصر عذابًا واصبًا، وجدنا عملاً شريفًا يكون من باب الدناءة فضلاً عن الحماقة إنكاره وعدم المبالاة به. ونحن في البلاد الإسلامية الصرفة نعاني من المبشّرين ما نعاني ونجد

الحكومات الإسلامية نفسها عاجزة عن دفع أذاهم وأحيانًا راضية باعتدائهم. فما وصلنا إلى جنيف حتّى أخذنا القلم وكتبنا في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» فصلاً نقلنا فيه ما أجمع عليه جلساؤنا يوم كنّا في أسمرة من مصريين وحجازيين ويمنيين وأحباش مسلمين من أنَّ إيطالية في الأرتيرية لا ترهق المسلمين عسرًا، وأنها تعاملهم معاملة حسنة وأنها تحترم دينهم ودنياهم. لماذا إيطالية في الأرتيرية تحسن معاملة المسلمين وهل هذا منها على أمل أن يكونوا في صفّها إذا وقعت الواقعة بينها وبين الحبشة المسيحية؟ الجواب عن هذا ليس يعنينا وإنَّما الذي نعلمه أنَّ إيطالية تعامل المسلمين في الأرتيرية على قدم المساواة مع غيرهم، على حين أنَّ الفرنسيس يحطّون المسلمين في المغارب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى تحت جميع الأوربيين وتحت اليهود وتحت المالطيين. وعلى حين ثلثا أراضي المغرب الأوسط المغرب الأوسط مأخوذان غصبًا من أيدي المسلمين ولا يحقّ لهؤلاء بحسب القانون الإفرنسي أن يملكوا أكثر من الثلث. وعلى حين أنك إذا فتّشت في سجلاّت المحاكم لا تجد دعوى واحدة من عشرة آلاف دعوى ينال فيها المسلم حقًّا من إفرنسي وعلى حين أنَّ المسلم إذا قتل إفرنسيًّا، ولو في سبيل الدفاع عن نفسه، فليس له إلاَّ القتل، وأنَّ الإفرنسي إذا قتل مسلمًا فإمَّا أن يطلق سبيله بحجّة أنه مدافع عن نفسه، وإمَّا أن يحكم عليه بالسجن مدّة قصيرة ثمَّ لا يسجن. ومن ثلاث سنوات قتل إفرنسي مسلمًا في فاس تعمّدًا وحكم عليه بالحبس سنتين. ولكنّه لم يدخل الحبس، وبعد أن ارتفعت الضجّة في هذه المعاملة الجائرة اضطرّ الفرنسيس أن يقنعوا الإفرنسي القاتل بأن يأتي إلى السجن نهارًا ويأخذ راحته فيه، وأفرزوا له غرفة خاصّة وأذنوا له في المبيت في بيته. وجميع أعمال الفرنسيس مع المسلمين هي من هذا النمط. وفي أحد الأندية الإفرنسية بالجزائر مكتوب على الباب بالقلم العريض «محظور الدخول على العرب والكلاب» وأمَّا القضيّة الدينية أي التي تحاول فرنسة فيها هدم الدين الإسلامي من أساسه في المغرب فقد علمها القاصي والداني، ولم يبقَ مجال لأحد أن يناكر أو يكابر فيها، ومع هذا فإنَّنا سنفرز لها مقالة خاصّة عدا ما كتبناه من قبل وما كتبه غيرنا. وحسبنا الآن أن نقول: إنَّ لجنة من شبّان المغرب الناهضين قدّموا مؤخّرًا إلى الحكومة الإفرنسية لائحة اسمها «لائحة الإصلاحات المغربية»، جعلوا منها فصلاً خاصًّا يتعلّق بقضيّة تنصير المسلمين، وطالبوا فرنسة بإلغاء جميع التدابير التي اتّخذتها لإخراج أهل المغرب من الإسلام بادئة فيها بالبربر. وقد أخذ بأيديهم في هذا المشروع بعض النوّاب الأحرار من الفرنسيس.

وقد ذكرنا في الجرائد التي نشرنا بها مقالتنا الأخيرة وهي «المقطّم» و«الجهاد» و«كوكب الشرق» أننا لا نحصر سياسة تنصير المسلمين في فرنسا وحدها، إن كانت هذه تجاوزت الحدّ في هذا الموضوع، وإنَّنا نشكو أيضًا سياسة الحكومة الهولاّندية في بلاد الجاوى حيث ثلاثمائة ألف مسلم قد خرجوا من الإسلام، ودانوا بالنصرانيّة بمساعي المبشّرين الذين تحميهم الحكومة الهولاّندية وتنفق عليهم. وأنه جاء وقت اقترح فيه بعض نوّاب هولّنده في مجلس الأمّة أن تحمل الحكومة الهولاّندية جميع مسلمي الجاوى على التنصّر. وهذا إن لم تكن تلك الحكومة وصل بها الهوس إلى هذه الدرجة يدلّ على ما في نفوس الهولّنديين من هذا الاستعداد، فإنَّه ليس من الضروري أن يباشر الإنسان كلّ عمل يلوح في فكره لا سيَّما إذا كان شديد الامتناع. ونحن عندما كنّا في مؤتمر المستشرقين في ليدن وكان هناك حفل عظيم فيه ألف مستشرق قام ناظر المعارف الهولاّندية ورحّب بنا، وقال من جملة خطبته هذه الجملة: إنَّنا ماذهبنا إلى الشرق الأقصى لأجل إحراز منافع دنيوية ولكنّنا ذهبنا لأجل نشر فضائل الديانة المسيحية.

وهذه الجملة قد نبّهنا إليها بعد ذلك رئيس مؤتمر المستشرقين الأستاذ سنوك هوركرنيه وقلنا له بالصراحة: إذا كان ناظر معارفكم يعلن مثل هذا القول في مثل هذه الحفلة، وقد دعوتم إليها عددًا من المسلمين من مصريين ومغاربة وأتراك، وأنا أيضًا موجود، فكيف يمكنكم أن تنكروا عدم سيركم على سياسة دينية في البلاد الأندونسية. فلم يَحُرْ الأستاذ على هذه النقطة جوابًا. وأظنّ أننا ذكرنا هذه الواقعة في «الفتح».

ولا نبرّئ الإنجليز من اتّباع مثل هذه السياسة في السودان، وفي بلاد الأوغندة التي استعملوا فيها سلطتهم السياسية لمنع نشر الإسلام بين الأوغنديين ولمنع نشر الكثلكة أيضًا، بحيث تنحصر الدعاية الدينية في الكنيسة البروتستنتية. ونحن إنَّما فهمنا أعمالهم في الأوغاندة من كتب المبشّرين الكاثوليكيين الذين كانوا يضجّون من أعمال ضبّاط الإنجليز ويقولون إنَّهم لم يمنعوا نشر الإسلام فقط أي أنهم لو منعوا نشر الإسلام فقط لكانوا معذورين، ولكنّهم منعوا نشر الدين الكاثوليكي أيضًا.

فإذا كانت هذه حال الدول الاستعمارية الكبرى في بثّ دعايتها المسيحية بين المسلمين وفي استعمال نفوذها السياسي، واستخدام قوانينها وأنظمتها لأجل محو الإسلام، أفلا يكون بديهيًا أن نحمد صنيع إيطالية لتجانفها عن سلوك ذلك المسلك الشائن، المخالف لحقوق الأمم

وللمعاهدات المنعقدة، ولقانون جمعيّة الأمم فضلاً عن الشرع الإسلامي وعن الكرامة التي كان يجب على تلك الدول أن يرعوها لأربعمائة مليون مسلم هم خُمس العائلة البشرية أفلا يكون من باب الحكمة والمصلحة الإسلامية أن ننوّه بجميل صنع إيطالية في الأرتيرية، حتّى تعتبر بذلك سائر الدول الاستعمارية، وتعلم أنَّ المسلمين مستيقظون غير رقود، وأنهم أحياء غير أموات، وأنهم يلحظون بل يحصون كلّ ما تعلمه الدول في مستعمراتها، ولا يغادرون صغيرة ولا كبيرة، فإذا كان ثَمّ من حسن ذكروه وشكروه وإذا كان من قبيح فضحوه وشهروه؟ ثمَّ ألا يكون من المصلحة ـ والأمر بين هذه الدول عبارة عن زحام وسباق ـ أن نغريهنَّ بالمسابقة في ميدان الحسنات حتّى يقتدي بعضهنّ ببعض؟

ولم يكن لكلامي عن الأريترية نقلاً عن مسلميها أدنى علاقة بقضيّة طرابلس الغرب، فهذه قضيّة وتلك قضيّة أخرى، لا ينبغي أن نخلط الواحدة بالثانية. فقد يكون صنيع إيطالية في الأريتريّة حسنًا ويكون في طرابلس سيّئًا لأنَّ أهالي الأرتيريّة لم يثوروا على إيطالية فلم تتولّد أحقاد وضغائن، ولأنَّ أهالي طرابلس ناصبوا إيطالية القتال عشرين سنة فامتلأت الصدور من الفريقين حزازات وأضغانًا. فالأمر في الأريترية يختلف عمّا هو في طرابلس وبرقة، غير أنه لا بدّ أن نعلن هنا أيضًا من أنَّ زعيم الحكومة الإيطالية المشهود له بالعبقرية لما ارتفع صراخنا من أجل الفظائع التي ارتكبها الطليان في طرابلس، وتبعه صراخ المسلمين من كلّ جانب، علم أنَّ هذا الصراخ المتواصل لا بدَّ أن يكون عن أسباب صحيحة لا مبالغة فيها، ولما كان بينا وبينه صداقة أكيدة، أيام كان رئيسًا لتحرير جريدة "بوبولو ديتاليا"، وكان أنشأ جملة مقالات في الدفاع عن القضيّة السورية، وبقينا مدّة سنين نرعى له هذا الذمام، وإذا وجّهنا الكلام إلى إيطالية فلا نوجّهه إلاَّ من قبيل الملام، فقد أرسل إلينا يطلب أن نقفه على ما عندنا من المعلومات عمّا جرى في طرابلس، فبعثنا إليه بكلّ ما نعلم، وطلبنا إنصافه للمسلمين وقلنا له: إنَّ العمّال والمأمورين الذين ارتكبوا تلك الأعمال المضرّة بالمسلمين وبإيطالية معًا، لا شكّ أنهم اتّخذوا لديك جميع التدابير التي تخفي عنك الحقائق، ولكن الحقائق هي خلاف ما يزعمون. وبعد أخذ وردّ طويلين اقتنع زعيم إيطالية بأنه لا بدّ من تغيير هذه السياسة في طرابلس وباشر ذلك فعلاً وأمر بالسير على خطّة لا تسوء المسلمين في كثير ولا قليل. ولمّا كانت هذه المقالة قد بلغت من الطول ما لا تسع معه القضيّة الطرابلسية فإنّنا سنرجئ الكلام على طرابلس وسياستنا فيها إلى مقالة ثانية. ومن الآن نقول

إنّ الثمانين ألف عربي الذين كان شرّدهم الجنرال "غراسياني" في صحراء سرت وساحل العقيلة، ومات منهم ١٥ ألفًا حسبما روى لي رجل من أحرار الطليان أنفسهم وفنيت جميع مواشيهم، هؤلاء قد أمر السنيور "موسوليني" بإعادتهم جميعًا إلى أوطانهم، وأمر أيضًا بأن لا يبقى أحد من المنفيين منفيًّا، وقد رجع جميع أولئك فعلاً. نعم إنّه قد أرسل لنا بأنّ إعادة هؤلاء جميعًا دفعة واحدة يخشى منها رجال العسكرية محذورًا من هياج واضطراب، فرددنا الجواب قائلين: إنَّنا نرضى بأن يكون رجوعهم تدريجًا ولو أخذ خمسة أو ستّة أشهر. وهكذا حصل، ثمَّ إنَّهم لمّا رجعوا وهم بحالة من البؤس شديدة، بعثنا إليه بوصف حالتهم من الضنك وفقد أسباب المعيشة، فأصدر أوامره المشدّدة بأن يقرضوهم من البنك الزراعي، وبأن يشغلوهم من الأعمال العمرانية، وبأن يطيّبوا خواطرهم بكلّ ما يمكن وبعث إلينا بأنَّ كلّ من يقع عليه مظلمة من المسلمين يجب أن يقدّم له الشكوى بها صريحة موضّحة وهو يميطها عنه في الحال. ونحن أخبرنا إخواننا الطرابلسيين الذين منهم في مصر والذين في سورية والذين في فلسطين حتّى يوافوا الحكومة الإيطالية بشكاياتهم، ونحن حاضرون لعضدها من جهتنا، حسبما صدر الوعد لنا. فالقارئ يرى أنه ليس هناك في سياسة تفاهمنا مع إيطالية سرّ مكتوم. نعم لم نشأ أن نعلن ذلك من قبل في الجرائد، وذلك خشية أن يتلقّى القرّاء منّا هذا الكلام من نوع الافتخار والزهو أو المنّ بما عملناه، وقد كان الجواب أن لا تتناول الصحف السيّارة مثل هذه المسائل لأنَّ نجاح العمل يقتضي الكتمان، كما جاء في الحديث الشريف. ولكن مع الأسف أراد بعض أعدائنا أن يلوّثونا أمام الناس بتهم لا يمكننا أن نقبلها وتمالأوا في هذه الحملة مع الحكومة الإفرنسية، فاضطرّتنا الحالة أن نشرح أمورًا كان أدنى إلى المصلحة الإسلامية أن تبقى مطويّة على غرّها. فنحن لم ننوّه بما عملناه من خير إلاّ مكرهين. ولا يصحّ إلاّ الصحيح.

جنيف، ١٦ شوّال ١٣٥٣هـ/١٩٣٥/١/٢٢م

شكيب أرسلان



فرصة لتحسين حال مسلمي الحبشة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

إنه بعد أن حدث الاختلاف بين إيطاليا والحبشة وأخذت كلّ من الدولتين تتأهّب للقتال، وكنّا نعلم ما عليه مسلمو الحبشة من الضنك مع النصارى، وجدنا هذه الفرصة هي المثلى لنصح الحكومة الحبشية بمعاملة المسلمين على قدم المساواة مع المسيحيين، لمعرفتها أنها إذا ضاعت هذه الفرصة فلن تعود، وأنَّ قومًا تعوّدوا أن يرهقوا قومًا آخرين مجاورين لهم وقد استمرّ هذا الإرهاق قرونًا متطاولة، لا يسهل عليهم أن يغيّروا عادتهم وأن يعتدلوا معهم. ولكن إذا وقعوا بإزاء حادث خطير يتهدّد كيانهم فقد يثوبون إلى الصواب ويعاملون أبناء وطنهم المهضومين كما يجب أن يعامل أبناء الوطن الواحد بعضهم بعضًا. قلنا مائة مرّة إنَّنا قوم لا نريد أن نخدم المسلمين بالجعجعة الفارغة حتّى يقول الناس عنّا ما شاء الله وبأسم الله، بل نريد أن نخدم المسلمين بالعمل وبالمصالح الراهنة. نريد أن ندفع بهم إلى الأمام بكلّ وسيلة. وقد رأينا هذه الحادثة فرصة للتنفيس من خناق مسلمي الحبشة، بل وجدناها فرصة لهداية الحبشة النصارى إلى مصلحتهم الحقيقية القائمة بالاتّحاد مع المسلمين، لأنه إذا كان هناك دول أجنبية طامحة إلى الاستيلاء على الحبشة وكان المسلمون ناقمين على النصارى، فإنَّ هذه الدولة الأجنبية إيطاليا أو غيرها تتورّد من خلال هذا الشقاق بين الملّتين هناك فرجة عظيمة وتقول للمسلمين: إنّني أنا آتية لإنقاذكم من العَنَت الذي أنتم فيه. وأمَّا إذا كان المسلمون متمتّعين بالحقوق وبالسيادة التي يتمتّع بها النصارى فلن تقدر إيطاليا ولا غيرها أن تتورّد تلك الفرجة وتدخل على الحبشة من تلك الثلمة.

ما نظنّ أننا أخطأنا في فكرتنا هذه، ولا يوجد ذو مسكة من عقل أو من إنصاف يقدر أن يقول: كلاَّ، لا يهمّنا عدم مساواة المسلمين بالمسيحيين في الحبشة، وأمر تافه عندنا أن تضغط عليهم الحكومة الحبشية أو لا تضغط. وما أهمّية ستّة ملايين مسلم في تلك الأصقاع إذا كانوا في حال الرقّ للأحباش النصارى؟

---

* الفتح، العدد: ٤٤٤، (١٨/٤/١٩٣٥)، ص ص. ٨ ـ ١١ و١٦.

يقدر أن يؤاخذنا الناس لو قلنا: إنّه لمن المستحبّ عندنا أن تستولي إيطاليا على الحبشة لكون المسيحيين فيها يظلمون المسلمين. فهذا لم نقله ولا نقوله ولن نقوله لا حبًّا بالحبشة النصارى الذين يرهقون المسلمين من مئات من السنين بشكل فظيع، ولكن حبًّا بعدم تسلّط دولة غربيّة على دولة شرقيّة، ومحافظة على مبدأ مقدّس نحن في مقدّمة الدعاة إليه وهو عدم تسلّط أمّة على أمّة. يستحيل علينا أن نقابل بسيف الاستعمار حيثما يكون عاملاً في رقابنا. ولذلك نريد أن ننقل هنا العبارة التي نشرناها في شهر فبراير الماضي بالعدد الأخير من مجلّتنا «لا ناسيون آراب» فهو هذا مترجمًا بالحرف الواحد:

مسلمو الحبشة

إنَّ الخلاف الإيطالي الحبشي لم يلبث أن أثمر ثماره، فإنّه من المعلوم أنَّ مسلمي هذه المملكة يبلغون خمسة أو ستّة ملايين، وأنهم يزيدون على نصف سكّانها، ومع ذلك فالحكومة الحبشية تعدّهم كأنهم غير موجودين في الدنيا، فليس لهم ممثّلون في الحكومة لا بنسبة عددهم ولا بنسبة واحد في المائة من عددهم. ونادر جدًّا أن يوجد منهم مستخدمون في الدولة وإن وجد ففي وظائف صغيرة للغاية، وبالاختصار الحكومة الحبشية حكومة مسيحية بأجمعها ولو كان نصف الرعايا مسلمين، وهذا غير كافٍ منها، بل الحكومة تحت ضغط الإكليروس الحبشي وأكثر منه تحت تأثير المبشّرين الأوربيين تبثّ دعاية مسيحية واسعة النطاق بين المسلمين. والحال أنَّ الأمّة الإسلامية هناك ليست أحطّ من الأمّة المسيحية، بل المسلمون في الغابر كانوا أعلى درجة، وكان منهم أبطال مشهورون معدودون في الطبقة الأولى من رجال التاريخ، وكانوا أوشكوا أن يستصفوا الحبشة بأجمعها.

فنحن غير مطالبين الآن بهذه الفتوحات ولسنا نضمر أدنى نيّة سيّئة بحقّ كيان الحبشة السياسي، بل نريد للحبشة السعادة التامّة. ونتمنّى لها في هذا الموضوع كلّ ما نتمنّاه لممالك الشرق. ولكن الذي لا يمكننا أن نتحمّله هو معاملة هذه المملكة للمسلمين كأنهم أمّة منحطّة عن المسيحيين، فليس هو موافقًا للحقيقة ولا لحقوق الأمم ولا لمصلحة الحكومة الحبشية نفسها. وإنّنا كنّا قد تلقّينا تفاصيل كثيرة عن المعاملات السيّئة الواقعة على مسلمي الحبشة ولكن أمسكنا عن نشرها حبًّا بالوئام بين الأمّتين المتساويتين في تلك البلاد، مع أننا كنّا قادرين أن ننشرها بالإفرنسية وبالعربية بواسطة الجرائد الكثيرة التي نقدر أن نكتب فيها. ولقد سمعنا

مؤخّرًا بأنه قد بدأت علامات تودّد نحو المسلمين هناك فإذا صحّت هذه المعلومات فإنّنا لا نقدر إلاّ أن نحبّذ هذه السياسة، ونحن نرجو أن لا تكون هذه السياسة خدعة مؤقّتة لتسكين المسلمين ريثما تكون الزوبعة الإيطالية قد مرّت، إذا كانوا هناك يريدون أن يستوثقوا من صداقة المسلمين فالطريقة الوحيدة لذلك هو تسويتهم بالمسيحيين في الحقوق وأنَّ لا فرق بين الفريقين وليس الملك طفري هو الذي سيخسر في هذه السياسة.

إنَّني لسائل أهل الخافقين: هل يوجد في هذا الكلام ما يقال له دعاية لإيطاليا؟ هل يوجد حرف واحد من هذا المقال يومئ إلى وجوب خضوع الحبشة لإيطاليا؟ إذا كانت الألفاظ تدلّ على المعاني فإنَّ هذه الدعوة التي قدّمناها للحبشة هي دعوة على إيطاليا لا لإيطاليا. إن وجد من يكره بيانًا من هذا القبيل في مثل هذا الموقع فيكون رجال سياسة إيطاليا لأنهم يفهمون منه أننا ننصح نصارى الحبشة بتألّف قلوب المسلمين حتّى يكونوا وإيّاهم يدًا واحدة في وجه الطليان، ويصير المسلم حينئذٍ شديد الحفاظ عظيم الحماسة في قتال الأجنبي كما هو المسيحي، لأنَّ المسلم حينئذٍ يدافع عن وطن هو فيه عزيز أي يدافع عن عزّه بخلاف ما لو كان مهتضمًا ذليلاً فإنّه يساق إلى الدفاع برغم أنفه، لأنه ليس من المعقول أنَّ إنسانًا فيه صفات البشريّة يدافع عن ذلّه.

نحن نصحنا الحبشة أن يسوّوا بين المسلمين والمسيحيين في الحقوق وفي إحراز المناصب ويتركوا هذه السياسة التبشيرية ويعدلوا عن هذه الدعاية المسيحية بين المسلمين، حتّى تكون هناك كتلة حبشية وطنية متّحدة متعصّبة لا يقدر الأجنبي أن يجد إليها طريقًا. فليتأمّل المتأمّل في ترجمة مقالتنا هذه وإن شاء فليراجع أصلها الإفرنسي حتّى يعلم علم اليقين أنها كلّها في صالح الحبشة أنَّ الطليان في أنفسهم لا يكونون شاكرين لكتابة كهذه تهدي الحبشة إلى الطريق الوحيد الذي فيه وقايتهم من خطر الاستعمار.

فبرغم هذا الكلام الصريح الفصيح قام أناس يتّهموننا بأننا إنَّما نعمل دعاية لإيطاليا! أين وجدوا هذا؟ أفي مقالتنا الإفرنسية أم في مقالات كثيرة لنا كرّرنا فيها مرارًا، بأننا قوم قارعنا الاستعمار ولا نزال نقارعه ولا يمكننا أن نوافق عليه بوجه من الوجوه، وأننا لا يمكننا بعد خمسين سنة متّصلة في هذه المكافحة نعود فنقول: كنّا في ضلال مبين ولتأتِ أوربا ولتأخذ بلاد الشرق. أين قلنا: إنَّنا نحبّذ استيلاء إيطاليا على الحبشة؟ وإنَّه لا يجب على مسلمي الحبشة أن يقاتلوا عن أوطانهم؟ عشرين مرّة كتبنا بالعربي لا بالسرياني ولا بالعبراني إنَّنا لا نرضى

بتسلّط أمّة على أمّة ليس أمّة غربية على أمّة شرقية فحسب، بل هذا المبدأ كلّه نرفضه بتاتًا لأننا نحن بأنفسنا واقعون بهذه العلّة. ومع هذا يكابر المكابر ويقول: بل هذه دعاية لإيطاليا!

نعم إنَّ بين هؤلاء المكابرين من هم شياطين يفهمون الحقيقة ويتجاهلونها. ومنهم من قاموا بدون أدنى معرفة لما هو حاصل في الحبشة يضجّون ويصخبون ويصيحون مندّدين لا بمن يوافق على استعمار إيطاليا للحبشة فقد كانوا مصيبين لو اكتفوا بذلك، ولكنّهم يندّدون بكلّ من يقول إنَّ الحبشة المسلمين هم هناك في ذلّ، وإنَّه ليس لهم نصيب من المساواة مع أبناء وطنهم.

فيجب علينا أن ننكر حصول الضغط على المسلمين ونتجاهل هذا الأمر بتاتًا وأن نقول: إنَّ المسلمين في الحبشة هم متمتّعون بنفس الحقوق التي يتمتّع بها النصارى، وأن نكذب هذه الكذبة العظيمة لأجل خاطر هؤلاء.

ولا يجوز لنا أن ننصح الحبشة بتسوية المسلمين مع المسيحيين ولو كان في ذلك عين المصلحة لها.

وقد بلغ من بعضهم المكابرة في المحسوس أن كتب إلى جريدة في فلسطين بقوله: ما سمعنا أنَّ الحكومة الحبشية أساءت معاملة المسلمين إلاَّ منكم! سبحانك إنَّ هذا بهتان عظيم. حوادث تاريخية تواترت في القرون والأجيال واتّفقت عليها تواريخ الأمم شرقًا وغربًا وعندي بضعة عشر مجلّدًا عن تاريخ الحبشة منها ما هو بالإفرنسي والإنجليزي ومنها ما هو بالعربي وكلّها تؤيّد هذا الأمر. وأنا نفسي كتبت في هذا الموضوع في حواشي حاضر العالم الإسلامي أربعين صفحة هي زبدة ما أخذته من التواريخ العربية والأوروبية ومن هذا نعلم عدا الحوادث الماضية أنَّ الحبشة المسلمين ذاقوا من الهوان ما لم يذقه إلاَّ مسلمو الأندلس، مع الفرق بأنَّ مسلمي الأندلس أكرهوا على التنصّر في القرون الوسطى وأنَّ مسلمي الحبشة أكرهوا على التنصّر قاطبة حاضرهم وباديهم، من خمسين سنة ليس في القرون الوسطى. اقرأ ما ورد في الأنسيكلوبيدية الإسلامية تحت لفظة Abyssinie في صفحة ١٢٣ من الجزء الأول ومن المعلوم أنَّ الأنسيكلوبيدية الإسلامية المحرّرة باللغات الثلاث الإفرنسية والإلمانية والإنجليزية قد حرّرتها لجنة إن لم نقل إنّها مجاهرة بعداوة الإسلام فلا نقدر أن نقول إنَّها صديقة للإسلام، جاء فيها ما يلي: بعد ذكر حروب كثيرة وغارات كثيرة للحكومة الحبشية

على بلاد الإسلام: "كان الراس على من ابجالة في سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٥ ذا نفوذ عظيم في مقاطعة بيغمدر وكان قد تنصّر ظاهرًا إلاَّ أنه كان يساعد المسلمين بما أمكنه فغاظ ذلك الحبشة وقاموا بالضغط على المسلمين في زمن الملك تيودورس، وكان هذا عدوًّا لدودًا للمسلمين (سنة ١٨٥٥ـ١٨٦٨) وقد وصلت هذه العداوة إلى الدرجة القصوى بعد الحروب التي وقعت مع مصر، لأنَّ مصرًا احتلّت بعض نواحٍ من شمالي الحبشة مثل هالنغه والغيدن وسابدارت وغيرها وانبسط الإسلام هناك وسنة ١٨٦٤ طرد الحبشة الترك من مصوع وسنة ١٨٧٥ استولوا على هرر وعلى مقاطعات الجنوب والغرب فأرسل الخديوي جيشًا إلى مصوع، فذبحوه في واقعة غودا غودي، وذلك في زمن الملك يوحنّا. فأرسلت مصر جيشًا آخر تحت قيادة حسن باشا ابن الخديوي فانهزم هذا الجيش أيضًا في ٧ مارس ١٨٧٦، ولمّا توطّد الملك يوحنّا على عرشه أصدر في سنة ١٨٨٠ أمرًا يجبر فيه كلّ من كان يدين بالإسلام أن يصير نصرانيًا أو يهاجر الحبشة. فهاجر كثير من المسلمين إلى القلابات. وفي سنة ١٨٨٣ كانت حارة الإسلام في غندار قاعًا صفصفًا، ثمَّ صدر الإذن لمسلمي سيراك وهمازان وغيرها بالبقاء في البلاد. ولكنّهم فرّقوهم بعضهم عن بعض وقد كانت هذه التدابير ولا سيّما في الشمال غير طويلة المدّة". اهـ

وليس هنا المجال متّسعًا لنقل هذه التواريخ كلّها وإنَّما نقلنا هذه العبارة من كتاب محرّر بأقلام أوربية وغير مشهور بالتحيّز للإسلام.

وعندنا ما يؤيّد روايته من المعلومات الواردة لنا من الحبشة نفسها فنحن لا نرسل القول جزافًا ولا نظلم أحدًا ولو كان عدوًّا لأنَّ الافتراء لا يرتكبه إلاَّ الرجل السافل ونحن مأمورون شرعًا فضلاً عن أننا مأمورون شرفًا وأدبًا وكياسة أن نقول الحقّ ولا نحيد عنه قال الله تعالى: ﴿لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، وقال تعالى: ﴿الحقّ من ربّك فلا تكونن من الممترين﴾، فلنفرض أنَّ الأحباش النصارى ليسوا بأصدائقنا فلا يجوز لنا أن نقول فيهم ما ليس فيهم ولا أن نتّهمهم بما لم يفعلوه. ولكنَّنا إذا كنّا على ثقة ممّا فعلوه وممّا لا يزالون يفعلونه فلن نتأخّر عن إظهار ذلك حبًّا بزيد وعمرو أو رعاية لأناس يعتقدون أنَّ ذكر هذه الحقائق مخالف للسياسة... فإن كنتم تفهمون معنى السياسة فالواجب عليكم أن تقولوا الحقيقة لئلاّ يتمادى الحبشة في طغيانهم فيقولوا في أنفسهم: نحن نرهق المسلمين عسرًا من مئين من السنين ونجبرهم على التنصّر ومع ذلك

نهؤلاء المسلمون في الأقطار الأخرى يتنصّرون لنا ولا يبالون بما فعلناه بإخوانهم. فهذا ليس من السياسة التي تنفع المسلمين في الحبشة، بل ليس من السياسة التي تنفع النصارى أنفسهم. فإن كنتم أنتم معاشر المتنصّرين للحبشة تحبّون هذه المملكة فإنّه يجب عليكم أن تنبّهوها إلى مصلحتها وتحذّروها من الموبقات الضارّة بها، فإنّ الطبيب الذي يحبّ مريضه لا يخدعه، بل يحذّره من الإسراف على نفسه وينبّهه إلى الطرق التي يحفظ بها صحّته. ولا يؤمل صحّة حقيقية لمملكة الحبشة ما دام المسلمون فيها في درجة منحطّة عن درجة المسيحيين.

لمّا قرّر المؤتمر الإسلامي تأليف دليل للعالم الإسلامي يتضمّن معلومات أكيدة عن جميع الأقطار التي فيها مسلمون، أخذنا نراسل الجهات ونأخذ منها معلومات نعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب الذي رغب إلينا صاحب السماحة الحاج أمين الحسيني أن نكون من العاملين فيه. فكانت الحبشة من جملة البلاد التي أخذنا عنها المعلومات الوثيقة وبهذه الواسطة علمنا ما هو جارٍ هناك على وجه الإجمال. وكانت المعلومات التي تلقّيناها مؤيّدة بتواقيع كثيرة فلا يقدر أحد أن يقول: إنّنا بنينا على غير أساس. عندنا مكاتيب نعرف منها أنّ المسلمين هناك مصابون من كلّ الجهات، وكان أحد من يكاتبوننا قد شعرت به الحكومة الحبشية فألقت به في السجن فما تخلّص إلاّ بعد أشهر، ولم يعد بعدها إلى مكاتبتنا بحرف واحد.

ونحن مع ذلك غير محتاجين إلى مكاتيب سرّية تأتينا من الحبشة لأنّ في أيدينا وثائق مطبوعة ومن جملتها الفتوى التي أصدرها أساقفة الحبشة بخلع الملك ياسو بحجّة تودّده للمسلمين... هذه الجملة تودّد ياسو للمسلمين لم تجمجم بها الحكومة الحبشية، بل نشرتها علنًا وحسبتها ذنبًا كبيرًا يستحقّ خلع ملك. ونصّ الفتوى محفوظ عندنا نقلاً عن الصحف الإفرنسية، بل قرأت في بعض الجرائد المصرية وفي الأيام الأخيرة ما يؤيّد هذا الأمر، وفيه زيادة على ما أعلم وهي أنه وجد في بعض جيش الملك ياسو كتائب كانت تحمل أعلامًا مكتوبًا عليها لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله. فهذا العمل عدّ مروقًا من القاعدة وخرقًا لأصول الحكومة الحبشية واستوجب خلع الملك...فتأمّلوا. وتحرير الخبر أنه الملك ياسو هو ابن الرأس ميكائيل وأنَّ الرأس ميكائيل هو من أمراء مقاطعة يللو وقد كان مسلمًا، ويقال إنَّ أصله من سادات اليمن، ولمّا صدرت أوامر الحكومة الحبشية بتنصير المسلمين كان الرأس ميكائيل ممّن تنصّر وخدم في هذا الموضوع كثيرًا. ثمَّ لمّا مات الملك يوحنّا رجع أكثر المسلمين إلى الإسلام، ولكن بقي في مقاطعة يللو المذكورة نحو عشرة في المائة لم يعودوا إلى الإسلام وأكثرهم

من أولاد العلماء والأمراء والأعيان وكان منهم الرأس ميكائيل هذا. فأحبّه الإمبراطور منليك وأزوجه ابنته فولد له منها ياسو. ولمّا مات منليك عن غير ولدٍ ذكر عهد بالملك لياسو، فتذكّر ياسو أنَّ أصله مسلم وهو في الحقيقة لم يعمل شيئًا للمسلمين فلا قدرِ أن يسوّي بينهم وبين المسيحيين، ولا تمكن من أن يمنحهم أقلّ شيء كانوا غير حاصلين عليه من قبل. وغاية ما في الباب أنه كان يحسن استقبالهم ولا يهينهم وكان يقول: هؤلاء أكثر من نصف المملكة فلا يجوز لنا أن نكسر قلوبهم، وكان من وقت إلى آخر يزور أعيانهم ويعزّز قضاة الشرع فيهم، فنقم عليه لذلك رجال الحكومة الحبشية فالتجأ إلى حزبه وكان أبوه لا يزال حيًّا فوقعت المعارك بين رجال الإمبراطورة ابنة منليك التي ولّوها مكان الياسو وبين ابن أختها هذا. وكان الرأس طفري الإمبراطور الحالي في طليعة المقاتلين لياسو برغم كونه متزوّجًا بأخته. ثمَّ دارت الدائرة على ياسو وأبيه، وبعد ذلك أصاب المسلمين الذين انتصروا لياسو من المصائب ما نحن ممسكون الآن عن ذكره حتّى لا يقال إنَّنا نريد تأريث الأحقاد بين الفريقين. ونحن لولا التهمة التي رمونا بها من أننا نخدم الاستعمار الإيطالي! وأننا اختلقنا قضيّة إرهاق الحكومة الحبشية للمسلمين خدمة لهذا الاستعمار لما كنّا كتبنا شيئًا من هذه المعلومات المؤلمة. فأمَّا أن يقال لنا: نحن ما سمعنا أنَّ الحكومة الحبشية تضطهد رعاياها المسلمين إلاَّ منكم... أي أننا نحن نختلق من عند أنفسنا شيئًا لم يقع لأجل خدمة إيطاليا! فوالله هذا لا نرضاه مهما بلغ من الأمر ولذلك نحن مضطرّون إلى التصريح ببعض ما نعلم بالأقلّ، وأنَّ هذه الفئة لم تنفع الحبشة في هذه السياسة لأننا بينما كنّا ساكتين عن نشر هذه الأخبار التي عندنا حافظين لها في زوايا خزائننا حبًّا بالوئام إذ جاء هؤلاء فأحرجونا وأجبرونا أن نقول ما نعرفه وأن نستخرج من التواريخ القديمة والحديثة ما يؤيّد قولنا ويحقّق أننا لا نتحامل على أحد.

فأما أننا نخدم استعمار إيطاليا أو غير إيطاليا فهو كذب محض أيًّا كان قائله. وإذا كنّا نصحنا الحبشة في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» التي نرسل منها عدّة نسخ إلى أديس أبابا فيكون ذلك منّا في الحقيقة دعاية على إيطاليا لا لإيطاليا كما تقدّم الكلام عليه. إنَّ إيطاليا هي الحقيقةُ بأن تستاء من نصحنا للحبشة بالاتّحاد مع المسلمين. والحال أننا نرى أناسًا بينهم كثير من المسلمين هم غضاب علينا من أجل هذه النصيحة يكابرون في المحسوس ويجعلون هذه النصيحة خدمة للاستعمار الإيطالي!

في العام الماضي كتبوا إلينا من الحبشة مكاتيب يلتمسون بها أن نتوسّط لدى إخواننا المصريين ولدى المؤتمر الإسلامي في القدس في إرسال بعض معلّمين ومرشدين إلى مدرسة أسسوها هناك. فأجبناهم بأننا من جهة المؤتمر الإسلامي قد كتبنا إلى سماحة رئيس المؤتمر ونظنّ أنَّ المؤتمر في دورته القادمة سيبحث في قضيّتهم ويرسل من يشاهد أحوالهم وما يحتاجون إليه. وأمّا من جهة مصر فإنَّ الكتابة من بعيد لا تأتي بالمقصود وأنَّ عليهم أن يؤلفوا وفدًا يأتي إلى مصر ويطرق الأبواب العالية لا سيَّما القصر الملوكي وبذلك يحصل على مراده، لأنَّ مصر ليس من عادتها أن تبخل بمساعدة جيرانها، ولا سيَّما البلاد المتاخمة لها والحبشة متاخمة للسودان والسودان جزء غير منفكّ عن مصر. فكان جواب إخواننا هناك: إنّنا لا نجسر أن نؤلّف وفدًا يؤمّ مصرًا، لأنَّ هذا الأمر هو ممّا لا ترتاح إليه الحكومة الحبشية فأجبناهم: بأنه إذا كان الضعف والخوف بلغ منهم هذا المبلغ فمن العبث أن نفكّر في نهضتهم لأنَّ الناس لا يحبّون الأموات. وهذه المهمّة التي سيأتون بها إلى مصر ليست مهمّة سياسية حتّى تضطرب لها حكومة الحبشة ويقلق خاطرها لها، بل هي مهمّة دينية علمية تهذيبية فكما أنَّ نصارى الحبشة هم كنيسة واحدة مع الأقباط في مصر، فكذلك يحقّ للمسلمين الأحباش أن تكون لهم صلات مع مسلمي مصر. فنهضوا بعد ذلك وتألّف منهم وفد وجاءوا إلى مصر وحصلوا على المساعدة التي أملوها. وكان لأحد محبّي الخير من رجال المفوّضية المصرية في الحبشة يد بيضاء في تقديم هذا الوفد إلى المقامات العالية في الدولة المصرية. وكنّا نحن قد كتبنا في (الفتح) مرّة أو مرّتين وكتبنا في الجهاد أيضًا نستعطف الحكومة المصرية والمصريين نحو مسلمي الحبشة. وهذا لا بدّ من أن يكون القرّاء قد تذكّروه ولا نظنّ أنَّ أحدًا غيرنا انبرى لهذا الأمر. فنحن إذا تكلّمنا في موضوع هؤلاء الأحباش المسلمين فإنّما نتكلّم عن علم ونتكلّم عن عمل أيضًا. وليس بالهذيان الفارغ وبالاختلاق الأثيم تنقلب حقائق أفعالنا، ولو كنّا كما يتشدّق أولئك الزعانف الذين يقصدون بنا السوء لا غير، قاصدين إلى تأييد إيطاليا على الحبشة، لكنّنا نترك الحبشة تمعن في سياسة إغضاب المسلمين أو نتركها وشأنها بالأقلّ، ولم نكن ننصحها في استجلابهم إليها في مأزق كهذا المأزق لأنَّ دولة إيطاليا اليوم غير دولة إيطالية يوم وقعة (عدوه) ولأنَّ قوّة الأحباش الحقيقية قائمة بالاتّحاد. وإذا كان المسلمون هناك لا تزال مضروبة عليهم الذلّة والمسكنة فقد يقولون: إذا متّ عطشانًا فلا نزل القطر.

فتحريف كلامنا عن مواضعه وتأويل ألفاظنا بعكس معناها والاجتهاد في التمويه به على القرّاء بأننا نقصد خدمة الاستعمار الإيطالي، كلّ هذا لا يبطل حقًّا ولا يحقّ باطلاً لأنه إذا كان ثمَّ أناس لهم أغراض شخصية يريدون الافتراء علينا شفاء لاحنة صدورهم، فالأمّة العربية بمجموعها تقدر أن تميّز الخبيث من الطيّب وتقدر أن تفرّق بين خدمة الاستعمار الإيطالي وخدمة الأمّة الإسلامية.

نحن لا نحابي أحدًا ولا نخشى أحدًا وما جرت لنا العادة في كلّ حياتنا أن نتوقّف عن إبراز أفكارنا خشية أن يغتاظ منها زيد أو عمرو. فلهذا قلنا أمس ونقول اليوم وسنقول غدًا: لا نرضى باستعمار دولة غربية لدولة شرقية، بل لا نرضى بتسلّط أيّ شعب على أيّ شعب. هذا مبدأ مقدّس لا نحيد عنه. ولكنّنا في الوقت نفسه لا نرضى أن يكون مسلمو الحبشة خوَلاً للمسيحيين فيها. ولا نرضى بأن يكون ذنب الملك هو كونه لم يكن يظلم المسلمين. ونحن إذا اقترحنا إنصاف المسلمين هناك فما يكون ذلك منّا إلاَّ حبًّا بالمسلمين والنصارى معًا وميلاً إلى تثبيت استقلال الحبشة. وبعد هذا فليقل المكابر ما شاء.

جنيف، ١٩ المحرّم ١٣٥٤هـ/١٩٣٥/٤/٢٣م

شكيب أرسلان



المسلمون في البوسنة والهرسك*

الأمير شكيب أرسلان

يصف زيارته الأخيرة لهم ويصف أحوالهم

أرسل عطوفة الأمير شكيب أرسلان إلى صديقه الأستاذ محمَّد علي الطاهر صاحب الشورى كتابًا من يوغوسلافيا يصف له أحوال المسلمين في تلك البلاد فأرسل إلينا الأستاذ نصّه وهو:

من بوسنة سراي ٢١ رمضان سنة ١٣٥٢

أخي أبا الحسن: وصلني كتابكم إلى هنا وشكرتكم، وأسأل المولى أن يجعله عيدًا مباركًا ويحييكم لأمثال أمثاله. جئت هذه المرّة أصوم بين إخواني المسلمين في يوغوسلافيا لأني من ١٥ سنة أصوم في أوربا محرومًا أنس رمضان وصلاة الجماعة وسماع القرآن، ولا يوجد لي رفيق في أوربا غير زميلي إحسان بك الجابري، ولكنّه سافر إلى فلسطين وبغداد فلمّا كان أقرب قطر فيه مسلمون ـ وأيّ مسلمين أماجد ـ إلى جنيف هو بوسنة وهرسك اخترت صيام هذا الشهر بينهم وانشرح صدري بهم كثيرًا. ذهبت من جنيف إلى برلين لشغل أكثره يتعلّق بفلسطين وشكرت الألمان على الرسالة الرسمية التي أبلغونيها بأنهم لن يساعدوا اليهود على العرب لا في فلسطين ولا في غيرها، وبينما أنا في برلين دخل رمضان، ولكنّي تمكّنت من المجيء إلى يوغوسلافيا في أول جمعة من الشهر فقطعت البلدان من برلين إلى زاغرب، ٢٢ ساعة بالقطار، لا يقع نظري إلاَّ على الثلج ومن زاغرب وجدت أقرب بلدة إسلامية بنالوقا فوصلت إليها ثاني يوم وثلجها متراكم كالجبال، ولهذا ما أعلمت أحدًا بقدومي حتّى لا أزعج القوم بالاستقبالات والاحتفالات بينما الزمهرير الذي ليس له نظير يحجب بين الجار والجار، إلاَّ إنّي بعد أن وصلت رأيتهم أقبلوا من كلّ فجّ وعمرت المجالس بعد الإفطار عمرانًا ندر إن رأيت مثله في حياتي مع إنّي رأيت كثيرًا. وكان العلاّمة الحاجّ ابراهيم أفندي شيخ إسلام يوغوسلافيا في منزله في بنالوقا فسلّمت عليه ودعاني من جملة من دعاهم للإفطار، ورأيت فيه شيخًا في غاية الوقار والورع وهو فيما أعتقد تاج القرّاء في

* كوكب الشرق، العدد: ٢٦٤٩، (١٩٣٤/١/٢٦)، ص.١ وص.٩.

هذا العصر لا نظير له في علم القراءات. وبقيت في بنالوقا عشرة أيام في منزل صديقي سليمان أغا صالح أغا من أكابر بوسنة، وكان رئيس مجلس أوقافها وذلك أنَّ الثلج منع سير السيّارات وسدّ الطرق، وبمجرّد فتح الطريق أرسل لي رئيس مجلس العلماء في سراي بوسنة سيّارة واثنين من أعوانه فجئت من بنالوقا إلى "يايسه" العاصمة القديمة وبتّ ليلة. ثمَّ من يايسه إلى تراونيك. وفي كلّ من البلدتين أقبل علينا المسلمون أفواجًا وبتّ في يايسه عند محمَّد علي بك قاضي البلدة. وبتّ في تراونيك عند الدكتور سليمان بك من أعيان البلاد. ثمَّ جئت إلى البوسنة سراي أو سراجيفو عاصمة هذه البلاد، ونزلت في الأوتيل الكبير للمبيت، ولكنّي طول الوقت في مجلس العلماء بضيافة رئيسه سالم أفندي مفيتح الذي هو من أعضاء المؤتمر الإسلامي في القدس. وقد تخيّلت نفسي في بلاد العرب لازدحام الجماعات في المساجد، وترى العمائم كأنها نجوم السماء في كثرتها، فلا أحسب نفسي في أوربا. وسرايفو مبنية على جبلين يفصل بينهما النهر، وفيها ثمانون جامعًا كلّها بالمنابر العالية الضاربة في السماء تظنّ نفسك فيها كأنك في استانبول وجميع المسلمين يلبسون الطرابيش. وأمّا نساء المسلمين فكلّهنّ متنقّبات متستّرات بدون استثناء، وأمَّا اهتمام مسلمي هذه البقعة بأحوال إخوانهم في سائر المعمور فحدّث ولا حرج، أينما حلّلت تلقي عليّ الأسئلة والتراجمة تترجم لأنَّ لغتهم هي السلافية إلاَّ أنَّ علماؤهم وكثيرًا من نبهائهم يعرفون العربية والتركية وبينهم عدد كبير يعرف الألمانية ونزر يعرف الإفرنسية، ومستواهم العلمي هو فيما أظنَّ كمستوى مواطنيهم أو أرقى بعض الشيء ولهم الوجاهة التامّة في البلاد.

ومجموع مسلمي يوغوسلافيا مليون وثمانمائة ألف نسمة نصفهم في الشمال وهم أهل بوسنة وهرسك أو البوشناق ونصفهم في الجنوب وهم أرناؤوط وأتراك ونسبتهم جميعًا إلى مجموع مملكة يوغوسلافيا نسبة ١٤ إلى مائة وربّما ١٥ إلى مائة، وإدارة أوقاف المسلمين هي بأيديهم إلاَّ أنَّ أوقاف مسلمي بوسنة وهرسك أحسن إدارة من أوقاف اسكوب ومناستر أي جنوبي يوغوسلافيا، والريع السنوي لأوقاف بوسنة وهرسك يزيد على ١٥٠ ألف جنيه بالعملة الحاضرة وتدار به خيرات كثيرة من مساجد ومدارس ومكاتب وملاجئ، ولكنّهم لا يكتفون به في إحياء المشروعات العامّة، بل عندهم جمعيّات خيرية متعدّدة أكبرها جمعيّة "غيرت" عدد أعضائها عشرون ألفًا. وبين مسلمي بوسنة وهرسك ٣٠٠ أستاذ مخرّجون من مكاتب الحقوق العالية وأكثرهم موظّفون في العدليّة، وفيهم ٧٠ مهندسًا و٩٠ طبيبًا،

وتشكيلاتهم الشرعية هي أنَّ لهم أربعة مفتين في أربعة مراكز سرايقو وطوزله وبنالوقا وموستار ـ وهذه هي قاعدة الهرسك ـ ولهم مجلس علماء في سرايقو هو الآن تحت رآسة سماحة الأستاذ العلاّمة سالم أفندي مفتيح، ولهم مجلس أوقاف وعندهم مدرسة للقضاء الشرعي ومدرسة عالية اسمها المعهد الخزوي فيها ٢٠٠ من الطلبة ومدارس أخرى كثيرة، ومنهم في جامعة بلغراد الصربية ١٠٠ طالب وفي جامعة زاغرب الخرواتية عدد غير قليل وفي جامعة فينّا أيضًا منهم طلبة لا يقلّون دائمًا عن ٢٠ ومنهم عدد من الطلبة في باريز وفي برلين وليت أكثر الشعوب الإسلامية تعتني بالعلم اعتناءهم، أمَّا مسلمو القسم الجنوبي من يوغوسلافيا فإنَّهم أقلّ ترقّيًا حتّى الآن من البوشناق ولعلّهم يصيرون إلى مستوى إخوانهم هؤلاء في وقت قريب لأنهم أسوة بهم... وسأوفي البحث عن أحوال مسلمي هذه المملكة في كتاب هيّأت أكثره وأسميته "الحلّة السنّية في الرحلة البوسنيّة".

وممّا لا أريد إغفاله الآن ما شاهدته من اهتمام هذه الأمّة هنا بمسائل العالم الإسلامي ففي كلّ بلدة زرتها سمعت الأسئلة نفسها. قضيّة الخلاف بين ابن سعود والإمام يحيى. هم في وجل من أن تنشب بينهما حرب فإذا سمعوا أنَّ الأمل عظيم باتّقاء هذه الحرب بحسن السياسة سروا واستبشروا. قضيّة العراق و الآشوريين وكم كان فرحهم عظيمًا بانصراف هذا المشكل عن العراق. قضيّة المعاهدة بين فرنسا وسورية. يتواجدون كثيرًا حتّى تنال سورية استقلالها التامّ. قضيّة فلسطين. قد تكون هذه القضيّة أعظم همّ عندهم. وكم فرحوا عندما قلت لهم إنّ المهاجرة توقّفت الآن وإنَّه على كل حال ومهما كان من الأمر فلن يرضي العرب أن تتحوّل فلسطين عن عروبتها. هذا قرار حازم مجزوم به ما دامت الأمّة العربية في الوجود.

المسئلة المصرية وأين صارت؟ سأل عن ذلك أناس كثيرون وهم يرون مصر بعين التعظيم التي لا يرون بها غيرها. مسئلة البربر في المغرب والمساعي الجارية من جهة السلطة الإفرنسية في إخراجهم من الإسلام. هذه المسئلة تهمهم جدًّا وهم ينتظرون من فرنسة أن تعدل عن هذه السياسة التي لا تليق بها أحوال طرابلس الغرب. كثيرًا ما سألوا عن العرب الذين كان قد أجلاهم الطليان عن ديارهم وأراضيهم فأجبناهم بأنهم أعادوهم وأنَّ الحالة هي أصلح من قبل بكثير وإن كانت لا تزال ثمّة بواعث للشكوى. قضيّة التجنيس الإفرنسي في تونس والجزائر هذه أيضًا عندهم خبرها. وقد سرّهم ما ذكرته لهم من أنه في تونس لم

يوجد إلاّ ثمانمائة شخص قبلوا الجنسيّة الإفرنسية من بين ثلاثة ملايين مسلم، وأنَّ المسلمين رفضوا دفن موتى المتجنّسين في مقابرهم، وجدت الوقائع الدموية ولم ينثنوا عن عزمهم، قضيّة الهند والخلاف بين المسلمين والهندوك هذه أيضًا كانت من المسائل التي أحفوا عنها السؤال، وكذلك عن أحوال أفغانستان الحاضرة، وأكثر ما استقصوا إنَّما هو عن تركستان الصينية، وهل تأسّست هناك حكومة إسلامية مستقلّة أم هي ثورة لا غير؟

وبالاختصار لم يبقَ قطر إسلامي لم يسألوا عنه بتواجد عظيم ولا مسألة إسلامية لم يستعلموا عن مقدّماتها ونتائجها، وكنت أسمع الأسئلة والمباحث نفسها في كلّ بلدة مررت بها، ولمّا كان الوقت رمضان وكانت الأسمار تستمرّ إلى وقت السحور كان مجال المذكّرات عن أحوال العالم الإسلامي خاصّة والأحوال الدنيوية عامّة واسعًا جدًّا. هذا ما قدرت أن أذكره لكم عن رحلتي هذه في كتاب خاصّ كهذا كتبته خلسة نظرًا لضيق الوقت والسلام عليكم.

شكيب أرسلان



ترجمة جديدة للقرآن الكريم*
(رسالة للأمير شكيب أرسلان)

من المستشرقين الكبار الذي يليق ذكرهم ويصحّ الاستشهاد بأقوالهم الأستاذ إدوار مونته Edouard Montet مدرّس الألسن الشرقية في جامعة جنيف، وهو مشهور بين الأوربيين من جميع الأجناس، فتجد مؤلّفيهم يستشهدون بكلامه في المسائل الشرقية والإسلامية ويقدّرون آراءه قدرها.

والأستاذ مونته هو من القسم المنصف بين المستشرقين لا يتحامل على الإسلام ولا يقصد في مباحثه إظهار عورات ومثالب للإسلام كما يفعل غيره، بل يحاكم عقيدة الإسلام وتاريخ الإسلام وكلّ شيء عائد للإسلام محاكمة من ينظر إلى الأشياء كما هي لا كما يتخيّلها الوهم، أو كما يصوّرها الضلع، ممّا هو دأب كثير من الأوربيين الذين يخوضون في هذه المباحث وصدورهم ملأى بالضغن وسوء النيّة. وليس المسيو إدوار مونته مع ذلك بمسلم ليقال إنّه في أحكامه وآرائه هذه متأثّر بالتربية الدينية الإسلامية، أو إنّه اقتنع بالإسلام فاتّخذه دينًا، وأصبح لا يجد فيه عيبًا ولا يقبل عليه مطعنًا. لا، إنَّ السيو مونته لم يتّخذ الإسلام دينًا، وربّما كان غير معتقد بكلّ ما في النصرانيّة أيضًا، فهو يقول فيهما آراءه بكلّ صراحة، ويحسّن منهما ما يراه بحسب نظره هو حسنًا وينتقد ما يراه خليقًا بالانتقاد، وقد بدرت منه انتقادات ومؤاخذات في كلامه على تاريخ الإسلام تدلّ على كونه غير دائن بدين محمَّد (ﷺ) لكنّها تدلّ أيضًا على أنه غير مضمر سوءًا ولا متعمّد ثلبًا. ولهذا آثرنا أن ننقل بعض كلامه لأنه لا يمكن أن يؤتى من قِبل تعصّب للإسلام ولا أن يقال عنه إنّه مسلم يدافع عن عقيدته.

وقد نضطرّ إلى تصحيح بعض معلومات ناقصة جاءت في كلام الأستاذ المذكور أو إلى بيان رأينا في المسائل التي تختلف وجهتنا عن وجهته فيها.

فمن الكتب التي صنّفها الأستاذ إدوار مونته كتاب جليل اسمه الإسلام L'islam أخرجه سنة ١٩٢٣، وطالعناه وأشرنا على مواضع كثيرة منه لنقلها إلى اللسان العربي،

* المنار، ج ٣٠، (١٩٢٩م)، ص ص. ٣٧٧ ـ ٣٨٠.

وكانت تعوقنا عن ذلك كثرة الأشغال. وكتاب آخر أخرجه في السنة الماضية يحتوي على ترجمة القرآن المجيد بتمامه إلى اللغة الفرنسية طالعنا جانبًا منه وقابلنا الترجمة بالأصل فوجدنا الترجمة حَرِيّةً بأن توضع في الطبقة الأولى من تراجم القرآن الكثيرة. وقد صدَّر الأستاذ مونته هذه الترجمة القيّمة بمقدّمة نفيسة سننقل إلى قرّاء المنار عدّة أنموذجات منها. وها أناذا أنشر الترجمة الحرفية لديباجة مقدّمته لها كما يلي:

- قيمة القرآن وموافقة عقائده لليهوديّة والنصرانيّة واستقلاله

«القرآن في الحقيقة هو ذو قيمة خارقة للعادة، فهو بين الكتب الدينية من أعظمها شأنًا. وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الإنساني يقدَّر بمائتين وخمسين مليونًا على الأقلّ. ومن أهمّ ما في القرآن استقاؤه من المنابع اليهودية والمسيحية: التوراة العبرانية والتقاليد اليهودية من جهة، والإنجيل والتقاليد النصرانية من أخرى[١]».

فالعقيدة القرآنية إذًا هي ذات علاقة وثيقة مع العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية، والآثار التاريخية اليهودية المتعلّقة بالأنبياء والآباء، وكذلك الآثار النصرانية المتعلّقة بالمسيح هي موضوع صفحات عديدة من القرآن، فهذا التشابه في الفكرة الدينية بين الإسلام والنصرانية هو واصل إلى الحدّ الذي لا يفهم معه الإنسان لماذا وجد المسيحيون والمسلمون أعداءً إلى هذه الدرجة[٢] مدّة هذه الأعصر الطويلة، وقام بعضهم على بعض بمصارعات هي في الواقع مصارعات إخوان لإخوان، لكنّها صبغت القرون الغابرة بالدم الغزير؟

على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الاتّحاد في أصليْ الإسلام والنصرانيّة أنَّ الإسلام القرآني فاقد للاستقلال وأنه ليس ذا صفة خاصّة أصلية، فالأمر بالعكس والإسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية فهو دين سامٍ تحت صورة عربية خاصّة تتجلّى فيه روح اللغة العربية.

ولا ينبغي لقارئ القرآن أن يعجب من التكرار الذي يجده فيه فإنَّ مثل هذا التكرار معهود في معظم الكتب الدينية مثل التوراة ومثل كتاب الاقتداء بالمسيح الذي هو الغذاء

---

(١) المنار: إنَّ جميع المسلمين يخالفون المترجم في هذا الرأي ويؤمنون بأنَّ جميع ما في القرآن من عقائد اليهود والنصارى وأحوالهم وتاريخهم هو وحي من الله تعالى وافق ما عندهم من الحقّ، وأبطل ما ابتدعوا من الباطل، وأنَّ النبي (ﷺ) كان أميًّا هو وقومه كما قال تعالى (١١: ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا).

(٢) سبب هذا نزعة الحرب الصليبية التي أشعلت نارها الكنيسة الكاثوليكية ولا تزال تراعى في التربية العامّة في مدارس أوربة وبيوتها كما صرّح به الدكتور غوستاف لون الحكيم الفرنسي الشهير. وقد وجد الساسة الاستعماريون أنَّ في مصلحتهم بقاء هذه النار مستعرة.

الروحي للنفوس المسيحية[1] والقارئ يجد في القرآن صفحات في غاية الإبداع سواء من جهة الفكر، أو من جهة القالب الذي وضع فيه الفكر، وكذلك يجد فيه لآلئ فريدة في علم الروح معروضة في آيات هي أعلى ما يمكن من الأسلوب الشعري[2] وهو فيه أسلوب قائم بذاته، وفي القرآن منازع دينية ذات سعة مدهشة لا سيَّما بالنسبة إلى العصر الذي عاش فيه ذلك المصلح العربي، فالإبداع يتلألأ في هاتيك القطع الباهرة تلألؤ الكواكب الكبرى، ولا غرو أن ينظر إليها القارئ كمثال أعلى للأسلوب الشعري الشرقي.

ـ المستقبل العظيم المنتظر للشعوب التي تدين بالقرآن

ومّما يجعل للقرآن هذه الأهمّية أنه الكتاب الديني للأمم الإسلامية التي تمثّل في شرقي أوربة وفي العالم الآسيوي وفي ماليزيا وفي أفريقية دورًا ليس مهما وحسب، بل دورًا ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية.

وتظهر عظمة هذا الدور بزيادة في المستعمرات الأوربية التي هي في مختلف أقسام العالم الشرقي والأفريقي وفي البلدان التي تحت الحماية الأوربية والبلدان التي تحت الانتداب المتولّد من الحرب الكبرى.

فأوربة مكافلة في وجودها اليومي للأمم الإسلامية التي هي تحت حكومتها أو هي ذات علاقة شديدة معها، ولقد ثبت هذا الأمر ثبوتًا كلّ أحد يعلم مقداره في الحرب العالمية من ١٩١٤ إلى ١٩١٨.

وأخيرًا نقول إنَّ الذي يجعل للقرآن هذه الأهمّية الخاصّة التي نشير إليها هو المستقبل المدّخر للشعوب الإسلامية، إذ لا ينكر أنَّ مستقبلاً فخمًا ينتظر هذه الشعوب على مقدار ما يقتبسون من الحضارة الأوربية.

فتركيا وسورية وبلاد العرب وفارس وأفغانستان وشعوب شمالي أفريقية والثمانون مليون مسلم الذين في الهند الإنكليزية والثلاثون مليون مسلم الذين في الصين والشعوب

(١) المنار: لا ترسخ العقائد ولا الآراء العامّة في الأنفس إلاَّ بتكرار ورودها عليها والتكرار في القرآن من أساليب بلاغته المعجزة للبشر كما هو مبين في محلّه.

(٢) المنار: يريد الكاتب بالأسلوب الشعري التعبير المؤثّر في النفس من التشبيه والتمثيل والاستعارات الجميلة والكنايات اللطيفة لا صناعة نظم الشعر التي نزّه الله القرآن والنبي عنها.

الإسلامية التي لا تكاد تُحصى في ماليزيا (جاوى، سومطرة إلخ) هي كلّها على مراحل متفاوتة من قبول الحياة الاقتصادية والصناعية والفكرية التي عليها أوربة.

- ما ينبغي للمسلمين من الحضارة الغربية

وإنَّ هذه النتيجة قد تكون غير منتظرة عند من يجهل هذه الأمم أو من لم يقدر أن يفهمها حقّ الفهم أو لم يوفّق لفهم عقيدتها التوحيدية التي هي أعلى صورة روحية وجدت في دين بشري سواء عند الأمم السامية أو الآرية». انتهى

ولا بدَّ لنا أن نعقّب على هذه الديباجة ببعض ملاحظات، منها أنَّ المؤلّف قال عن عدد المسلمين أن ٢٥٠ مليونًا على الأقلّ، ولقد أصاب جدًّا في قوله [على الأقلّ] لأنَّ المسلمين على التحقيق يزيدون على ٣٠٠ مليون نسمة وربَّما كانوا ٣٣٠ مليونًا.

وأمّا قوله: «إنَّ للمسلمين مستقبلاً عظيمًا على قدر ما يقتبسون من الحضارة الأوربية، فليس معناه ما تذهب إليه ملاحدة تركيا وما يقلّدهم فيه هذا النفر القليل الملحد المتفرنج في مصر والعراق وسورية، من أنه يجب عليهم نبذ التعليم الديني الإسلامي، وأن يستبدلوا به تعليمًا لا دينيًّا مارقًا من كلّ صبغة دينية إسلامية. لا، هذا لم يخطر ببال الأستاذ العلاّمة مونته ولا هو من أبحاثه في كثير ولا قليل، ولو كان هذا مقصده لما كان معجبًا إلى ذلك الحدّ بأكثر مبادئ الإسلام وأصوله، ولما كان ألف فيه هذه التآليف الممتعة ولما قال «إنَّه على صورة روحية وجدت في دين بشري سواء عند الأمم السامية أو الأمم الآرية» (أي الأوربية).

وإنّما كان مقصد الأستاذ مونته العلوم الاقتصادية والصناعات التي تفوّقت بها أوربة اليوم والأساليب الصحيحة التي تسير عليها في حضارتها، وهذه يندب شرعًا الاطّلاع عليها والتحقّق بها، حتّى لا يفوت المسلمين شيء من أسباب القوّة والمنعة، وحتّى لا يكونوا مقصّرين فيها عن شأو أعدائهم أو أندادهم، وهي لعمري ممّا يقترن بالتعليم الديني الإسلامي، بل ممّا تزداد الرغبة فيه بقوّة هذا التعليم وتأثيره، كما إنَّ الأمم الأوربية واليابانية قد بلغت هذه المبالغ القاصية من هذه العلوم الحديثة والصناعات الناشئة عنها ولم تزل متمسّكة بأديانها وعقائدها، ولم يبرح التعليم الديني عندها سائرًا جنبًا إلى جنب مع التعليم الطبيعي والروح فيها متآخية مع المادّة.

لوزان، ٩ أكتوبر ١٩٢٩

شكيب أرسلان

ما يقال عن الإسلام في أوربة*

(ووجوب اطّلاع المسلمين عليها)

لأمير البيان، ومدره سلائل عدنان وقحطان، الأمير شكيب أرسلان

ـ الإسلام: أقوال الأوروبيين فيه وغرضهم منها

سبق لنا مقالة في المنار عن بعض الكتب التي أخرجت حديثًا في أوربة بشأن الإسلام والمسلمين، ومن جملتها كتاب لرجل يقال له "جول سيكار" من كبار تراجمة الجيش الفرنسي في المستعمرات الفرنسية سمّاه "العالم الإسلامي في المستملكات الفرنسوية".

وقد رددنا على شيء ممّا تضمّنه هذا الكتاب ووعدنا بإكمال البحث ونشر ما قاله المؤلّف المذكور عن الاستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده رحمه الله، وعن خلفه الأستاذ الحجّة صاحب المنار أمتع الله ببقائه.

قال في الصفحة ٧٣ تحت عنوان "الطور الديني الجديد" ما يأتي:

"إنَّ المسلمين الحاضرين هم من حيث السواد الأعظم على مذهب السنّة والجماعة، إلاَّ أنَّ روح الحرّية والنزوع إلى المبادئ العصرية قد ظهرا في أكثر من نقطة واحدة من العالم الإسلامي".

وقد كان مبدأ هذه الحركة في الهند ثمَّ في فارس ومنهما سرت إلى مصر وإلى السلطنة (العثمانية) المنحلّة. وسواء أكان هناك أم هنا يجتهد المسلمون الأحرار أن يثبتوا الوئام الواقع بين الإسلام والترقّي وبين العقيدة القرآنية والمقتضيات العصرية، ومن سمع كلامهم خال أنه ليس ثمّة إلاَّ سوء فهم أدّى إلى التناقض، وأنه من الخطأ البيّن الاهتمام ببعض جزئيّات ليست لها إلاَّ مكانة ثانوية، وأن يظنّ أنَّ بعض الأصول التي أولدها الاحتياج في وقت معيّن تعدّ قواعد سرمدية، وأن يغفل عن سُنّة التحوّل التي عليها مدار الاجتماع البشري.

وهؤلاء العصريون modernistes الذين يليق بهم اسم "المعتزلة الجدد" ينتقدون انتقادًا لا غبار عليه شدّة جمود المقلّدين وعماية هؤلاء، ويحاولون تخليص قواعد الإسلام

* المنار، ج ٣٠، (١٩٢٩م)، ص ص. ٣٣ ـ ٤٦.

الأساسية وتطبيقها على مقتضيات الحياة والعلم الحديث. وقد امتاز في هذا المشرب رجلان أحدهما أمير علي في الهند والآخر هو الأهمّ الشيخ محمَّد عبده الطائر الصيت في جميع شمالي أفريقية مؤلّف رسالة التوحيد.

فالشيخ محمَّد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) مفتي مصر الأكبر هو أنبغ تلاميذ المحرّك الأفغاني جمال الدين (١٨٩٧ ـ ١٨٣٩) باعث فكرة الجامعة الإسلامية. وله طريقة خاصّة به في تحقيق مصدر العقيدة، وهي طريقة صارمة في ذاتها كما يقرّ هو بذلك لأنه لا يسلم بصحّة شيء من مصادر الدين «إلاَّ ما كان في القرآن مع عدد قليل من الأحاديث المتعلّقة بحياة الرسول». وخلاصة مذهبه وجوب التسامح بين جميع مذاهب الإسلام المختلفة.

وأمَّا فلسفته الأدبية فمستمدّة من المذاهب الحرّة لا سيَّما مذهب الغزالي المتكلّم الكبير المتوفّي سنة ١٢٧٧ (مسيحية) الذي له أكثر اليد في التسامح بين مذاهب الإسلام المختلفة. وهذه الفلسفة مشتقّة من الاعتزال الذي هو وليد المحاكمة العقلية في علم الكلام الإسلامي والذي يقول بالاختيار المطلق، لكنّه مذهب اضمحلّ أخيرًا على أثر المصارعة الهائلة التي وقعت بين حزب الفكّرين وبين الجماعة المتشدّدة التي كان لها الغلبة في نهاية الأمر.

«والشيخ محمَّد عبده كان أبصر الخطر الذي أحدق بعقيدة المسلمين من جرّاء زحف العلوم الغربية (نقل المؤلّف هذا العبارة بنصّها عن الأب لامنس المستشرق اليسوعي) فنشط إلى إجراء تمييز ينقذ به مذهب السنّة والجماعة، وشرع بإلقاء دروس في الأزهر استجلبت الأنظار أولاً إلاَّ أنه توقّف عنها على أثر مقاومة العلماء الجامدين. فعند ذلك أسّس بمساعدة تلميذه المقدّم السوري السيِّد محمَّد رشيد رضا طريقة إصلاحية، لسان حالها مجلّة شهرية اسمها «المنار» ومنزع هذه الطريقة في الدين هو تجديد المذهب الوهّابي الذي لا يزال رشيد رضا يؤيّده بمعارفه بالسنّة. وأمّا في السياسة فهي مبنيّة على الجامعة الإسلامية والجامعة العربية وبالحريّ على عداوة الأجانب، ولك أن تقول على مقاومة الغرب.

وهي تميل إلى فكرة العصريين بتعديل الشريعة الإسلامية على ما يوافق ضرورات الوقت، ولكنّها تنشد أعتادها في مسلحة الوهّابيين، وتستمدّ من مذهبهم حججها على «المتفرنسين»، فمن الوهّابيين تأخذ مقاومة الخرافات الحشوية والتدمير على المعتقدين بتأثير الأولياء، وعلى الطرق الصوفية والمنار تطبع وتعيد طبع تآليف ابن تميمة التي كانت منسيّة

والتي هي أشدّ الكتب تهييجًا. هذا ورشيد رضا سيِّد أيّ من ذرّية محمَّد (ﷺ) وهو نفسه يعلن كونه عربيًّا قرشيًّا.

والمنار في استمساكه بالجامعة العربية مقيم على إيجاب إعادة الخلافة، كما أنه في مخالفته للمنازع القومية التي تحالف برنامجه الإسلامي العربي يشير بتوحيد مذاهب الفقه الأربعة في مذهب واحد، وضمّ شتات الفرق الإسلامية إلى جماعة كبرى يمكنها أن تقاوم أوربة وأن تقاتل ثقافتها المتقدّمة.

وهو يعترف بانحطاط الإسلام لكنّه يزعم معالجة دائه بالرجوع إلى عقيدته الأصلية على أن يفهمها الناس حقّ الفهم مستمدّة من الكتاب والسنّة. ويقول: لماذا نلجأ إلى علم الغرب الموجب للشبهات فكلّ شيء هو في القرآن. والمنار ينشر تفسيرًا لا بأس به فيقول مثلاً عندما يشير كتاب الله إلى الصاعقة: يلزم أن نفهم منها الكهربائية. كذلك المنار يشير بالاهتداء بأشعّة رونتجن لتقوم مقام «العدّة» وهي مدّة الثلاثة الأشهر التي يأمر بها القرآن أن تكون فاصلة بين طلاق المرأة وزواجها من غير زوجها الأول (هذا غير صحيح) ولمّا كانت العلوم العصرية لا تستغني عن التصوير اللازم في التعليم وفي إدارة الجيش وفي إدارة الأمن العامّ فالمنار يستنتج جواز ذلك للمسلمين. وهو يوجب على الطرق الصوفية الاشتغال بالمصالح العامّة من مؤاساة وتعليم... إلخ، وبهذه الأفكار الجريئة الشاذّة (تأمّل أيها القارئ) تزعم مجلّة القاهرة (أي المنار) متابعة طريقة المصلح الذي هو الشيخ محمَّد عبده وصرف النظر عن تعصّبها الوهّابي وشنآنها للأجانب. فهذا هو التجديد بالمقلوب (تأمَّل أيضًا).

فالإسلام إذًا هو على ملتقى الطرق، ونراه غير شاعر كثيرًا بأنه أصبح مضطرًّا أن يطرح من وسقه لينجو. فأمَّا ما كان من أمر الخلافة فالذي ألحظه أنَّ التضحية بها تمّت بدون ضوضاء ومثل ذلك تمّ العدول عمّا كان الهنود المسلمون يطالبون به من الأمور المتعلّقة بهذه الفكرة الجبروتية.

- تنويه بعلي عبد الرازق

بقيت الأحوال الشخصية (تعدّد الزوجات والميراث والعقود) فهذه هي التي تمنع المسلمين في البلدان غير الإسلامية من الاستفادة من المساواة التامّة المفروضة عيهم. فكتاب الشيخ المصري علي عبد الرازق يشير عليهم بأن يتقدّموا براحة وجدان إلى قبول تشريع

جديد بناء على كون النبي لم يلحظ جميع الأمكنة ولا جميع الأزمنة. وهذا هو رأي كثير من مفكّري الإسلام. فهل يتغلّب رأي هذه الطبقة المفكّرة فيجرّ معه جماهير الإسلام أم يبقى دون بلوغ الغاية؟ الجواب إنَّ أوربة تخطئ بعدم مراقبة سير هذه الحركة عن كثب. وقد تجد أوربة في هذا الرأي ما يساعدها على سياسة إسلامية ذات فائدة حقيقية. ولو لم يكن منها سوى الاستغناء عن سنّ قوانين مأخوذة من شريعة الإسلام لكفى. وهي المسئلة التي تورّطت فيها فرنسة في أفريقية ونشبت منها منشب سوء (انتهى ما نقله سيكار عن المستشرق اليسوعي لامنس).

- رأي سنوك الهولّندي في الإسلام والمصلحين فيه

ولنذكر هنا رأي المستشرق الشهير سنوك هور كرونجه الهولاّندي[1] الذي قال في هذه المسألة قوله الفصل:

"إنَّ البشريّة الإسلامية سواء من جهة النصّ أو من جهة الروح تعتمد على القهر والإكراه في نشر العقيدة (تأمّل أيها القارئ)، لأنَّ هذا الدين يعدّ كلّ الناس غير المؤمنين أعداء الله. ويوجد اليوم عصابة صغيرة من المسلمين تحاول تطبيق الإسلام على الأفكار العصرية لكن هؤلاء النفر تمثيلهم للدين الذي ولدوا فيه لا يزيد على تمثيل "المجدّدين" modernistes للدين الكاثوليكي. والحقيقة أنه لا يوجد فرق في هذا الموضوع بين فقهاء المذاهب المختلفة".

- ماهيّة إصلاحات الشيخ محمّد عبده

يقول أحد مادحيه إنَّ المزيّة التي اشتهر بها الأستاذ هو الدقّة النادرة التي يميّز بها بين ما هو في الديانة جوهري وما هو عرضي أو طارئ عليها الدين. وهو في أشدّ اقتراحاته جرأة لم يتعرّض بشيء للقسم الجوهري من العقيدة، ولا ترك نفسه يهاجم أركان الدين الأساسية، نظير كبار مصلحي القرن التاسع عشر كميرزا علي محمَّد "الباب" المولود في فارس سنة ١٨٢١ مؤسِّس البابيّة، وبهاء الله مؤسِّس البهائية في تركيا الذي صلبته الحكومة الفارسية سنة ١٨٥٠ (هذا خلط عظيم فالذي صلبته الحكومة الفارسية هو الباب لا بهاء الله وهذا قد توفّي حتف أنفه في عكّا منذ نحو أربعين سنة) أو ميرزا غلام أحمد في الهند. بل الشيخ محمَّد عبده

---

(١) المنار: هو الذي كان ادّعى الإسلام وجاورهم في مكّة المكرّمة يطلب العلم في الحرم الشريف عدّة سنين لاختبار بواطن المسلمين لتكون دولته على بصيرة في معاملة عشرات الملايين منهم وهو ممّن يفترون الكذب على الإسلام وهم يعملون.

بقي دائمًا ضمن حظيرة الإسلام، بل ضمن مذهب السنّة والجماعة[1] وإنّما كان عمله الوعظ والحثّ على التسامح الديني والدفاع عن حقوق العقل وإحياء فضائل الدين وتطبيق الإسلام على العلم الحديث.

وممّا لا جدال فيه أنَّ الشيخ محمَّد عبده قد دافع عن الإسلام دفاعًا شديدًا ذاهبًا إلى حدّ ترجيحه على النصرانيّة. فهو ينتقد ما في النصرانيّة من الحثّ على الغلوّ في حبّ القريب وأماتة الحواس والزهد في الدنيا، غافلة عن طبيعة الإنسان والغرائز التي هو مفطور عليها.

وهو يقول: «إنَّه لّما جاء الإسلام خاطب العقل والإدراك وأشركهما في العواطف والحواس آخذًا بيد الإنسان إلى سعادة الدنيا والاخرى».

ـ مقاومة أفكار الشيخ عبده لحركة الإلحاد

ولكن الشجرة تُعرف بثمارها. وهذه الجملة تكفي في هذا المختصر على الأقلّ لتنفيذ انتقادات الشيخ محمَّد عبده. فهل مآثر الإسلام تتحمّل القياس مع مآثر النصرانيّة؟ لاشكَّ أنَّ التاريخ الذي لا ضلع له يجاوب جوابًا فصيحًا على هذه المسئلة. وإن أراد القرّاء المسلمون الأدلّة والوثائق فما عليهم إلاَّ أن يختاروا. فإنَّ الكتب الحديثة المنوّهة بمآثر النصرانيّة جديرة بالاعتبار.

(وذكر المؤلِّف سيكار في الحاشية اسم كتاب في تاريخ الأديان وكتاب آخر في بيان فضائل الدين الكاثوليكي ولكن الجواب عن هذه القضيّة ـ وهي أنَّ الشجرة تُعرف بثمارها والتي معناها عزو تقدّم أوربة إلى النصرانيّة وعزو تأخّر المسلمين إلى الإسلام ـ هذا الجواب سهل علينا وسنذكره بعد الانتهاء من ترجمة هذا الفصل، وهما قد رأيا فيه حجج الأستاذ الإمام).

ولم يغب عن الشيخ أنَّ حالة المسلمين الحاضرة هي بعيدة جدًّا عن الصورة التي يعطيها هو عن الإسلام. وفي الفصل الذي عنوانه «إيراد سهل لا يراد» تجد منه أمرّ انتقاد لهذه الحالة إلاَّ أنه يعزو هذا الانحطاط إلى انحراف المسلمين عن جادّة دينهم ويقول: إنَّهم طيلة ما كانوا سائرين بمقتضاه كما يجب كانت جيوشهم لا تعرف إلاَّ الغلبة والظفر، وكان سلطانهم فائقًا في اللمعان كلّ ما تقدّمه من المدنيّات وكان مفكّروهم في مقدّمة الحركة الفكرية التي كانت في عصرهم».

---

[1] هذا هو الذي أسخط المستشرقين الهولندي والفرنسي على إصلاح الأستاذ الإمام وكانا يودّان كأمثالهما خروجه عن الإسلام كالباب والبهاء أو عن بعض أصوله كالقادياني.

ـ صدى الحركة العصرية في شمالي أفريقية

إنَّ الحركة العصرية قد أخذت تنتقص المبادئ الدينية ولكن انتقاصًا محدودًا وبمقدار مختلف بين تونس والجزائر ومراكش. فأفكار الشيخ عبده تغلغلت في عقول المفكّرين ووجدت مجالاً واسعًا لدى الشبّان، على حين ترى أرباب العمائم منكرين لها أشدّ الإنكار، ولهذا تجد مريدي الشيخ عبده متضائلين لا يقدرون أن يجهروا بأفكارهم نظرًا لقلّة عددهم ولشدّة مقاومة الجامدين لهم (لكن نفوذهم هو الغالب حتّى غلب على الأزهر ولله الحمد).

وهؤلاء الجامدون[1] بعداوتهم لكلّ ما ليس به نصّ صريح في القرآن ينقمون أشدّ النقمة على اتباع الطرق الصوفية تقديس الأولياء والطواف حول قبورهم. وكلّ مقصدهم هو تطهير الدين من جميع الخرافات ومن جميع الشعائر التي يعدّونها نصف وثنيّة والتي قد شوّهت عقيدة الإسلام الأصلية، وهي التي نجاحها قد كان بسبب شدّة تنزيهها الباري تعالى عن مشابهة مخلوقاته فالشيخ محمَّد عبده يقول: إنَّه إذا كان لا يجوز لمسلم أن يتشكّك في النبوّة والمعجزات التي ثبت وقوعها على يد النبي (ﷺ) فإنَّه حرّ أن يعتقد أو أن لا يعتقد كرامات الأولياء».

ثمَّ إنَّه يضاف إلى ما تقدّم من الملاحظات كون مسلمي شمالي أفريقية لا يبرحون أمناء للإسلام وإن كان بعض الفتور قد بدأ يظهر في عقيدتهم نفسها، وهذا الفتور إن هو لم يخالط العقيدة فقد ظهر في الشعائر. مثال ذلك صوم رمضان الذي كان يتمسّك به أقلّهم تحمّسًا بالدين قد مالت اليوم حبًّا له إلى الارتخاء».

ثمَّ إنَّ سيكار صاحب الكتاب عقد فصلاً نحو صفحتين لخّص فيه كتاب الشيخ علي عبد الرازق في أصول الحكم والخلافة، ولمّا كان هذا الكتاب معروفًا عند القرّاء لم نجد حاجة إلى ترجمة كلامه. ثمَّ أنتقل إلى موضع آخر أهمّ من كلّ ما تقدّم وهو تنصير المسلمين وهل هو مستحبّ أم لا؟ وهل هو ممكن أم لا؟ وقد كانت النتيجة التي وصل إليها بعد مباحث أخذت ١٥ صفحة أنَّ تنصير المسلمين مستحبّ وفيه من الفوائد الدينية والسياسة ما لا يخفى. كما أنه ممكن أيضًا خلافًا لما يذهب إليه بعضهم من استحالته وإن

---

(١) كذا وهو مخالف للإصلاح فإنَّ المصلحين هم الذين ينقمون من أهل الطرق خرافاتهم الوثنية وأمّا الجامدون فيتأوّلون لهم، بل يوافقونهم على أكثرها.

كان في حدّ نفسه أصعب من تنصير الوثني، وفي كلامه لوم ظاهر للحكومة الفرنسوية التي لم توجّه إلى هذا الأمر الجلل العناية الكافية بزعمه.

هذا ما ذكره هذا الضابط الفرنساوي المسمّى جول سيكار المترجم الكبير في الجيش الإفرنسي في أفريقية الذي لسي بقسّ ولا راهب، بل هو من مأموري حكومة تعلن أنها لا دينية أو «لا ييكية»[1]... فتأمّل

وسنرسل الفصل المتعلّق بتنصير المسلمين إلى المنار لأجل البحث فيما تضمّنه لأنه يحتوي مباحث كلامية أو على رأيهم لاهوتية، صاحب المنار أولى بالحكم فيها. أمّا أنا فإنّي أعلّق على الفصل الذي ترجمته الملاحظات الآتية:

أولاً - ليس لسيكار وبخاصّة ليس للراهب لامنس اليسوعي أن يتكلّم عن قضيّة جمود الإسلام ولا عن مخالفة نصوص كتابه للعلم الحديث، فليس في القرآن ولا في الشريعة ما يخالف العلم الحديث. بل القرآن ملآن بالحثّ على العلم مطلقًا لا يختصّ به نوعًا من الأنواع وليس في الدنيا كتاب دعا إلى النظر والسير وتدبّر أسرار الكون ما دعا إليه القرآن فهل يقدر أن يقول لامنس اليسوعي والضابط سيكار شيئًا من ذلك عن الكتب المقدّسة عندهما؟ وهي التي ألّف علماء من المسيحيين مؤلّفات ذات أجلاد ضخمة على تناقض نصوصها وقواعدها مع قواعد العلم الطبيعي الحديث؟ أيريان القذى في أعين غيرهما ولا يريان الخشبة التي في أعينهما؟ أيتكلّمان في الجمود وينسيان كلّ ما أورده المسيحيون من تاريخ الكنيسة في محاربة العلم؟ لم نكن نودّ التعرّض إلى هذا الموضوع لو لم يحرجانا فيخرجانا إليه لأنَّ الذي يقرع الباب يسمع الجواب.

ثانيًا - قضيّة أنَّ الشجرة تُعرف من ثمارها لا تنطبق على ما نحن فيه، فنحن لا يخطر لنا على بال أن ننكر ما في الإنجيل الشريف من مبادئ سامية وفضائل بمثلها يرتفع قدر الإنسانيّة وأنَّ المسلمين يجب عليهم دينًا أن يقدّسوا الإنجيل المُنزل ومبادئه الثابتة ويؤمنوا بصاحبه (ﷺ) كما يؤمنون بمحمَّد وابراهيم وموسى ونوح صلوات الله عليهم جميعًا، ولكن نسبة تقدّم أوربة وتفوّقها على غيرها في الأعصر الأخيرة إلى ثمرات الدين المسيحي ونسبة انحطاط العالم الإسلامي الحاضر إلى ثمرات التعليم الإسلامي كلاهما محض خطأ،

---

[1] علمانيّة.

فلو كان ذلك كذلك للزم أن تتقدّم أوربة وتترقّى منذ دانت بالنصرانيّة، والحال أنه كان مضى عليها ألف وخمسمائة سنة - مدّة نظنّها كافية للتأثّر والتأثير - وهي دائنة بالدين المسيحي وكانت لا تزال متأخّرة متقهقرة لا بل قسم منها كان يعدّ متوحّشًا، فأين كانت ثمار تلك الشجرة طيلة ألف وخمسمائة سنة؟ ومن الغريب أنَّ أوربة لم تبدأ بالترقّي - وهو رقيّ لا يعدو في الحقيقة المادّة والصناعة - إلاَّ بعد أن تراخت فيها حبال العقيدة المسيحية بخلاف الإسلام الذي كان راقيًا فائزًا يوم كان أهله شديدي الاعتصام به وأصبح متقهقرًا ضعيفًا عندما قعد أهله عن القيام بعزائمه. ثمَّ إنَّ المدنيّة اليونانية قبل النصرانيّة كانت أعلى جدًّا من المدنيّة اليونانية بعد أن تنصّر اليونان. فهل يريد سيكار ولامنس أن ينسبا ذلك إلى تأثير الديانة؟ إذًا تكون الميتولوجيا اليونانية أعلى من النصرانيّة! وهذا غير معقول وأنَّ مدنيّة رومة كانت لعهد وثنيّتها أرقى جدًّا من مدنيّتها بعد أن تنصّرت. لا بل كان دخول رومة في النصرانيّة موافقًا عهد بداية انحطاطها، أفنقول كما قال بعض مفكّري أوربة ومنهم أناتول فرانس: إنَّ ظهور النصرانيّة كان وفقًا لسير المدنيّة في العالم، وإنَّ بوار الدولة الرومانية كان من آثار ديانتها الجديدة؟ نحن لا نعتقد ذلك، بل نذهب إلى أنَّ لانقراض الدولة الرومانية عوامل أخرى.

- الأديان ومدنيّة أهلها

كما أنَّ انحطاط المدنيّة الأوربية في القرون الوسطى لم يكن المسؤول عنه الإنجيل. وكما أنَّ انحطاط الإسلام الحالي ليس بالمسؤول عنه القرآن، بل هناك عوامل كثيرة وأنَّ نسبة درجة رقيّ الأمم إلى تأثير الديانة تفضي بنا إلى القول بأنّ ترقّي اليابان الحالي هو من ثمرات مذهب شينتو. هذا ما عدا المدنيّات القديمة، كمدنيّة الصين والهند والمدنيّات البائدة نظير مدنيّة بابل ونينوى والنبط والفينقيين وكلّ هؤلاء كانوا وثنيين فهل نجعل الوثنيّة مصدر هذه الثمرات؟ إذًا لم يبقَ فضل للنصرانيّة على الوثنيّة.

إذًا البرهان على انحطاط الإسلام من جهة انحطاط المسلمين اليوم هو برهان ساقط بأدنى تأمّل. وليس الإسلام بمسؤول في القرون الأخيرة عن انحطاط المسلمين أكثر ممّا كانت النصرانيّة مسؤولة عن سقوط رومة وانحطاط الأوربيين في القرون الوسطى. ولو عمل المسيحيون حقّ العمل بمقتضى مباديء الإنجيل، ولو عمل المسلمون حقّ العمل بأوامر القرآن ونواهيه لأفلحت كلّ من الأمّتين في الدنيا والعقبى ونالتا سعادتي المادّة والمعنى.

ثالثًا ـ الكلام المنسوب إلى "سنوك هور كرونجه" المستشرق الهولاّندي مستغرَب من جهة الزعم بأنَّ الإسلام يعتمد في نشر عقيدته على الإكراه وذلك أنَّ قاعدة الإسلام النظريّة والتي جرى العمل بها من صدر الإسلام هي "لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ" نعم قاتل النبي ﷺ لأول الأمر المشركين لأنه نهاهم عن الشرك بالله وعن عبادة الأصنام فلم ينتهوا عنها وكان دعاهم إلى ذلك بالحسنى والقول الليّن فلم يستمعوا له، بل ثاروا به وقاتلوه فاضطرّ أخيرًا أن يقاتلهم بالسيف دفاعًا وأن يحطّم أصنامهم بالسيف حتّى يكون الدين كلّه لله. ومن المصائب أنَّ بعض الناس يقرأون القرآن فتمرّ بهم آيات لا يفهمون معناها أو يؤوّلونها بغير معناها الحقيقي، إمَّا عن ضعف ملكتهم بالعربية، وهي ملكة لا بدّ منها لمن أراد أن يفهم القرآن العزيز، أو لعدم اطّلاعهم على أسباب النزول والوقائع التي من أجلها وقع الوحي. وهذه المعرفة ضرورية لمن أراد أن يفهم كتاب الله حقّ الفهم فينشأ من جهل هؤلاء بهذين الأمرين خلط كثير رأيناه في أكثر التآليف التي صنّفها غير المسلمين في أمر القرآن.

أمَّا المستشرق الهولاّندي "سنوك هور كرونجه" فهو من أعرف الأوربيين بالكلام العربي والشرع الإسلامي، فإذا كان صدر كلام كهذا عنه فهو عن تجاهل لا عن جهل، وعن تعام عن الحقيقة لا عن عمليّة. فسنوك هور كرونجه يريد قبل كلّ شيء أن يخدم سياسة هولاّندة التي من مقتضاها لأجل استتباب سلطتها على الجاوى وسومطرة تَوهين العقيدة الإسلامية واستئصالها إن أمكن. ولكن سنوك هور كرونجه يذهب في إيهانها أو استئصالها مذهب الحيلة لا مذهب البطش، فيقول إنَّ من الخطل العظيم أن تسنّ الدول الاستعمارية للمسلمين الذين استولت على بلادهم قوانين مستمدّة من الشريعة الإسلامية، بمعنى أنَّ هذه الشريعة فيها من المرونة ما تسع معه احتياجات هذا العصر. بل يجب على الدول الاستعمارية أن تعدل عن هذه الخطّة وتجتهد في إقناع المسلمين بأنَّ شريعتهم أصبحت ثوبًا باليًا لا يقيهم حرًّا ولا بردًا، فإن أرادوا أن يعيشوا كسائر الأمم المتمدّنة لم يكن لهم مندوحة عن طرح الإسلام تدريجًا. وبذلك تكون دولة أوربة الغالبة اليوم على الإسلام اتّقت خطر انتقاض المسلمين عليها وأمّنت مستقبل سلطتها عليهم.

وفي كلامه هذا الذي لخّصناه في حواشي «حاضر العالم الإسلاميّ» شيئان جديران بالتقييد، (أحدهما) إنَّ سنّ قوانين عصرية مستمدّة من الشريعة الإسلامية غير موافق لا من جهة عدم مرونة هذه الشريعة، أو عدم اتّساعها لذلك، بل من جهة أنه لا ينبغي أن تسنّ لإدارة أمور المسلمين أنظمة عصرية يوقنون بها أنَّ شريعتهم قد تتلاءم مع العصر الحالي فيزدادون بها تمسّكًا وعليها عضًا بالنواجذ. والحال أنه يجدر بالدول المستعمرة أن تبذل كلّ جهدها في إقناع المسلمين بأنَّ شريعتهم أصبحت لا تصلح أصلاً لهذا الزمان فهم بين أمرين لا ثالث لهما: إمَّا أن يموتوا، وإمَّا أن ينبذوا شريعتهم! فالمسألة إذًا ليست حقيقة علمية، بل حيلة سياسية.

(والأمر الثاني) هو في كلام هذا الرجل الاعتراف بأنَّ الخطر الوحيد الذي يتهدّد الاستيلاء الأوربي ليس روح القومية، بل روح الإسلام. فإذا ذهبت روح الإسلام من الأمم المسلمة هان عليها خنوعها للأجانب ولم يتكاءدها فقد استقلالها.

وبعبارة أخرى إنَّ رابطة الاستقلال في العالم الإسلامي متوقّفة على حياة الدين الإسلامي. فإن ذهب الإسلام ذهب الاستقلال وأمّن المستعمرون شرّ الانتقاض في المستقبل. فهذا الاعتراف من مستشرق عظيم نظير سنوك هور كرونجه ثمين جدًّا يزيد قيمته اعتبارًا أنه لسان حال دولة أوربية مستضعِفة لـ٤٥ مليونًا من المسلمين.

بقي نقطة ثالثة في كلام هذا المستشرق الهولاّندي وهي قوله «إنَّ بعض المجدّدين الذين عندهم أفكار عصرية من المسلمين لا يمثّلون الدين الإسلامي أكثر ممّا تمثّل فرقة العصريين modernistes في النصرانيّة الكنيسة الكاثوليكية».

يريد أن يقول إنَّ التعاليم الكاثوليكية مخالفة للمبادئ العصرية وإنَّ الذين يحاولون هذا الأمر من الكاثوليك يحاولون المحال تقريبًا.

فليس إذًا لسيكار ولا للامنس أن يتكلّما في عدم انطباق الدين الإسلامي على العلم الحديث وعلى الأوضاع العصرية. ويكونان قد احتجّا بكلام رجل شهادته جاءت على الكاثوليكية كما جاءت على الإسلام أو أشدّ. لهذا قلنا إنَّه ليس لهذين وأمثالهما أن ينعتا الإسلام بالجمود وحبّ التقليد.

ـ **أصول عقائد البروتستانت والكاثوليك واحدة**

ونضيف إلى ذلك إنَّه ليس لسنوك هور كرونجه أيضًا ولا للهولآنديين ولا للبروتستانت أن ينبزوا المسليمن بالجمود. فإنَّ البروتستانت المفتخرين على الكاثوليك بالأخذ بالمبادئ العصرية وبالعمل بالعلم الحديث لا يفترقون عن الكاثوليك في شيء من جهة أساس العقيدة المسيحية، وإنَّ أكثر ما بين الفريقين من الخلاف إنَّما هو في عقائد ثانوية. ولسنا الآن في حاجة إلى تفصيل هذه الأمور. إذًا هذه الفرقة مثل تلك الفرقة من جهة الجمود على القديم وحبّ التقليد. ولكنّهم أولعوا بنقد الإسلام والمسلمين ونسوا أنفسهم.

وفي هذا الفصل الذي ترجمناه مظانّ أخرى تركنا الملاحظة عليهم لفهم القارئ.

شكيب أرسلان



باب المقالات

كتاب العالم الإسلامي في الأملاك الفرنسية★

تحت هذا العنوان قد ظهر مؤخّرًا كتاب جدير بالمطالعة، حقيق بأن يتنبّه له المسلمون المفكّرون، لا لأنه من الكتب التي تذبّ عن حقائقهم وتناشد الأمم الأوربية إنصافهم، بل لأنه بالعكس من ذلك يتضمّن من السموم بحقّ الإسلام والمسلمين ما نَدَرَ أن عثرت به في كتاب آخر مع أني طالعت في هذا الباب ما يفوق الإحصاء.

يمتاز هذا الكتاب عن غيره بأنه يضع هذه السموم في قالب غير خشن وكثيرًا ما يريد إنصاف الإسلام في توافه الأمور، ويمتدح من أوضاعه ما ليس في الاعتراف به كبير جدًّا، حتّى إذا وصل البحث إلى المسائل الأساسية أظهر المؤلِّف كلّ ما في قلبه من العدوان وذهب في التحامل أبعد المذاهب. وقد أخطرت ببالي خطّته هذه نكتة وقعت عندنا في جبل لبنان وهي: أنَّ بقّالاً شكا إلى مدير إحدى النواحي أحد الأهالي الذين يبتاعون من دكّانه أنه أصبح مديونًا له بمبلغ غير قليل، وأنه يلويه بدَينه وقد طالبه به مرارًا ولا يزال يماطله، فاستدعى المدير ذلك الرجل المديون وسأله عن سبب ليانه[1] بدَين البقّال فأنكر هذا وقال له: إنِّي حاضر لمحاسبته وستراني دافعًا له كلّ ما يثبت له في ذمّتي. فأمر المدير البقّال أن يأتي بدفتره فجاء ومعه دفتره وبدأوا بالحساب أمام المدير. فكان المديون وهو رجل فقير كلّما قرئت عليه نبذة من قبيل: بعشر بارات ملح، وبخمس بارات بهار، وبعشرين بارة ينسون يهتف: هذا عندي، أو يقول: من عيني هذه ومن عيني هذه أنا لا أفرّ من الحقّ. فإذا وصل البقّال إلى النفذات المهمّة بثلاثين قرشًا طحين، بعشرين قرشًا صابون، بخمسة عشر قرشًا أرزّ إلخ صاح: أذكر الله يا هذا أنا متى اشتريت منك هذا؟ وأخذ يناكر ويجادل وقد يقسم أنه لا علم له بهذه النفذات، والحاصل أنه لا يعترف إلاَّ بما ثمنه زهيد لا يستحقّ أن يتكلّف البقّال مشقّة الشكوى والأخذ والردّ من أجله.

★ المنار، ج ٢٩، (١٩٢٩م)، ص ص. ٦٨٧ ـ ٦٩٢.

(١) مداهنته أو كذبه.

ومن قرأ هذا الكتاب عرف أنه على هذا النمط لا يعترف بفضل الإسلام إلاَّ فيما لا طائل تحته، وأنه يحاول غمط محاسنه الجوهرية.

ومؤلّفه ضابط إفرنسي اسمه جول سيكار Jules Sicard مترجم أول في الجيش الإفرنسي، وقد أهداه إلى المسيو ستيغ الذي كان المشرف العامّ على السلطة المغربية واستعفى منذ أيام قلائل. وأصل الكتاب عبارة عن دليل اقترحه قائد الجيش الفرنسوي الذي يحتلّ بلاد الرين من ألمانية، لأجل العمل به في إدارة التوابير الفرنسوية التي فيها جنود مغاربة، فأنت ترى أنه كتاب رسمي حكومي معتمد على أقواله وآرائه في معاملة العساكر المسلمين الذين في الجيوش الفرنسوية، وليس بكتاب راهب ولا قسّيس غير مسؤول ولا بتأليف مبشّر جوّاب في الأقطار كلّما ذكرت تهوّره لقومه أجابوك: هذا مبشّر موسوس مهوس في أمور الدين ونحن لا نبالي كلام هؤلاء المبشّرين!

ولقد كنت اطّلعت على هذا الكتاب منذ أشهر ولمّا لم يكن عندي متّسع من الوقت للردّ على جميع ما فيه من مواضع الاعتداء على الإسلام، اكتفيت بوضع علامات على أهمّها ووعدت نفسي بمراجعة هذا العمل في وقت مناسب. ولا أعني أني أصبحت اليوم ذا ندحة كافية من الوقت لإعطاء هذا الردّ حقّه، ولكنّي رأيت أنه لا بدّ من أن ننبّه المسلمين إلى ما في هذا السفر الخبيث من الأباطيل المدسوسة على شكل دسّ السمّ في الدسم. وسبق أني نبّهت إخواننا المغاربة إلى ذلك في رسالة بعثت بها إلى جريدة "وادي مزاب" الصادرة في الجزائر والتي هي من الجرائد الفاضلة. وضربت مثلاً على تحامل المسيو سيكار هذا بما نقله إلى كتابه عن مؤلّف آخر اسمه "ديو لافوي" Dieulafoy في حقّ الرسول (ﷺ) وهو قوله:

"كان يستأكله طمع هائج وشوق لاعج إلى التمتّع بجميع الخيرات التي يمكن الحصول عليها بواسطة الحظّ والقوّة. ولقد وضع تحت تصرّف شهواته قوّة عقلية نادرة المثال وثباتًا لا يتزعزع".

فقلت في الردّ عليه: لم نعلم ما الخيرات الدنيوية التي قصدها النبي صلّى الله عليه وسلّم وجاهد من أجلها وما تلك الشهوات التي استخدم السلطان في سبيلها.

الحقّ أنَّ الرسول عليه السلام لم يكن عنده طمع هائج إلاَّ في نشر كلمة التوحيد، ولا شوق لاعج إلاَّ إلى استئصال عبادة الأوثان وكسر هاتيك الأصنام في جزيرة العرب وغيرها،

ولم يقصد من وراء قوّته ملكًا ولا إمارة لنفسه كما يعلم كلّ أحد، ولا بسطة في المال والعقار لأنه عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وطالما وجد مديونًا بشيء ليس بذي بال، مع أنه وجد بين صحابته الموسرون الكبار كعثمان وطلحة والزبير وغيرهم ممَّن كانوا يفدونه بمالهم لو رضي هو بذلك لنفسه، وإنَّما كان يستجيدهم البذل في تجهيز بعوث المسلمين والمصالح العامّة.

وأمَّا إنَّه تزوّج بكثير من النساء ممَّا لا يزال يتقعّر به بعض الأوربيين فهذه سنّة الأنبياء، ولقد تزوّج أنبياء بني إسرائيل أكثر منه ولا يزالون أنبياء في نظر هؤلاء المنتقدين المصدّقين للتوراة. وأغرب من هذا أنَّ داود مرويّةٌ عنه في التوراة حادثة "أوربا" وأنه أحبّ امرأة وقتل لها بعلها وهو برغم هذا معدود من الأنبياء[1] فنبي الإسلام كان يأمر بالزواج والإكثار منه ويكره التبتّل وينهي عن الرهبانيّة ويقول "تزاوجوا[2] تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة" أو نحو ذلك. وهذه هي القاعدة العصرية بعينها فاليوم الأوربيون مجمعون على أنَّ أحسن الأمم مستقبلاً أكثرها نسلاً فيكون الرسول ﷺ هو قدوتهم في هذا الرأي. ولعمري متى كان الزواج حلالاً، بل كان من السنن الإلهية التي لا يعمر الكون إلاَّ بها فما معنى انتقاده من جهة الكثرة؟ وما معنى الافتخار بالتبتّل وقطع النسل الذي كان ينبغي أن يعيش ليسبّح بحمد الله ويزيد في عمارة الأرض. ولقد ثبت زائدًا إلى ذلك بتقارير الأطبّاء من الأوربيين بعد الاطّلاع على الحوادث الكثيرة من المستشفيات وغيرها، أنَّ التبتّل يورث أمراضًا كثيرة وأنَّ المتبتّلين المخالفين لمقتضى الطبيعة البشرية يضطرّون إلى ممارسة أمور يستغنى عن ذكرها بالإشارة إليها من طرف خفي... وإنَّها قد تقع مع أشدّ الناس تدينًا وترهّبًا وإنَّ من هؤلاء من يريد التخلّص من أزمة الإنعاظ هذه فيخصي نفسه، فهل على مثل هذه الحالة يأسف دعاة التبتّل ومنتقدو الزواج الذي أحلّه الله، أم على الزنا وغيره من الممارسات الشائنة المضرّة بالعقل والبدن التي يدعو إليها الاكتفاء بالمرأة الواحدة التي إذا تجاوزت الستّين وأحيانًا الخمسين وأصبحت من الكبر بحيث لا يهفو إليها قلب زوجها تعرَّض زوجها لكبيرة الفاحشة وللتجاوز على حَرَم الغير.

---

(١) المنار: ساق أمير البيان هذا بطريق الإلزام لأولئك المعترضين من المؤمنين بأسفار العهد العتيق، والإلزام يكون بما يعتقد الخصم وإن لم يعتقده المستدلّ به ونحن المسلمين لا نؤمن بما يروونه من قصّة أوريا بنصوصها عندهم.

(٢) لفظ الرواية تناكحوا فذكره بالمعنى للسبب المعروف، والحديث رواه عبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً.

وانتقدوا الرسول ﷺ من جهة القتال وسفك الدماء ونسبوا إليه القسوة[1] وأخذ بعض المستشرقين يبحثون عن وقائع الإسلام الأولى وغزوات النبي وأصحابه ليستخرجوا منها أدلّة على دعواهم. وجواب هذا كالجواب الأول وهو أنَّ النبي قاتل من أجل إبطال الشرك ورحض العقول[2] من عبادة الحجارة والتماثيل من العجين والسجود للشمس والنار إلخ. وهذه هي المعرّات التي تهوي بالنوع الإنساني إلى الدرك الأسفل، ولم يكن ليستغني عن إرهاف الحدّ في سبيل التوحيد ولو كان قادرًا أن يستغني عن شهر السيف لكان أحبّ شيء إليه، ولو أنَّ الوعظ وحده كان جازيًا ما لجأ ﷺ إلى السيف: هذا إلى أنهم كانوا قد أهانوه وأخرجوه وحاولوا قتله وقتل دعاية التوحيد معه. وهذا أمر قد سبقه إليه موسى عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل ولم يخرجهم ذلك عن كونهم أنبياء حتّى في نظر هؤلاء المنتقدين، وكذلك غنم أموال الأعداء واسترقاق بعضهم بعد الغلبة عليهم كان ذلك من أوضاع تلك القرون وكان القتال بدونه متعذّرًا، ولقد جاء في التوراة من هذه الوقائع ما هو أعظم من هذا بكثير، ولعمري لماذا لا ينتقدون أعمال أنبياء بني إسرائيل الجارية بأمر الله تعالى، ثمَّ لماذا لا ينتقدون كلثين أحد مؤسّسي البروتستانتية الذي ثبت أنه أحرق أناسًا بالنار، ثمَّ لماذا لا يفكّرون في الغنائم التي تتقاسمها الدول الأوربية اليوم من أموال العدوّ وأملاكه وهي ما يطلقون عليه اسم الغرامة الحربية وهو لا يفترق في شيء عن تلك الغنائم إلاَّ من جهة القلّة والكثرة، فالغنائم التي كان يقسّمها الرسول على المجاهدين في سبيل الله كانت بعض أباعر وشياه وأوقارًا[3] من حنطة أو شعير ممَّا لا يقطع شأفة[4] قوم ولا يقصم ظهر أمّة وممَّا يعتاض منه ويسهل تجديده، ولكن دعاة المدنيّة الأدعياء اليوم يضربون الغرامات التي تدكدك الجبال فكيف الرجال، ويسترقّون الأمم لا الأفراد، ويضمّون كلّ ذلك إلى خزائنهم لينالوا به السعة والثروة ورفاهيّة العيش، والرسول ﷺ لم ينشد في مغازيه كلّها ثروة ولا رفاهيّة معيشة ولا قصد بفتوحاته عزًّا ولا سلطانًا وإنَّما كان عزّه وسلطانه تلقين شهادة لا إله إلاَّ الله وأينما عرف بصنم في الجاهليّة أمر بكسره.

---

(1) المنار: تواترت الروايات بأنه (ص) كان أرحم الناس وأشجعهم وأنَّ غزواته كلّها كانت دفاعًا ولم يقتل بيده إلاَّ رجلاً واحدًا وصل إليه يريد قتله فسبقه (ص).

(2) رحض العقول: غسلها.

(3) أوقارًا: أحمالاً.

(4) شافة: أصل.

فمن هنا تعرف قدار تحامل [سيكار] و[دولافوي] وأضرابهما على محمَّد ﷺ وما يرمونه به ممَّا البراهين ساطعة كالشمس على بطلانه. ولم يكن الرسول قاسي القلب ولا تشدّد إلاَّ عند ما كان الإسلام في ضعف وفي مقام المقابلة بالمثل. وأمَّا في الحقيقة فلقد كان رؤوفًا رحيمًا، وفيًّا أمينًا برًّا، وعندما أرسل عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في سرّية أقعده بين يديه وعمّمه بيده وقال «أغزّ باَسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ولا تغلّ ولا تغدر ولا تقتل وليدًا» وعندما سار أسامة لغزو الشام قال له أبو بكر ما يلي:

«ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلاَّ للأكل، وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم إلى الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وإذا قدّم لكم الطعام فاذكروا اسم الله عليه، يا أسامة اصنع ما أمرك به رسول الله ببلاد قضاعة ولا تترك من أمره شيئًا».

فأبو بكر رضي الله عنه إنَّما كان يلقّن أسامة وصايا رسول الله نفسه وهذه الوصايا هي أعلى جدًّا من وصايا الأمم الأوربية [المتمدينة] التي تجيز قتل الأطفال والنساء والعاجزين بالطيّارات، وتصبّ من السماء عليهم القناطير وألوف القناطير من الديناميت بدون تأمّل فيما يهلك بها من المخلوقات، التي يأنف الشهم الكريم أن يقذف عليها بحصاة.

وأمّا عدم قطع النخيل وما شاكله وهو محرّر أيضًا في الشريعة الإسلامية مع منع هدم البيوت ومنع قتل الأنعام في بلاد العدوّ ومنع قتل المدبر فقابله بما عمله الأوربيون في الحرب العامّة بعضهم ببعض من حرق وقطع وحطم ونسف عمران وخنق بالغاز وغيره.

وأمَّا ترك الرهبان يتعبّدون في صوامعهم فقابله بما جرى في الحرب العامّة عن الاعتداء على الرهبان والراهبات وسلِ الفاتيكان عن الذي حلّ بالراهبات... في بلاد لا نريد أن نسمّيها، وأغرب شيء فيه أنه ثبت كون الفاعلين بالراهبات لم يكونوا من جنود الأعداء، بل من جنود تلك البلاد نفسها.

وبعد هذا لا يستحيي سيكار وديولافوي ولامنس اليسوعي ـ وهو من المؤلّفين الذين يستشهد بهم صاحب كتاب «العالم الإسلامي في الأملاك الفرنسوية» وكثير من هذه الطبقة من التشنيع بشريعة الإسلام ومحاولة التجريس بمؤسّسيها.

وإنّي مضطرّ إلى الإمساك بعنان القلم عن الخوض في جميع ما خاضوا فيه من المسائل التي تعرّضوا فيها لعقيدة الإسلام ولسيرة رجاله إذ كان الأخذ والردّ لا بدّ من أن يجرّا البحث إلى ما يمسّ عقائد الملّة التي ينتمون إليها، ولست ممَّن يرغب في هذا الشأن ولا ممّن يرونه ضروريًّا، بل مذهبي في هذا المقام مجرّد الدفاع بدون تعرّض إلى عقيدة أهل الكتاب في عرض الجدال، فإنَّ ذلك يوغر الصدور ولا يخفّف من الشنآن[1]، وإنَّما يقدر الكاتب أن يخوض في سيرة الأقوام التي ينتمي إليها أولئك المفترون وبين مسافة الخلف بين أقوالهم وأفعالهم وبهذا كفاية.

وكذلك يُستحبّ تنبيه المسلمين على دسائس هؤلاء في البلاد التي يستعمرونها، ويحاولون تحويل عقائد أهلها بمختلف الأساليب ونقل ما ينشرونه بحقّ الإسلام وتقدّمه وتأخّره وامتداده وتقلّصه ونهوضه وعثاره حتّى يعلم المسلمون من أين يأتيهم العدوّ، ومن هذا القبيل فصل عقده صاحب هذا الكتاب على "التدرّج" Evolution العصري الذي وقع في الإسلام وأدار أكثر الكلام فيه على الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده رحمه الله والأستاذ الحجّة السيِّد رشيد رضا أبقاه الله، وسنترجم هذا الفصل في الجزء التالي من المنار ونعقّب عليه بما يلزم إن شاء الله تعالى.

لوزان، في ١٤ يناير سنة ١٩٢٩

شكيب أرسلان

(١) الشنآن: البغضاء.

الديمقراطيّة الحقيقية في الإسلام *

لسعادة الكاتب الجليل الأمير شكيب أرسلان

لمَّا تأخَّر الإسلام، سلبه الناس محاسنه الحقيقية، بل سلبوه محاسن ثبتت له ولم تثبت لغيره، وهكذا شأن الضعيف في كلّ وقت وهو أن يسلب كلّ شيء حتّى الحقيقة وحتّى التاريخ.

اطّلعت في «الأخبار» في عددها المؤرّخ في ٢٩ جمادى الأولى على مقالة عنوانها ملاحظات وتحقيقات، توخّى فيها محرّرها الشيخ محمَّد السيِّد الطويل من القسم العالي بالأزهر إثبات روح الديمقراطية والحكم النيابي والنظام الشوري للشريعة الإسلامية، والردّ على من زعم أنَّ الحكم النيابي إنَّما جاء من الغرب وأننا إذا نظرنا إلى الوراء لا نجد شيئًا من روح الديمقراطية عندنا في الشرق.

ولقد أتى صاحب الردّ بآيات بيّنات على ديمقراطية الإسلام ووجوب الشورى في أحكامها ممَّا لا حاجة معه إلى التكرار، لكن أحببت بهذه العجالة أن أزيد الموضوع بيانًا، فأقول لمن ظنَّ أنَّ الديمقراطية هي من وضع الأوربيين:

إنَّ الأمّة الفرنسية كانت من القديم تنقسم في طبقاتها الاجتماعية إلى ثلاثة أقسام: الأشراف والكهنة وسواد الأمّة، ولكن لم تكن حقوق هذه الطبقات واحدة وكان الأشراف يستبدّون بالعامّة كما يشاءون، وكذلك الإكليروس أي الكهنة كانت لهم امتيازات عظيمة، والشعب إنَّما كان آلة يستخدمها في مصالحه الملك وكلّ من الأمراء أصحاب الإقطاعات وما زال الأمر كذلك إلى زمان لويس الثالث عشر، إذ حصلت أزمة اقتصادية احتاجت المملكة بها إلى عقد مجمع من الطبقات الثلاث للمذاكرة في تسديد الأمور!

فاجتمعوا في سنة ١٩١٢ أو ١٩١٣ لا أتذكّر الآن جيّدًا تاريخ ذلك المجمع العامّ، وفي أثناء المذاكرات تلفّظ أحد نوّاب الشعب بجملة معناها أنَّ الأمّة الفرنسية عائلة واحدة، فما كادت تخرج تلك الكلمة من فيه حتّى قامت قيامة الأشراف.

---

* المنار، ج ٢٩، (١٩٢٨م)، ص ص. ١٩٧ـ ٢٠٠.

والتفت إليه أحدهم قائلاً: "ويحك أتجرأ أن تقول إنَّ الأمّة الفرنسوية عائلة واحدة وبذلك تجعلنا أقارب لكم، ما أنتم إلاَّ خدم عندنا"، ثمَّ إنَّهم عندما أرادوا إعطاء الآراء لم يقبل الأشراف أن يكون لنوّاب الشعب حقّ التصويت على قاعدة المساواة في الأصوات أي إنَّ صوت النائب الشعبي يكون مساويًا لصوت النائب النبيل.

وبقي هذا الحقّ منكرًا على الشعب إلى زمن لويس السادس عشر أي زمن الثورة الفرنسوية عندما نالوه بالقوّة.

فليذكر لنا التاريخ من أوله لآخره نادرة واحدة للإسلام مثل هذه النادرة، ومتى تجرّأ مسلم، خليفة كان أو ملكًا أو أميرًا من الأمراء أو شريفًا من آل البيت، على أن ينكر على أقلّ مسلم كونه أخًا له؟

وليقس القارئ هذ النكبة بنكبة الملك الغسّاني جبلة الذي كان نصرانيًا وأسلم في زمن عمر وجاء يطوف البيت الحرام فداس أعرابي على ثوبه فالتفت نحوه ولطمه، فذهب الأعرابي إلى الخليفة عمر وشكا إليه لطم جبلة إيّاه. فأمر الخليفة بإحضار هذا أمامه وقال للأعرابي: إن شئت الطمه كما لطمك.

فقال جبلة لعمر "أيستوي عندكم الملك والسوقة؟"، فقال له "نعم". فذهب جبلة بعد ذلك إلى الشام، ومنها التحق بالقسطنطينية، ورجع إلى النصرانيّة.

وليتأمّل القارئ كيف كان عمر يقيم الحدّ على أولاده حتّى الموت، وليتأمّل كيف أنَّ الشريعة لم تجعل لأحد على أحد مزيّة ولا امتيازاً، وكيف أنَّ الرسول (ص) كان يقول لو سرقت فاطمة بنت محمَّد لأمرت بقطع يدها[1].

وليقايس بين ذلك وبين قوانين الأوربيين الأساسية التي فيها أنَّ الملك مقدّس وغير مسؤول، وإذا قيل إنَّ الرقّ قد وجد في الإسلام، فالجواب أنه لم يوجد فضيلة حثّ عليها الإسلام بصريح القرآن ومتواتر السنّة أكثر من تحرير الرقيق، على أنَّ النصرانيّة لم تنكر الرقّ كما ظهر من كلام بولس الرسول.

---

(١) المنار: ذكر الكاتب الشاهد من الحديث بالمعنى ونحن نذكر سببه ونصّه المرفوع وتخريجه فنقول روى الجماعة البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة أنَّ امرأة مخزومية سرقت فأهمّ قريشًا أمرها وعظم عليهم أن يقام الحدّ على شريفة منهم، فقالوا من يكلّم فيها رسول الله (ص)؟ قالوا ومن يجترىء عليه إلاَّ أسامة بن زيد حبّ رسول الله (ص) فكلّمه أسامة فقال رسول الله (ص) يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود الله؟ ثمَّ قام فخطب فقال "إنما أهلك الذين كانوا من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها".

وإن كانوا في أوربا قد اتّفقوا مؤخّرًا على إلغاء الرقّ، فلا يجوز أن ننسى أنَّ الشعب الروسي إلى زمان الإمبراطور بولس كان رقيقًا لأمرائه، وأنَّ النبيل كان إذا باع قرية يملكها يبيعها مع الأهالي الذين فيها لا يملكون لأنفسهم أمرًا، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية! هذا كان شأن الأمّة الروسية منذ ١٥٠ سنة لا زيادة، ولا يجوز أن ننسى أنَّ الفرنسيس بعد أن تمكّنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا استعبدوا البقيّة التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم واستعملوهم خولاً وخدمًا مدّة طويلة، حتّى اندمجوا في غمار الأمّة الفرنسية وتنوسيت أصولهم. ولا يجوز أن ننسى أنَّ الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٦٦ من أجل تحرير العبيد وأنَّ الأميركيين سكان جنوبي الولايات المتّحدة حاربوا سكان شماليها مدّة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود. وكذلك إلى هذه الساعة وقد رأيت ذلك بعيني في سياحتي إلى أميركا في الشتاء الماضي لا يقدر السود أن يجالسوا البيض ولا في مكان.

وفي الولايات الجنوبية للسود قطر مخصوصة يركبون فيها بالسكّة الحديدية ومقاعد انتظار في المحطّات خاصّة بهم بحيث لا يختلطون مع البيض، بل أولادهم لا تقدر أن تتعلّم مع أولاد البيض في مدارس واحدة وكنائسهم أيضًا لا يدخل إليها البيض.

وفي أفريقيا الرسالات التبشيرية منذ قرنين أو ثلاثة تعمل لتنصير السود، وقد تمكّنت إلى هذا اليوم من تنصير ثمانية ملايين في غربي أفريقيا وجنوبيها وأواسطها.

وقد نصّت كتب أعمال الرسالات الدينية المذكورة على أنه في مدّة الثلاثة القرون التي استمرّ بها التبشير الديني، لم يعهد أنَّ مبشّرًا اقترن بامرأة سوداء إلاَّ اثنين أو ثلاثة، ذلك لأنَّ الأبيض يأنف من التنزّل إلى خلط دمه بدم الأسود. أقول الأبيض الأوربي.

أمَّا الأبيض المسلم فإنَّه لا يرى نفسه أعلى من ذلك، بل يجد أنَّ الأبيض والأسود كلاهما خلقه الله تعالى وكلاهما بشر ويمشي بحسب قول نبيّه «إنَّما بُعثت إلى الأحمر والأسود» ويتذكّر كتابه الذي فيه: ﴿يا أيّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

فإذا كان المبشّر الأوربي الذي يعظ طول النهار في أباطيل الدنيا وفي العدل والمساواة

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

هو نفسه لا يتنزّل إلى خلط نسبه بنسب أولئك الذين يعظهم ويرغّبهم في قبول دينه، فكيف تكون حالة التاجر الأوربي أو الحاكم أو الجندي الذي ليست مهنته التبشير؟

لا جرم أنّ مبدأ المساواة هو أبعد المبادئ عن عقليّة الأوربيين وإن كانوا قرّروها في الأعصر الأخيرة فإنّما قرّروها فيما بين شعوبهم ولم يكونوا ليعترفوا بها للشعوب الأخرى، وإنّني لأتعجّب ممّن يقول إنّ آثار الرقيّ التي شوهدت في الشرق في الخمسين سنة الأخيرة إنّما هي ثمرة إدخال القانون الروماني في إدارة الشرق.

فأنا أقول لمثل هذا، أين كان القانون الروماني في أوربا وفي فرنسا بخاصّة عندما كان لا يجرأ أحد نوّاب الشعب في هذه المملكة أن يقول إنّ الأمّة الفرنسية عائلة واحدة، حتّى تقوم قيامة الأشراف ويعدّوا تلك الكلمة كفرًا؟ هل كانت فرنسة غير مملكة رومانية لاتينية روح رومة وثقافتها وقوانينها منبثّة في جميع شعاب إدارتها؟

إنّ الكاتب الفيلسوف الإنكليزي المستر "ولس" عندما جاء منذ أشهر إلى باريس واحتفل أدباء الفرنسيس بتكريمه في السوربون وخطبوا الخطب الشائقة، وجاوبهم بخطبة عن الديمقراطية الحقيقية نشرتها الجرائد، كان من جملة قوله فيها: إنّ الديمقراطية الحقيقية لم تثبت إلاّ للإسلام والنصرانية.

وأنا أقول إنّ شهادته بها للإسلام هي أغلى جدًّا من شهادته بها للنصرانيّة التي هي مذهبه ومذهب أمّته ومذهب الأمّة التي كانت محتفلة في تكريمه.

فالإسلام يشهد له كثير من فلاسفة الأوربيين بالديمقراطية الصحيحة مع قصور معلوماتهم عنه، وينكرها عليه أناس من أبنائه، لا بل وينسبون إلى غيره محاسنه ويجرّدونه من المزايا التي فطر عليها.

وهكذا أُولعنا بتشويه محاسن أنفسنا وبجحد فضائل قومنا وبنحل غيرنا ما هو في الحقيقة لنا وصرنا لمجرّد أن نُنعت بالرقيّ نقلب حسنات أجدادنا سيّئات، ونقلب سيّئات الأوربيين حسنات، أو نتعامى عنها أو نتلمّس لها عذرًا. وهكذا

يقضى على المرء في أيام محنته　　　حتّى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

برلين، ٤ ديسمبر ١٩٢٧　　　**شكيب أرسلان**

الإسلام والحضارة العصرية ★

نقلنا في هذا الجزء من الزهراء نموذجًا من كتاب (البيّنات) للأستاذ المغربي الذي يصدر قريبًا من مطبعتنا. وفي أوله مقدّمة جليلة بقلم أمير البيان العربي في هذا العصر الأمير شكيب أرسلان تكلّم فيها عن الإصلاح الإسلامي، فرأينا أن نحلّي جيد الزهراء بهذه الصفحات منها.

الإسلام مرن سمْح قابل لكلّ نوع من أنواع الحضارة العصرية إلاَّ الفسق والفجور واللعب والسكر وسائر الرذائل التي يعترف المتمدينون والأوربيون بأنهم وإن توسّعوا فيها ببلادهم فهي رذائل وقاذورات، وليست من المصالح فضلاً عن أن تكون من الضرورات.

أمَّا قول اللورد (كرومر) بأنه لا يمكن إصلاح الإسلام، وأنَّ الإسلام إذا أصلح فلا يعود هو الإسلام بل دينًا آخر، فهو قول سياسي خبيث خبير متعمّق في أسرار الشرق، عارف بما يصيب بلاده من أثر نهوض الإسلام الذي لا يحول دون نهضته إلاَّ مرض التقليد. ولم يكن اللورد كرومر وحده من أصحاب هذا الزعم، بل قرأنا لكثير من أفاعي الاستعمار سواء من الفرنسيس أو من الهولاّنديين أو من غيرهم كلامًا بهذا المعنى، أخفى بعضهم فيه الغرض من ذهابه إلى عدم قابليّة الإسلام للإصلاح، وأوهم أنه رأي اجتهادي من عنده. وصرّح بعضهم فيه بمراده جراهية بدون تورية ولا مواراة. وهو أنَّ نقل الإسلام عن الجمود الذي ابتلي به هو الخطر الأعظم على الاستعمار الأوربي. وقد نقلنا في حواشينا على كتاب (ستودارد) الأميركي ما نصح به ذلك المستشرق الهولاّندي[1] الذي أقام بمكّة سنين متظاهرًا بالإسلام - قومَه من العدول عن فكرة القوانين الشرعيّة، وهي انتداب لجنة من علماء الحقوق لتأليف مجموعة قوانين أشبه بمجلّة الأحكام العدلية في تركيا يكون مأخذها من الشرع الإسلامي: إن لم يوجد المطلوب في هذا المذهب أخذ من ذلك المذهب، وإن لم يرِد فيه نصّ صريح من الكتاب والسنّة رجع فيه إلى قول لأحد المجتهدين أو رجع إلى القواعد الكلّية؛ من قبيل إذا ضاق الأمر اتّسع، والضرورات تبيح المحظورات، ولا ينكر تبدّل الأحكام بتبدُّل الأزمان، وما ماثل ذلك. قال المستشرق الهولاّندي المذكور: إنَّ الذي يجب على الدول الاستعمارية

★ الزهراء، (المحرم ١٣٤٤هـ/ آب)، ص ص. ٤٢ ـ ٤٥.

(١) هو المستشرق (كريستيان سنوك هرغرونجه Christian Snouck Hurgronje)، انظر حاضر العالم الإسلامي (١: ٦٤ ـ ٦٨).

ليس أن تسهِّل على المسلمين تطبيق دينهم على الأوضاع العصرية وتلائم بين شرعهم وبين المدنيّة الأوربية، لأنَّ هذا الأسلوب يزيدهم استمساكًا بشريعتهم، ويعليها في نظرهم على حين يلزم لنا إسقاطها. وإنَّما الذي يجب على الحكومات الأوربية التي استولت على بلاد الإسلام أن تجتهد في إظهار التناقض بين الإسلام والمدنيّة العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدّان لا يجتمعان، فلا بدّ من رفع أحدهما. ولّما كانت المدنيّة الحاضرة هي نظام كلّ شيء اليوم ولا مندوحة عنها لمن يريد أن يعيش، كان من البديهي أنَّ الذي سيرتفع من النقيضين هو الإسلام. هذا المستشرق الهولاّندي واللورد كرومر وغيرهما من دُهاة الاستعمار يريدون إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية، وإثبات كونه نظامًا قديمًا قد بلي واستشنّ[1] ولم يعُد صالحًا للحياة. على أمل أنَّ الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام ظهريًّا. وبنبذه تكون أوربا قد تخلّصت من أعظم خطر يحيق بها، وهو الحكم الشرعي الذي لا يجيز للمسلم أن يخضع لأمير لم يكن على دينه. ولولا هذه المادّة وحدها لكان الأوربيون يقيمون المسلمين الذين في مستعمراتهم على الشريعة المحمَّدية عن طيبة نفس، ويلتمسون بذلك الزلفى إليهم. ولكنّهم يوجسون دائمًا خيفة ذلك الحكم الهائل الذي يوجب على المسلم أن لا يطيع غير المسلم إلاَّ ريثما يتيسّر له نقض طاعته. وما هناك من أحكام الجهاد، ومن وجوب تضامن المسلم مع أخيه، ممّا جعل الإسلام بناءً واحدًا: لا يتخلخل منه مدماك واحد، بل حجرٌ واحد إلاَّ تمشّى الخلل في جميعه. وهذا ما يسمّونه بالجامعة الإسلامية التي لا يوجد على طباع الأوربيين المستعمرين أثقل منها.

فإن لم يكن من علّة لهذا الإصلاح الديني أو هذه الحركة الدينية بحسب تعبير جمال الدين سوى إظهار قوّة الشرع الإسلامي على إدارة المدنيّة الحاضرة واتّساعه لكلّ ضرْب من ضروب الرقيّ الصوري والمعنوي، بدون أن يقلق وجدان المؤمن أو تتخلخل عقيدته وبحيث تحبط آمال الاستعماريين الذين يحتالون لوضع الإسلام في موقف المعاند للمدنيّة الذي يأبى إلاَّ أن يسود جميعه أو يزول جميعه ـ لكفى سببًا لنهوض صُيّابه المصلحين في هذا العصر لإظهار مرونة الإسلام ونفي جموده، وإثبات أنه دين العقل، يذهب مع العقل كيف سار. وبذلك قيل إنَّه خاتمة الشرائع، لأنه ليس من أداة للفهم وراء العقل، ولا من واسطة للتمييز سواه.

---

(١) بات قديمًا.

على أنه لا ينبغي أن يؤخذ من ذلك أننا نتلقّى كلّ مذهب من مذاهب المدنيّة الأوربية من ضروريّات الحياة. ونقول ما قاله (أحمد أغايف) الكاتب التركي الروسي وهو: إنَّ المدنيّة الأوربية كلٌّ لا ينفصل بعضه عن بعض، أو جوهر فرد لا يجوز أن يتجزّأ، فلا بدّ من أن نقبلها بأصبارها[1]. ومعناه أن نلبسها على علاّتها، ونقلب سيّئاتها حسنات لمجرّد صدورها عن قوم نراهم أرقى منّا في الكيمياء والطبيعيّات، ونتهم صدقَ حسّنا في استهجان ما هو مستهجن من مناحي تلك المدنيّة، قائلين إنَّنا قوم لا يوثق بسيل تلعتنا[2]. ولا قِبَل لنا بشيء حتّى التمييز بين الغثّ والسمين! كلاَّ ليس هذا هو الذي نريد أن نفسح له صدر الشريعة الإسلامية وأن ندعوها لهضمه، بل مهما كان من سماحة هذه الشريعة في تلقّي العلوم والفنون والأخذ بأسباب القوّة والجد فيجب أن يكون أمرها بالعكس فيما يمسّ الفضائل والآداب وعفّة الأنفس وطهارة الأخلاق، لا ينبغي لنا أن نتهوّر فيما تهوَّر فيه بعض شبّان الأتراك الذين زعموا أنَّ شرب الخمور ولعب القمار هما من أسباب الرقيّ وشروط المدنيّة فلا غنى عنهما لأمّة[3] فلم يمضَ على ذلك سنة واحدة حتّى رأوا أميركا ـ أحدث أمّة متمدينة ـ تمنع استعمال المسكرات منعًا لا يقلّ عمّا هو في الشرع الإسلامي، وأممًا أخرى في أوروبا كادت تمنعه لولا بعض الأسباب الاقتصادية. فظهر لهم فساد رأيهم من كون كلّ ما ينحوه الأوربي صوابًا. ولا ينبغي أن نعتقد من التمدّن في شيء إباحة الزَّفن[4] للنساء مع الرجال، وترك البنات يتمتّعن بما شئن من اللذات الشهوانية بدون مانع ولا وازع. زعمًا بأنه لّما كانت أوربة قد فعلت ذلك فلا بدَّ أن يكون هو الحكمة بعينها، وأصالة الرأي بفصّها. ولا أن نقول ما قاله أحد كتّاب الأتراك التورانيين: من أنه لا رقيّ لهيئتنا الاجتماعية إلاَّ متى صارت الفتاة المسلمة تخاصر من شاءت من الشبّان تركيًّا كان أو أوربيًّا ومسلمًا كان أو مسيحيًّا أو يهوديًّا. أو ما ذهب إليه عبد الله جودت المتفلسف التركي: من أنه لا بدّ لتجديد شباب الأمّة التركية من جلب شبّان من الألمان والطليان وتزويجهم بالتركيّات بدون نظر إلى اختلاف الدين. ومثله ما نقله الأستاذ السيِّد مصطفى صادق الرافعي في كتابه البديع "السحاب الأحمر" عن بعض شبّان المصريين.

(١) بكليّتها ـ بأجمعها.

(٢) ما علا من الأرض أو ما سفل منها.

(٣) قرأت ذلك صريحًا في مجلّة "اجتماعيّات عمومية مجموعة سي".

(٤) الرقص.

كلاّ لم يبقَ هنا محلّ للكلام على مرونة الشرع الإسلامي، الذي مهما كان مرنًا فهو أشدُّ الأنظمة ـ وينبغي أن يبقى أشدّ الأنظمة ـ على الفجور والبغاء والتهتّك والاستهتار وفي تقييد الحرّية بقيود الآداب، إذ ليس فيما يسمّيه بعض المتفرنجين من الشرقيين مدنيّة وضرورة اجتماعية شيء من التمدّن ولا من الضرورة، وإنَّما هي مدنيّة شهوات، ومعافسة أبدان، يدعو إليها باسم المدنيّة العصرية بغيانُ الإباحة وأعداء النظام.

شكيب أرسلان



المستشرقون في موقفهم الخطير
(إزاء الإسلام)*

(بقلم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان - ونشرت في جريدة الجهاد)

هذه مسألة جلّى لا يتنبّه إليها الشرقيون كما يجب أن يتنبّهوا وكما هو شأنهم في كثير من المسائل، ولكن عليهم من الآن فصاعدًا بعد أن زعموا كونهم تقدّموا ورقوا أن يتنبّهوا لهذا الموضوع، وذلك أنَّ أوربة عالم كبير قد أخذ بزمام العالم كلّه في الوقت الحاضر وهو يتلقّى معلوماته عن الشرق والشرقيين من طريقين، أحدهما طريق القناصل والسفراء والمعتمدين الرسميين وهؤلاء يكتبون عن الشرق والشرقيين كلّ شيء ولا يكتمون حكوماتهم عنهما حديثًا، إلاَّ أنَّ حكوماتهم تتصرّف بتقاريرهم كما تشاء بحسب أهوائها ومصالحها فهي تكتمها أحيانًا وقد تطمسها طمسًا تامًّا حتّى كأنها لم تكتب ولم تتقدّم، وهي تفشيها أحيانًا إذا اقتضت ذلك سياستها، وكثيرًا ما تكتم شيئًا منها وتنشر شيئًا، وبالاختصار جميع تقارير سفراء أوربة وقناصلها في الشرق هي رهن أغراض النظارات الخارجية في أوربة، وإذا قلنا إنَّها رهن أغراض نظارات أوربة الخارجية فمعنى ذلك أنها رهن التغطية والتمويه والتلفيق والتبديل والتعديل والفصل والوصل، وإنَّه لا شيء هناك يقال له حقيقة، بل لا يوجد هناك إلاَّ ما يقال له "مصلحة".

وأمّا الطريق الثاني لمعرفة أحوال الشرق والشرقيين فهو طريق الاستشراق، وذلك أنه يوجد في أوربة طبقة من المتعلّمين تعنى خاصّة بدرس اللغات الشرقية وكلّ ما يتعلّق بالشرق وأهله، وهم يتنوّعون في هذه الدروس فمنهم من يتخصّص بعلوم الصين، ومنهم من يتخصّص بعلوم اليابان، ومنهم بالمعلومات عن الهند أو عن الجاوى، ومنهم من يجعل همّته منصرفة إلى الاستقصاء في أخبار فارس، ومنهم من يوجّه نظره إلى تركستان وغير ذلك، وأنَّ جانبًا عظيمًا من الاستشراق وربّما يكون هو الأعظم متوجّه إلى درس الإسلام والبلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها.

---

* المنار، العدد: ٣٣، (١٩٣٢م)، ص ص. ٤٣٥ـ٤٤٠.

وإنَّ هذه الطبقة التي تعنى بشأن الإسلام والمسلمين هي التي تكيّف المعلومات الإسلامية في أوربة بكيفيّة نظرها وتمثيلها للعالم الإسلامي إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، هذه الطبقة هي الترجمان الذي يلقي إلى ستّمائة مليون أوربي وصف أحوال الإسلام والمسلمين، فإن كان هذا الترجمان أمينًا تلقّى هؤلاء الستّمائة مليون أوربي تلك المعلومات على وجهها واعتدلوا بحقّ الإسلام والمسلمين، وإن كان الترجمان خائنًا أو لئيمًا يحرف الكلم عن مواضعه ويقلب الحقائق عمدًا لمرض في نفسه، أو لاحنة في صدره، أمكنه أن يهيج من أحقاد الأوربيين الكامنة على المسلمين، وأن يثير من عداوتهم لهم ما ليس لضرره حدّ، لأنَّ العالم الأوربي إذا فكّر قال، وإذا قال فعل وإذا فعل قام بانقلابات كثيرة، هذا إلى اليوم ولا نعلم ماذا يكون في الغد.

فهل هذه الطبقة التي يصحّ أن يقال إنَّها ترجمان العالم الإسلامي لدى العالم الأوربي هي أمينة أم خائنة في الترجمة؟ الجواب عليه هو هذا البحث الذي نريد الآن أن ننبّه الأفكار إليه بعد أن نقرّر أنَّ هذه الطبقة هي التي تصوّر أحوال المسلمين للأوربيين بحسب درجتَي صدقها وكذبها أو درجتَي علمها وجهلها.

من هؤلاء المستشرقين فئة ما استشرقوا ولا خطوا خطوة في هذه السبيل إلاَّ لأجل أن يتعقّبوا عورات الإسلام ومثالبه، ويخوضوا في أعراض المسلمين، ويبحثوا عن زلاّتهم ليجّسموها ويبرزوها لأنظار الأوربيين بالشكل المستبشع الذي تنفر منه طباعهم، وتثور حفائظهم، وذلك حتّى يزدادوا بغضًا للإسلام وبعدًا عنه، وهذه الفئة من حيث أنَّ أصل استشراقها هو العمل لخدمة المسيحية وتشويه الإسلام بما أمكن لا تقتصر على تجسيم العورات إذا وقعت عليها، بل يبلغ بها سوء القصد أن تقلب الحقائق قلبًا، وأن ترتكب التزوير عمدًا، وأن تأخذ بالحوادث الجزئية فتعمّمها فتجعل منها قواعد، وكلّ شيء تعمله هذه الفئة على قاعدة "إنَّ الغاية تبرّر الواسطة" فالإسلام بزعمها هو شرّ محض، فينبغي تنفير الناس منه بالحقّ وبالباطل، وهذه الفرقة من المستشرقين كثيرة العدد يطول بنا تعداد أسمائها، ومن جملتها لامانس اليسوعي البلجيكي ومارتين هارتمان الإلماني، ومرغليوث الإنكليزي، وفنسنك الذي ذكر عنه الدكتور حسين الهراوي أنه طعن في الرسول عليه السلام، وأنا لم أقرأ طعن هذا ولكنّي قرأت مطاعن الآخرين، وقد نشرت في حاضر العالم الإسلامي أسماء مشاهير المستشرقين الممتازين في التحامل على الإسلام فليراجع ذلك من أراد في ذلك الكتاب.

ومن المستشرقين فئة أخرى غرضهم أيضًا أن يخدموا المدنيّة الأوربية والثقافة المسيحية، وإن يبثّوها بما أمكنهم بين المسلمين ولكنّهم لا يستبيحون ما تستبيحه الفئة الأولى من الكذب والبهتان، وقلب الحقائق، واللواذ بكلّ عضيهة للتمثيل بالإسلام وأهله، كلاً هؤلاء يلتزمون في مباحثهم الطريقة العلمية التي تقتضي معرفة الحقّ في أيّ جانب كان، ولكنّهم لا يتحرّجون عند أول فرصة تلوح لهم أن يتولّجوها ويحملوا على الإسلام باسم العلم بزعمهم، وأن يجسموا الهنات، وأن يعمّموا الجزئيّات في الأحايين، وأن يتجاهلوا ما عندهم من الطامات الكبرى التي لا تقاس إليها معايب الإسلام في كثير ولا قليل، فهذه الفئة يتألّف منها أكثر المستشرقين وهم يعدّون إجمالاً من ذوي الفضل على العلم، وممّن يلزم أن يستفاد منهم، لكن مع دوام الحذر ممّا يلقونه أحيانًا من السموم بحقّ الإسلام ممّا يكون ضرره أشدّ من ضرر الفئة الاولى التي بهتانها ظاهر للعيان، يمكن أن توصف هذه الفئة "بالعدوّ القاتل" ومن هؤلاء الأستاذ ماسينيون الإفرنسي وسنوك هور كرونيه الهولّندي وغيرهما.

ومن المستشرقين فئة ثالثة قليلة العدد في أوربة، إلاّ أنّ منها رجالاً محقّقين وهؤلاء يتحرّون مزيد التحرّي، وينصفون الإسلام إنصافًا تامًّا لا يشوبه أدنى تحامل، وإن بدر منهم انتقادٌ للإسلام في شيء فيكون عن اعتقاد أو وجهة نظر نظروها، أو خطأ وقعوا فيه لا عن سوء نيّة، ولا عن تعمّد انتقاص، ولا أعلم في هذه الطبقة أشهر من غولد سيهر المجري الذي هو في الحقيقة أفهم الأوربيين لقواعد الإسلام، ومنهم في الحياة الأستاذ كامغمير الألماني والأستاذ مونتا السويسري ومنهم كاراده فو الإفرنسي صاحب كتاب مفكّري الإسلام، ومنهم الدكتور مايرهوف الألماني، ومنهم غروسه الإفرنسي، ومنهم رينه الإفرنسي الذي بلغ به استشراقه من حبّ الإسلام أن دان بالإسلام وحجّ البيت الحرام، ومنهم علماء آخرون لست الآن في مقام استقصاء من جهتهم.

ولا شكّ أنّ الفئة الأخيرة قد خدمت الإسلام خدمات جلّى في أوربة، وحوّلت كثيرًا من العقائد الباطلة بحقّ الإسلام عن مجراها الأول، وخفّفت كثيرًا من الأحقاد، وصحّحت جمهرة من الأوهام، ولكنّها مع الأسف لم تقدر أن تنسف تلك الجبال المتراكمة من البغض والعدوان، والعقائد الفاسدة بحقّ الإسلام والمسلمين، لأنّ التيّار الأصلي الباقي من القرون الوسطى لا يزال شديدًا.

كان زميلي إحسان بك الجابري يتحدّث منذ يومين إلى مهندس كبير، قد يكون أشهر مهندس في سويسرة، وهو من كبار المفكّرين فقال لزميلي: نشأنا من الصغر في بغض الإسلام وربّانا آباؤنا ومعلّمونا على مبادئ من العداوة للإسلام نحن الآن نعلم بطلانها، لكنّنا بحكم الاستمرار لا نقدر أن نتخلّص منها».

إنَّ غوته الشاعر الإلماني الأكبر الذي يقول الألمان إنَّه أكبر دماغ ظهر في ألمانية، وكان شبّان الألمان ينتحرون من تأثير بعض رواياته الشعرية، نعم غوته هو نفسه قال، وكلامه هذا مدوّن عنه، إذا كان هذا هو الإسلام أفلسنا كلّنا مسلمين؟

هذا الرجل الذي سحر ناشئة الألمان في عصره ولا يزال يسحرها إلى الآن قد عجز أن ينسف ما تراكم من الأوهام المتكاثفة بحقّ الإسلام في ألمانية، هذا والإلمان أقلّ الأمم الأوربية تحاملاً على الإسلام والمسلمين فما ظنّك بغيرهم؟

حرّر الأستاذ الحجّة السيِّد رشيد رضا في المدّة الأخيرة كتابًا أسماه «الوحي المحمَّدي» من أنفس ما كتبه المسلمون في هذا العصر وكلّ عصر، وكأنَّما كتبه تلقاء الانتقادات الأوربية التي تتوجّه على الإسلام، إمَّا عن تحامل وعداوة، وإمَّا عن جهل المستشرقين بحقائق كثيرة فاتتهم، أو عن جهل المؤلّفين المسلمين أنفسهم بحقائق دينهم وبكيفيّة الدفاع عنهم إلاَّ من عصم ربّك، أو بعدم فهم الكثيرين منهم لأسرار الشرع المحمّدي، وقد أهديناه إلى من نحسن الظنّ فيهم من المستشرقين فلعلّهم ينتدبون لترجمته إلى اللغات الأوربية[1] فتتبدّد به أوهام، وتنقشع ضلالات، ويتجلّى ما في المطاعن على أحكام القرآن من المحالات، فالذي يوفّق إليه الأستاذ صاحب المنار في هذا الباب لا يوفّق إليه غيره.

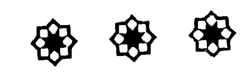
وأمَّا الخلاصة التي أريدها من هذه المقدّمات فليست إخراج المستشرق فنسنك من المجمع اللغوي المصري، هذا شيء يعني الحكومة المصرية ورعاياها المصريين وهي أدرى بشغلها، وأنا لست من مصر ولا أقدر أن أطأ بقدمي أرض مصر، ولكن أريد تنبيه اللجنة المنتدبة لترجمة الأنسيكوبيذية الإسلامية إلى العربية إلى شيء وهو أنه مع كون ترجمة هذه الأنسيكلوبيذية هي في الدرجة القصوى من الإفادة، بل هي ضرورية لناشئة العالم الإسلامي

(١) إنَّني طلبت من صديقي الأمير شكيب عناوين من يعرف من المستشرقين الذين يعرفون لغتنا وأرسلت كتاب الوحي إلى كلّ من أرسل إليّ عناوينهم ووعد بإرسال غيرها وغرضي من الإرسال إليهم إقامة حجّة الإسلام عليهم بوقفهم على حقيقته والوقوف على آرائهم فيه بعد، وإنّي لا أنتظر منه إرسال عناوين أخرى.

لا تخلو من تحاملات منكرة على الإسلام، ومن غلطات وخبطات علمية في مباحثها التي تولاّها بعض الفئة الأولى المتحاملة من المستشرقين، فإنَّ تحرير هذا الكتاب تشطره عدد كبير من المستشرقين وكلّ منهم كتب بحسب معرفته، ومنهم من كتب بمقتضى هواه أيضًا، فعلى لجنة الترجمة التي يجب أن يكون فيها الأديب والمؤرّخ والجغرافي والفلكي والرياضي والكيماوي والجيولوجي والطبيب والفقيه والفيلسوف والمتكلّم، لتكون الترجمة صحيحة أن يكون بجانبها لجنة تضع في الحواشي تصحيح ما يجب تصحيحه من الأغلاط، وتستدرك أيضًا على فوات المتن، وإلاَّ فنكون أدخلنا في عقول ناشئتنا الجديدة ضلالات لا تحصى باَسم العلم والفنّ وحرّية الفكر والاستنتاج التحليلي وغير ذلك من الألفاظ التي يلوكها بعض الأوربيين في تسمية سمومهم الخبيثة، ودسائسهم المنكرة لحمل المسلمين على اتّخاذ ثقافتهم، والتحوّل عن الإسلام، فنحن من هذا البلاء في المقيم المقعد الذي يكفينا بدون ترجمة أنسيكلوبيذية إسلامية يحرّر فيها لامنس وأضرابه، فكيف إذا أصبحنا نأخذ أخبار الإسلام والمسلمين عن هؤلاء ولا ننبه عليها؟

إليك الدليل على تحامل لامنس ومحاولته قلب الحقائق العلمية ما أرسل به إليّ أحد أصحابي من مصر من مقال في الأهرام ينقل كلام لامنس عن عرب الأندلس، وهو بحرفه "لم يكن بين المسلمين الذين قاموا بفتح الأندلس إلاَّ القليل من العنصر العربي الخالص، فكان منهم قوّاد العسكر وأصحاب الرتب فيه ليس غيره. أمَّا أكثريّة الجيش فكانت مؤلّفة من البربر والأفريقيين وفضلاً عن ذلك فإنَّ عدد العرب الأقحاح كان ينقص باطّراد متواصل بسبب الحروب الأهلية. فإذا تقرّر هذا رأينا أنفسنا مدفوعين إلى الإقرار مع الأستاذ ريبيره بأنَّ نسبة العنصر العربي في تكوين الشعب الإسباني المسلم قليلة جدًّا، ومن ثمَّ فلا شيء يجيز لنا نعت مسلمي الأندلس بالعرب" إلى غير ذلك من الهذيان الذي هذاه لامنس اليسوعي ومن قبله صاحبه العالم الإسبانيولي. العرب يفتخرون بمدنيّتهم الأندلسية، والإسلام يتّخذها حجّة على أهليّته للتمدين والتثقيف والسبق في ميدان الحضارة، وهذا بيت القصيد، فلامنس اليسوعي يريد إنكار هذه الحقيقة التي تأتي بعكس ما يقرّره دائمًا هؤلاء المتحاملون من أنَّ الإسلام لم يوفّق حتّى الآن إلى تأسيس مدنيّة راقية. ولمّا كانت هذه المقالة قد طالت وكان الردّ على كلام لامنس هذا بالأدلّة العلمية القاطعة يأخذ بعض أعمدة من "الجهاد" فإنَّنا نرجئ هذا الردّ إلى عدد قادم إن شاء الله.

[المنار] أشكر لصديقي الأمير شكيب هذا البيان لحقيقة حال جماعة المستشرقين وأصنافهم الثلاثة، ثمَّ أشكر له سلفًا ما سيردّ به على لامنس اليسوعي المشهور بغلوّه في عيوب طغمته وشرّها الكذب، وتحريف الكلم فما ينشرون من الكتب، والخيانة في العلم والأدب لخدمة سياستهم الدينية على قاعدتهم المشهورة "الغاية تبرّر الواسطة" عرفت هذا منذ كنت تلميذًا بتحريفهم لكتاب الألفاظ الكتابية، وإنِّي على اعتقادي بأنَّ أمير البيان سيفضح لامنس في ردّه عليه بما هو أحقّ به وأهله، وقل أن يقدر عليه غيره، لا يسعني إلاَّ أن أسبقه فأقول للامنس إنَّ العرب نزلوا كالغيث من سماء الإسلام على جميع الأقطار، فأحيوا جميع الشعوب الآسيوية والأفريقية والأوربية، وأصلحوا فساد حضارتهم ومللهم وأديانهم على قلّة عددهم في كلّ قطر، فإن كانوا وجدوا عوناً لهم من أبنائهم البربر الذين مدينوهم بالإسلام على فتح الأندلس فالفضل الأول على الفريقين لهم، وإلاَّ فلماذا لم يفعل ذلك البربر في أنفسهم قبلهم، فالعرب كانوا أقلّية في غير الأندلس ولكن قليلهم لا يقال له قليل، فهم كالملح قليله يصلح الطعام، وكالنور شعلة منه تطرد الظلام، ولولا أن تداركوا العالم بالإسلام، لقضت محاكم التفتيش الكاثوليكية على حضارة جميع الأقوام...



اتّساع التأليف في الإسلام*

لجناب الأديب عزتلو الأمير البيان الأمير شكيب أرسلان
أحد أعضاء جمعيّة المستشرقين الفرنسوية

لا أتعرّض الآن لمقام ما امتاز به سلَف هذه الأمّة وما حملوه من العلم وما وسَّعوه من المعرفة وما بثّوه من الأنوار وما بثقوه من أشعّة الحكمة في آفاق الكُرة، بحيث كانوا في الحقيقة «أمّةً وسطًا» في العلم بين اليونان الأوّلين والإفرنج المحدثين، فوصلوا فيه بين السابق واللاحق وحفظوا ما خلّفه الأُوَّل وألقوه إلى الآخر. فاتّصلت باجتهادهم نسبة العلم ولم تنقطع بسعيهم أسانيد الحكمة. فإنَّ ذلك أمر قد عرفه الخاصّ والعامّ، ونَبَهٌ قد اشتهر في تواريخ الأيام. وليس من غرضي الآن قرع بابه ولا خوض عبابه. وإنَّما قصدت بهذه العجالة التنبيه إلى ما وصلت إليه صناعة التأليف في الإسلام من الاتّساع والتشعّب وأدركته من التبسُّط والتقصّي وكيف ترامت أقلام الكتّاب إلى أبعد مرامي النظر وأنأى مطارح الفكر، ممّا يدلّ على ما بلغته المعارف عندهم من العنجهيّة والنموّ، وما كانت عليه الحالة الفكرية من الارتقاء والسموّ. وإذْ ما من مرية أنَّ كثرة التآليف عند قوم وتشعُّب الكتابة بينهم يتناسبان مع درجة ترقّيهم العقلي، وأنَّ القلم ترجمان الفكر وسميرُه ينطلق بقدر انطلاقه ويحتبس بمقدار احتباسه.

ومن نقَّب عن آثار السلف واستقرى خطط أقلامهم وغاص على لآلئ أماليْهم وأظفرَهُ الله بالاطّلاع على بعض ما في نفيس الخزائن من تلك الدفائن، على أنهم قومٌ عرفوا قيمة الليل والنهار وقدّروا قدر الأعمار، فلم يضيّعوا أوقاتهم سدًى ولا قعدوا عن إملاء الفوائد وإنَّما اشتغلوا وعانوا وسهّدوا الجفون وأجهدوا القرائح أكثر مرارًا ممَّا يقدّره أعظم الناس توفيرًا لحقّهم وأشدُّهم إعجابًا بفضلهم. ولقد قرعوا باب كلّ شيء فلم يدعوا علمًا إلاَّ أجالوا قداحَهُ ولا فرعًا من فروع المعلومات إلاَّ أوروا اقتداحَهُ. فهم والحقّ يقال قد خدموا المعارف وصدّقوها، وتسوّقوا العلوم وتذاوقوها، وشعشعوا الآداب وروّقوها. وإنَّ أقلامهم قد سوَّدت من الصحف ما ابيضّ له وجه المدنيّة ونضَّدت من المجلّدات ما لو جُمع لضاقت

* المشرق، العدد: ٥، السنة الثانية، (١ آذار ١٨٩٩م)، ص ص. ١٩٣ـ١٩٧.

عليه المكاتب برحبها. فإن كان لم يصل إلينا جميعه بما أُغرق أكثره في الأنهار وأُحرق بالنار وتعاورته أيدٍ مختلفة من البوار، فليس عدم الوصول بدليل على عدم الحصول. بلى، لقد كتب القدماء مكاتب حدّثتنا التواريخ الصادقة وأنبأتنا الروايات المتطابقة أنَّ بعضها ألقي في دجلة عند دخول المغول إلى بغداد فسدَّ مجراها، وجاز الناس على الكتب من جانب إلى جانب كأنّها جسر معقود. وأنَّ بعضها استنفد عزم النار الآكلة مدّة غير قصيرة من الزمن حتّى قضت قضاءها فيه. وأنه كان في عواصم العالم الإسلامي مثل بغداد وسمرقند ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس وغيرها من خزائن الكتب التي جمعتها همم الملوك والسلاطين ما لا يُحصيه إلاَّ الله تعالى. وقد قيل إنَّ المستنصر العبّاسي وحده نقل إلى خزانة الكتب التي أنشأها في المدرسة المستنصرية على شاطئ دجلة من الكتب النفيسة والأصول المضبوطة مائتين وتسعين حملاً سوى ما نُقل إليها بعد ذلك حسبما رواه المؤرِّخ ابن الساعي.

وحسبك أنه لمّا كتب الأمير نوح بن منصور الساماني إلى الصاحب بن عبّاد يستدعيه إليه ليسلّمه مقاليد وزارته، كان من جملة أعذار الصاحب في عدم الإجابة أنه يحتاج لنقل كتبه خاصّة إلى أربعمائة جمل. وهو فرد واحد من وزراء الإسلام اجتمع عنده هذا القدر من الكتب فما ظنّك بما اجتمع في مكاتب الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والعلماء وخزائن المساجد والمكاتب الموقوفة لعامّة الناس. وجميع هذه الكتب إلاَّ النادر الذي لا يُعتدّ به هو ممَّا خطَّتهُ أقلام علماء هذه الأمّة في جميع العلوم التي عرفوها، حتّى أنَّ ما دخل مكاتب الأستانة العليّة في هذه الأيام وتصفَّح فهارسها ـ مع كون المحفوظ إنْ هو إلاَّ نزرٌ ممَّا خلص من أيدي الحدثان وبقيّة عفا عنها الزمان ـ أيقنَ أنَّ المنشور من آثار القوم المتداول في أيدي الناس هو قُلٌّ من كُثر ولجّة من بحر، وأنَّ عرائس العربية بقيت في خدورها، وأنَّ كثيرًا من أبكار بنات الأفكار لبثت عوانس وراء ستورها، وأنَّ الواصل إلى الأيدي من آثار القوم بالمقابلة مع هاتيك الكنوز المدفونة والجواهر المكنونة لا يصلح أن يؤدّي عنها حسابًا ولا يهيّئ لها صورةً في الذهن، ولا يصحّ أن يكون مدارًا للحكم. فإنَّ في تلك الزوايا خبايا لا تخطر في بال ومدهشات لا تدخل في حسبان، ومن وقف عرف. والله يعلم أنني كنت أترك كتب العلوم المعروفة، والتي تسمّى بالآلات، وأتجاوز ما أعلم أنَّ التصنيف فيه شيء كثير إلى ما أعلم أنه فيه عزيز يسير. فربَّما وجدت في المكتبة الواحدة تآليف عديدة في فنون من العلم وضروب من الحكمة وشجون من القول، قلّما يُظَنّ أنَّ كتبَة الشرق أجالوا فيها قلمًا أو وطئوا

لها عتبة، فإذا هم قد أوسعوها بحثًا وسَبْرًا، وقتلوها علمًا وخُبْرًا. وربّما وجدْتُ صفحات بأسرها تحصي كتب علوم ما كنت أظنّ المسلمين منصفين بها، إلاَّ إشارات في حواشي الكتب ورموزًا في تضاعيف المباحث، أو بالكثير فصولاً في المتون الشهيرة والأصول التي تعمَّد أصحابها الإحاطة، وذلك لما نظنَّ من قلّة قيامهم على هذه العلوم واشتغالهم بها. والأمر فوق ما نظنّ وبعضُ الظنّ إثم وعدم الاطّلاع آفة الحكم. ولا يُظنَّنَّ أنَّ ما نراه من مشهورات التأليف هو ملاك أمر العربية.

ولا ينبغي أن يكون شأن الأديب إذا بحث شأن الطفل الذي يرى الأفق ممَّا يمتدّ إليه نظره فيظنّ هناك منتهى الدنيا، وقد خبأ الله وراء هذا الأفق جبال الأرض ووهادها وأغوارها وأنجادها وبحارها وأنهارها وبسائطها وسهولها. وإذا شبَّ الطفل وضرب في الأرض علم أنه ما كان يرى من الدنيا إلاَّ زاوية تصغر عن أن تتحيّز في أطلس الجغرافية، وأنه ما كان إلاَّ في غرور. وما أطبق مَثَل الطفل هذا على المتحذلقين الذين يخطبون فيما لا يعلمون ويحكمون على ما يجهلون ويَنْحون خصوصًا على هذه العربية والكاتبين بها بالجَرح والتعديل، وهم لم يقرأوا منها غير بعض المنشور وقد اكتفوا عن اللباب بالقشور. وزعموا أنه كافيهم في الحكم وأنهم على شيء من العلم. فأُحيل هؤلاء المساكين إذ كانوا لا يستأنسون إلاَّ بكلام الإفرنج على مشاهير المؤرّخين من الأوربيين خصوصًا الذين بحثوا في المشرقيّات ليعلموا فضل الشرقيين وعلّو كعبهم وبعد همّتهم في التصنيف. وحسبك ما قاله العلاّمة «سديليو» مؤرِّخ العرب الشهير عندما أفاض في ذكر احتفال المسلمين بالتأليف وتوسّعهم فيه وبيَّن درجة مزاولتهم للكتابة وخوضهم في جميع المواضيع، وهو قوله: إنَّ الإمام جلال الدين السيوطيّ صنّف من الكتب أكثر ممَّا يقدر كثير من الناس أن يقرأ طول حياته. وروى بعضهم أنهم قسّموا تآليف السيوطي على أيام حياته فأصاب كلّ يوم ثمانية كراريس، وهو أمرٌ يصعب تصديقه، ولكن مهما يكن من المبالغة فيه فإنَّ تآليف الجلال السيوطيّ رحمه الله أنافت على الأربعمائة بين كبير وصغير في كلّ علم وفنّ. ومع تعدّد التآليف العربية وتنوّعها فقد أطال الكتَبَة فيها الأعنّة وتوخّوا الاستقصاء وقلّ أن يوجد كتاب معروف أو ديوان مشهور إلاَّ وتعدّدت شرَّاحُهُ فإنَّ لديوان المتنبّي أربعين شرحًا وأحصيتُ لتسهيل ابن مالك ولكتاب سيبويه نحو ثلاثين شرحًا. ومن تآليفهم ما لا يوجد في التآليف العصرية الأوربية أوسع منه بسطة وأضخم حجمًا. وكم تأليف عندهم تجاوز الأربعين مجلّدًا. وكتاب

الإيضاح لأبي عليّ الفارسي شرَحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني في ثلاثين مجلّدًا، وابن الدهّان النحويّ في ثلاثة وأربعين مجلّدًا، وتاريخ حلب لاَبن العديم الحلبيّ روى اليونينيّ، إنّ بياضه يكون في أربعين مجلّدًا، وتاريخ دمشق لاَبن عساكر ثمانون مجلّدًا. قال ابن خلكان: قال لي شيخنا الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم وقد جرى ذكر هذا التاريخ وطال الحديث في أمره: ما أظنّ هذا الرجل إلاّ عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلاّ فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان مثل هذا الكتاب[1].

وروى ابن السبكيّ في طبقاته عن تاريخ الطبريّ أنّ ابن جرير الطبريّ قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا. قالوا: كم قدرُهُ. فذكر أنه ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا يفني الأعمار قبل إتمامه. فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ماتت الهمم. فاختصره. وللطبري تفسير كبير كان بهذا القدر أيضًا فقصرت عنه همم الطلبة فلخّصه أيضًا. ومن بعض أمثلة هذا المقام كتاب الأيك والغصون لأبي العلاء المعرّي ألف ومائتا كرّاسة. قال بعضهم: إنّه وقف على المجلّد الأول بعد المائة. ثمّ إنّ ابن عقيل الحنبليّ ألّف كتابًا ثمانمائة مجلّد يُظَنّ أنه أوسع ما أُلِّف في العربية.

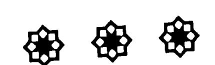
وقد أنافت تآليف أبي بكر الرازي على المائة. وروى ابن خلكان في ترجمة الشيخ أبي العبّاس أحمد بن عمر بن سريج الذي كان يلقّب بالباز الأشهب من أئمّة الشافعية أنّ فهرست كتبه كانت تشتمل على أربعمائة مصنّف. ورُوي أنّ تصانيف الإمام أبي بكر البيهقي بلغت في علم الحديث ألف جزء. ومن المؤلّفين العظام بالعربية الحافظ أبو بكر المعروف بالخطيب صاحب تاريخ بغداد، ذكر محبُّ الدين بن النجّار في تاريخ بغداد أنه صنَّف أكثر من ستّين كتابًا. وأبو الحسين أحمد بن يحيى الراوندي له من الكتب المصنّفة نحو مائة وأربعة عشر كتابًا. والرئيس أبو عليّ بن سيناء له من التصانيف ما يقارب مائة وذكر ابن خلكان في ترجمة الأمير عزّ الملك محمَّد بن أبي القاسم المعروف بالمسبحيّ الكاتب الحرّاني، الأصل المصري المولد، صاحب التاريخ المشهور، أنّ تاريخه ثلاثة عشر ألف ورقة. وذكر له كتبًا عديدة منها ألف ورقة ومنها ألفا ورقة ومنها ثلاثة آلاف ورقة وعدّ من هذا النمط في فنون مختلفة بضعة عشر تأليفًا ثمّ قال: إنّ مصنّفاته بلغت الثلاثين ولو شئنا أن نحصي تآليف كبار الكتّاب من أهل هذا اللسان مثل أبي نصر الفارابي وفخر الدين الرازي، وحجّة الإسلام

---

(١) راجع المشرق ٢: ١٠٧.

الغزالي، وجار الله الزمخشري وغيرهم من الأئمّة لطال بنا القول وتناءت بنا شقّة الوصف ومن شاء استقصاء هذه الغايات البعيدة في التصنيف والوقوف على ذلك الشأو القاصي في حفظ العلوم بين دفّات المصاحف فعليه بكتب التاريخ وأسفار الطبقات ومعاجم التراجم يجد كامنةً له فيها العجائب والغرائب.

وإنَّما الذي أدار في خلدي هذا المعنى حتّى فاض على سنّ القلم هو ما اطّلعت عليه هذه المرّة في مدينة دمشق، وهو آية باهرة، كتاب يسمّى بالكواكب الدراريّ تأليف أبي الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبليّ من أتباع الإمام ابن تيمية يبحث في جميع العلوم لم أجد أشبه منه بالأنسيكلوبيدية تبسُّطًا واستقصاءً. إلاَّ أنه مختلف عنها في الترتيب على حروف الهجاء والمحفوظ منه في مكتبة الملك الظاهر اثنان وأربعون مجلّدًا والظاهر أنَّ الباقي المفقود أكثر من الموجود وأنه يبلغ المائة والعشرين مجلّدًا، لأنه قد وُجد منه المجلّد العشرون بعد المائة تاريخ تصنيفه سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة، اشترك في كتابته جماعة. أمَّا المجلّد من هذا الكتاب فهو نحو ٣٥ كرّاسًا تشتمل على ٧٠٠ صفحة من القطع الكامل. ومن الغريب أنني لم أجد لهذا الكتاب ذكرًا في كشف الظنون مع كونه أمرًا عظيمًا، ممّا يدلّك على عدم الإحاطة وغيب كثير من فرائد اللسان عن الانتظام في عقود الفهارس، وأنَّ أيدي الضياع قد عبثت بمعظم ما خلّفوه من النفائس. ومن اقتصّ الآثار واستقصى الأخبار سقط على غرائب مدهشة وخوارق تكاد تكون معجزة، فقدَّر كم أراق كتبة الشرق من المداد في خدمة النطق بالضاد، وكم لهم بذلك من الشرف والأجر يعنو لفضلهم كلّ ذي عزّ وفخر.



خطاب الأمير شكيب أرسلان
إثر عودته من أوروبة*

أيّها الإخوان

من هذه العاصمة[1] عاصمة بني أميّة كانت تسري الجيوش العربية من المشرق والمغرب.

من هذه العاصمة كانت تسري الجيوش الجرّارة العظيمة فتحاصر القسطنطينية بدل المرّة مرّات وبدل السنة سنوات.

من هذه العاصمة كانت تسري الجيوش العربية إلى أقاصي ما وراء النهر؛ وإلى بلاد الصين، وكان القائد العظيم العربي قتيبة ابن مسلمة الباهلي يوالي الهزائم بعشرين ألف جندي على مئات الألوف من الأتراك الأشدّاء.

من هذه العاصمة كانت الجيوش العربية تسري إلى أفريقية فتقاتل البربر وتدخلهم في الهداية. ومن هناك تدخل إلى أوربا فتصل إلى جبال البيرنه وإلى وادي بواتييه وإلى وادي الألب في سويسرة وترفع العلم العربي هنا فيخضع لها شمّ المعاطس من أولئك الأمم العزيزة.

من هذه العاصمة نفسها دمشق كانت تسري الجيوش العربية فتبلغ حدود الهند ويوالي القاسم بن محمَّد الهزائم على جنود الهند البواسل.

في هذه العاصمة اتّسق للعرب أكبر ملك عرفه التاريخ، وكانت لهم تلك السطوة التي لم تزل مضرب الأمثال.

لا أريد أيّها الإخوان بتذكيركم هذه الحوادث التاريخية أن أقول إنَّنا الآن مستعدّون لإعادة تلك الفتوحات وتلك الغزوات فنحن قوم محافظون على بلادنا، ولكنّنا لا نريد أن يستباح حمانا ولا أن نسلّم بشبر أرض من بلادنا وإذا اعتدى معتدٍ علينا، قلنا له إنَّ الدماء التي كانت تجري في عروق أولئك الذين فتحوا تلك الفتوحات إن هي إلاَّ دماء عربية لا تزال تجري في عروق أحفادهم وإنَّنا ولله الحمد عرب ولا نزال عربًا.

---

* القبس، (٦/٦/١٩٣٧م)، ص. ١.

(١) يقصد دمشق.

أيّها الإخوان، نحن محافظون على كلّ شبر أرض أهله ناطقون بالضاد ولا بدّ للأمّة العربية أن ترفع كلّ استبداد أجنبي وتضعه عن كواهل أبنائها، وهذا إن لم يتمّ في الوقت الحاضر فسيتمّ في المستقبل، لأنَّ العصر عصر القوميّات وعصر الحرّيات للأمم المنيرة فضلاً عن أمّة كبيرة تعدّ سبعين مليونًا من البشر.

ولكن لا ينبغي أن يكون هذا مجرّد كلام ولا تكفي الخطب، بل يجب علينا العمل، وليكن كلامنا قليلاً وفعلنا كبيرًا.

يجب قبل كلّ شيء أن نكون متّحدين فلا تكن بيننا نزعات طائفية ولا نزعات حزبية لا سيَّما في وجه الأجانب.

أيَّها الإخوان الاتّحاد هو أساس النجاح ورمز القوّة وعنوان الشرف والعقل، وبدون اتّحاد يعرف الأجنبي أنَّنا نتكلّم ولا نفعل فلا يهابنا. إنَّ الاتّحاد فرض على العرب في كلّ زمن ولا سيَّما في هذا الزمن، ولا نفضح سرًّا إذا قلنا إنَّ الحالة العمومية وإن لم تكن توجب القلق الشديد فإنَّها توجب الحيطة والحذر ونحن في بدء دولة جديدة، والدول الجديدة تثقل على الدول القديمة، ونحن نعلم من هذا نظرًا لوجودنا في أوربا الشيء الكثير، ولا سيَّما بعد أن شاع وذاع وملأ الأسماع أنَّ العرب ماضون في سبيل الاتّحاد ويعدّون العدّة لإعادة الدولة العربية السالفة.

سادتي

إنَّنا الآن محاطون بخطرين، خطر من الجنوب وخطر من الشمال فلا يجوز لنا أن نغفل طرفة عين في هذا الوقت، بل يجب علينا أن نضاعف الجهود وأن نضع يدنا بيد بعضنا وإن كان بين الواحد والآخر شيء فعليه أن يتناساه، ونحن كلّنا إخوان أبناء وطن واحد نتكلّم اللسان العربي المبين وكلّنا أهل مشرب واحد إذا ذلّ الواحد منّا ذلّ الجميع، فلتكن هذه الأغراض ملء قلوبنا، أنا أعلم أننا اليوم أشبه بالمأتم من أجل إسكندرون ولكن الأمّة التي فيها أمثالكم التي ذكرت ما ذكرت عن أسلافكم، لا ينبغي أن يفت خطب في عضدها أو تثنيها عن عزمها نازلة، فعلينا أن نستمرّ على سيرنا من أجل التقدّم ولمّ الشعث وإن وقع شيء لا نرضى به في جزء من هذه المملكة العربية.

دول من عظيمات الدول نراها تصاب كلّ يوم بمصائب كثيرة وتذهب حقوقها أو

بعض حقوقها فتصبر على الأذى لاغتنام فرصة أخرى فنحن نفكّر دائمًا بإسكندرونة ولكنّنا نتّخذ الصبر والرويّة والله مع الصابرين (الآية).

هذه آية كريمة ولكنّها تتحقّق دائمًا والتارخ يشهد دائمًا بها، فالأمم التي تريد أن تحيى والتي وطّدت العزم على الحياة لا تجزع لأيّ خطب من الخطوب ولكنّها تتدرّع بالصبر، فكم من حادثة تكون من أولها مؤسفة، وعاقبتها خيرًا، وما أحسن قوله تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾ (الآية).

أيها الإخوان: لا أريد بكلامي أنْ أسليكم عن خطب أنا فيه نفسي مجروح الفؤاد ولكنّني أقول إنَّه يجب أن نتّخذ الصبر ونغتنم الفرص حتّى نستردّ حقوقنا، ولا ينبغي أن يظهر علينا أقلّ جزع وأقول إنَّ الدهر أطول من المصائب، هذا ما أقوله وستأتي أوقات أن يشعر فيها المعتدي أنه أخطأ ويعيد لنا ما أخذه منّا.

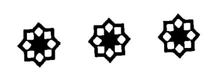
هذا ما أقول من جهة الحالة السياسية التي هي على وجه الإجمال حالة تؤذن بالنجاح والفتح القريب، لأنَّ الأمّة العربية أمّة كبيرة شاغلة أهمّ أماكن تاريخية لها من الأهمّية أكثر من سواها، ونحن شاغلوها وربَّما كانت أهمّية هذه المواقع هي التي حبّبت بها كثيرًا من الدول، ولكن البلاد راجعة إلى أهلها والحقّ يرجع دومًا لنصابه، سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

يا إخواني: إنَّني أرى كثيرًا من المكائد تحيط بالأمّة العربية فلأجل هذا أعود فأحرّض على الاتّحاد فيما بيننا، وأنتم تعلمون والأجانب يعلمون أنَّ هذه البلدة معدودة أنها الدماغ المفكّر للعرب بناءً على ذلك ينبغي علينا أن نقرن القول بالفعل وأن يكون رائدنا أن نعتمد على الأعمال ونسوس السياسة التي تعيش بها الحكومة. إنَّ السياسة لا تكون بالعواطف، بل بالعقل وينبغي علينا أن نقول دائمًا «الرأي قبل شجاعة الشجعان» وإن كنّا من أهل الشجاعة والحماسة هذا ما أقوله خاتمًا إيّاه بالشكر لهذه العاصمة التي تفتخر بها العروبة ويفتخر بها الإسلام والإنسانيّة.

فإن لم نكن أنا وزميلي في الجهاد عشرين سنة أهلاً لها فأنتم أهل بها، فإن لم تكن دمشق مصدر المكارم فأيّ بلدة تكون في العالم. وأرفع كفّي داعيًا الله أن يحقّق آمالنا جميعًا ولنهتف الآن بالجملة التي نموت ونحيا لأجلها وهي فلتحيا الأمّة العربية.



فهرست المحتويات





١٨٦٩ - ١٩٤٦

"ومن نقَّب عن آثار السلف واستقرى خطط أقلامهم وغاص على لآلئ أماليهم وأظفرهُ الله بالاطّلاع على بعض ما في نفيس الخزائن من تلك الدفائن، على أنهم قومٌ عرفوا قيمة الليل والنهار وقدروا قدر الأعمار، فلم يضيّعوا أوقاتهم سدًى ولا قعدوا عن إملاء الفوائد وإنّما اشتغلوا وعانوا وسهّدوا الجفون وأجهدوا القرائح أكثر مرارًا ممّا يقدّره أعظم الناس توفيرًا لحقّهم وأشدُّهم إعجابًا بفضلهم. ولقد قرعوا باب كلّ شيء فلم يدعوا علمًا إلاّ أجالوا قداحهُ ولا فرعًا من فروع المعلومات إلاّ أوروا اقتداحهُ. فهم والحقّ يقال قد خدموا المعارف وصدّقوها، وتسوّقوا العلوم وتذاوقوها، وشعشعوا الآداب وروّقوها. وإنّ أقلامهم قد سوّدت من الصحف ما ابيضّ له وجه المدنيّة ونضّدت من المجلّدات ما لو جُمع لضاقت عليه المكاتب برحبها. فإن كان لم يصل إلينا جميعه بما أُغرق أكثره في الأنهار وأُحرق بالنار وتعاورته أيدٍ مختلفة من البوار، فليس عدم الوصول بدليل على عدم الحصول...".

شكيب ارسلان